بيت الحكمة العباسي

ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الاسلامي



تأليف
حيدر قاسم التميمي



بيت الحكمة العبَّاسي

ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي

□

تأليف

حيدر قاسم التميمي

الطبعة الأولى

1432 هـ- 2011 م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2011/9/3334)

المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي

دار زهران للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5331289 – 6 – 962+، ص.ب 1170 عمان 11941 الأردن
E-mail : Zahran.publishers@gmail.com
www.darzahran.net

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الباب الأول

بيوت الحكمة

الباب الثاني

خزائن الحكمة

الباب الثالث

دور العلم

بدايات نشوء دور العلم والمكتبات

في حضارة وادي الرافدين

في البدء نود أن نؤكد على أنَّ لـبْيت الحكمة العباسي جذوره التي تضرب في أعماق التاريخ، أي في تراث العراق القديم أيام السومريين والبابليين والآشوريين هنا في بلاد بابل وفي العصر البابلي القديم، أي ابتداءاً ومن حدود عام 2000 ق.م. شهد العراق انبثاق واحدةٍ من أقدم الحركات العلمية والتعليمية في الشرق الأدنى القديم متمثلةً بعمل دؤوب على جمع وتدوين التراث السومري حرصاً على حفظه وخوفاً من ضياعه، بعد أن أصبحت اللغة السومرية في طريقها إلى الانقراض بعد سقوط سلالة أور الثالثة وهي آخر سلالة سومرية حاكمة في التاريخ في حدود 2006 ق.م. وقد لعبت دور التعليم آنذاك متمثلةً بالمدارس البابلية، الدور الرئيسي في هذه الحركة إذ كان يُدرَّس فيها اللغة السومرية وآدابها إلى جانب اللغة البابلية وتُجمع المفردات اللغوية في معاجم على ألواح الطين مع معانيها وشروحها بالبابلية. كما تمَّ تأليف معاجم أخرى جُمعت فيها أسماء الأشجار والنباتات والمعادن والأحجار الكريمة على اختلاف أنواعها إلى جانب أسماء الأسماك والطيور والحيوانات... وكانت مثل هذه الألواح تُستعمل بمثابة معاجم لدراسة علم الحيوان والنبات. وفي العصر البابلي القديم أيضاً تمَّ استنساخ كثير من المؤلَّفات الأدبية السومرية من ألواحها الأصلية. كما تمَّ تأليف أعمال أدبية أخرى باللغة البابلية كالملاحم والأساطير والتراتيل. وتُعد ملحمة كلكامش في نسختها

البابلية إنموذجاً فريداً لمثل هذه الأعمال، إذ جرى توظيف عدد من القصص السومرية التي تدور حول شخصية ومآثر البطل السومري كلكامش في ملحمة جديدة باللغة البابلية تعد بحق من روائع الأدب العالمي القديم، إذ جاءت هذه الملحمة قديمةً في أصولها السومرية، جديدة في صورها ومضامينها البابلية. هذا وتدل ألواح الطين المكتشفة في هذا العصر والمدونة بمسائل رياضية على أنَّ البابليين قطعوا شوطاً كبيراً في علم الرياضيات والفلك. وقد أثبتت الألواح المدونة بمسائل هندسية في (تل حرمل) أنَّ البابليين سبقوا إقليدس في معرفة خواص المثلث القائم الزاوية بزمن يزيد على 1700 عام.

إنَّ هناك علاقة وثيقة بين تطور الوعي التعليمي – الثقافي وبين نشوء المكتبات أو خزانات الكتب. وبقدر تعلُّق الأمر بوادي الرافدين، فنحن نعرف أنَّ الكتابة ظهرت في حدود 3200 – 3000 ق.م. وأنَّ أول ظهورها كان في مدينة (الوركاء) وفي الطبقة الأثرية الرابعة منها، إذ تمَّ العثور على بضع مئات من ألواح الطين مدونة بخط صوري. وهناك اتفاق بين جمهرة من الباحثين على أنَّ نشوء الكتابة جاء تلبيةً لحاجة المعبد إلى وسيلة لتثبيت مدخولاته ومصروفاته المالية. والمهم في الأمر أنَّ الكتابة منذ فجر ظهورها وفي كافة مراحل تطورها وانتشارها اللاحقة حافظت وبشكل ملفت للنظر على وحدة شكل العلامات وألفاظها ومعانيها في كافة المدن السومرية. وبتعبير آخر، فقد كان هناك تطابق تام بين قوائم العلامات 'المسمارية' المكتشفة في المدن السومرية بعد انتشار فكرة الكتابة من الوركاء إلى الأرجاء المختلفة من سومر. ومع انتشار الكتابة ظهرت الحاجة إلى وجود مؤسسة أو مؤسسات تعليمية يتم فيها تعليم الأبناء فنون الخط 'المسماري' في أمكنة مخصصة لهذا الغرض وهي التي أصبحت تُعرف بالمصطلح السومري (أي – دوبا) **Edubba** حرفياً (بيت الألواح). هنا يكمن

تطابق واضح بين النسختين السومرية ْبيت الألواحْ وبين ْبيت الحكمةْ مما يدل على أنَّ القصد من ْبيتْ هنا مكان حفظ الألواح أو الكتب. ويفترض الباحثون، أنَّ المدارس عند نشأتها كانت ملحقة بالضرورة بالمعبد وأنَّ المعبد كان مركزاً اقتصادياً وثقافياً إلى جانب وظيفته الدينية أساساً. ومهما يكن فيبدو واضحاً أنَّ المدارس في حدود 2000 ق.م. أي في مستهل العصر البابلي القديم، كانت مستقلة عن المعبد بدليل أنَّ ما يُعرف بـ(الألواح المدرسية) قد تمَّ العثور عليها في مرافق سكنية وليس في المعابد. إذ كشفت الحفريات عن بعض الأبنية التي يبدو من مخططاتها ومن الألواح المدرسية الموجودة فيها على أنَّها أبنية كانت مخصصة للأغراض التعليمية.

ذكرنا قبل قليل أنَّ انتشار الكتابة كان على نطاق واسع في المدن السومرية، وأنَّ ازدياد الوعي الثقافي أدّى إلى ظهور مراكز تعليمية في العراق القديم لاسيما في الجنوب إذ ظهرت وتطورت الحضارة السومرية. وتحظى مدينة (نُفَّر) على وجه الخصوص بأهمية مزدوجة من بين المدن السومرية الأخرى. فهي أولاً تتمتع بأهمية دينية مهمة كونها مركزاً لعبادة إله الأجواء (إنليل) ولأنَّ كهنتها كانوا يتمتعون بسلطة إضفاء الشرعية على حكم الملوك. وهي ثانياً من أشهر المراكز الثقافية في جنوب وادي الرافدين على الإطلاق. فالأدب السومري على سبيل المثال، ظلَّ يُنقل شفاهاً، وأنَّ عملية جمعه وتدوينه بدأت عندما أخذت اللغة السومرية طريقها إلى الانقراض بعد سقوط سلالة أور الثالثة. ويظهر أنه كان لمدينة (نُفَّر) دور هام في إجراءات الحفاظ على الإرث السومري وتدوينه إذ أُنشئت فيها مدارس لجمع وتأليف أرشيف للأدب السومري، وقد كشفت التنقيبات التي أجريت في أواخر القرن التاسع عشر في ما يُعرف بـْحارة النسّاخين (الكتبة)ْ في نُفَّر عن بضعة آلاف من الألواح الطينية

المدونة لأعمال أدبية، كما تمَّ العثور خلال التنقيبات اللاحقة في الخمسينيات من القرن العشرين عن نصوص مدرسية تعليمية وجدت في مرافق سكنية حيث الطلبة يتعلمون اللغة السومرية وحيث كانت الجهود تُبذل على الأدب السومري عن طريق جمعه واستنساخه من الواحة الأصلية. وبالفعل فقد أثمرت تلك الجهود عن نتائج في غاية الأهمية إذ تضمَّنت النصوص المكتشفة قوائم بالعلامات المسمارية لأغراض معجمية ونماذج من عقود ورسائل وقرارات قضائية ومسائل رياضية فضلاً عن المؤلَّفات بكل أنواعها وكذلك التراتيل والصلوات وأدب الحكمة...

وفي مرحلة لاحقة من تاريخ العراق القديم ظهرت المكتبات، وهي الأمكنة التي فيها الألواح المدوَّنة بشتَّى صنوف المعرفة. ويمكن القول بشكل عام أنَّ المكتبات أو خزانات الكتب في العراق القديم يمكن أن تُصنَّف إلى ثلاثة أنواع:

1. مكتبات خاصة بأرشيف الدولة كتلك التي عُثر عليها في بعض العواصم الملكية مثل نينوى وماري وكارانا (تل الرماح).
2. مكتبات خاصة بالمعابد مثل تلك المكتشفة في نينوى (مكتبة نابو) وآشور ونمرود وسبَّار. فقد عثرت بعثة التنقيب لقسم الآثار في كلية الآداب بجامعة بغداد على مكتبة في الطبقات العليا في منطقة المعبد في مدينة (سبَّار)، وفضلاً عن قيمتها المعرفية في المجالات اللغوية والأدبية والدينية فإنَّ لمكتبة سُبَّار التي يزيد عدد ألواحها (كتبها) على خمسمائة لوح، أهمية فريدة أخرى وهي أنَّه قد تمَّ العثور عليها سليمة تماماً فالألواح وجدت كما رتبها صاحبها الكاهن البابلي في

رفوف مبنية الواحد منها فوق الآخر. وحرصاً منه على بقائها محفوظةً بعيداً عن العبث وتأثيرات الطبيعة فإنّه غطّى تلك الألواح بطبقة من الطين.

3. مكتبات شخصية، مثل تلك المُكتشفة في (سلطان تبه) بالقرب من حرّان والتي عُثر فيها على مجموعة من النصوص الأدبية والدينية تعود إلى كاهن في معبد (سين) إله القمر، اسمه (قدري نركال) Qudri Nergal.

ولا شك أنّ مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال (668 – 631 ق.م) في نينوى كانت من أغنى وأشهر خزانات الكتب المكتشفة لحدّ الآن في وادي الرافدين وخارجه. فقبل ما يقرب من قرن ونصف القرن تقريباً، عام 1849 على وجه التحديد، كان (هنري لايرد) يحفر في قصر سنحاريب في قوينجق (نينوى) عندما عثر على قاعدتين فيهما أعداد كبيرة جداً من ألواح الطين غطّت الأرضية لارتفاع قدم أو أكثر. وبعد ثلاث سنوات من ذلك عثر مساعد (هرمز رسام) على مجموعات أخرى من الألواح في قصر الملك آشور بانيبال في (قوينجق) أيضاً وقد بلغ عدد ما عثر عليه الاثنان أكثر من (28) ألف لوح نُقلت كلّها إلى المتحف البريطاني. وقد تبيَّن فيما بعد أنّ معظم الألواح المكتشفة في قصر سنحاريب تعود إلى حفيده آشور بانيبال ذلك لأنّ الأخير أقام في قصر جده سنحاريب سنوات عدّة قبل أن ينتقل إلى قصره. ويمكن القول بشكل عام أنّ هذه المكتبة الضخمة تحتوي على صنفين رئيسيين من الألواح: الأول رسمي، مما يقع ضمن أرشيف الدولة، والثاني مكتبي، أي أنها وثائق حُفظت في المكتبة لأهميتها في مواضيع معينة كالتآليف الأدبية والدينية والسحر والعرافة والتعزيم والطب والفلك. وتتجلّى أهمية هذا الصنف من الوثائق في

الجهد الكبير الذي بُذل من أجل استنساخها من وثائقها الأصلية القديمة وفي التنقل بين المدن السورية والبابلية بحثاً عن وثائق ذات قيمة تراثية لإرسالها إلى نينوى في هذه المكتبة. وبدافع الحرص على أن تتم عملية استنساخ النصوص من ألواحها القديمة بدقة وأمانة دون تغيير أو تعديل أو تبديل فقد جاء على لسان الملك آشور بانيبال قوله في ذلك اللوح الخامس والأخير من قصة إيرا إله الطاعون، ما نصه:

(اللوح الخامس من سلسلة إيرا)

أنا آشور بانيبال، الملك العظيم، الملك الصنديد

ملك العالم، ملك آشور

ابن سرجون ملك آشور

ابن سنحاريب ملك آشور

كتبت ودققت وطابقت هذا اللوح بصحبة عدد من العلماء

على وفق ألواح الطين وألواح الكتابة الخشبية

وعلى نسخ من آشور وسومر وأكد

ووضعته في قصري لمطالعتي الشخصية

كل من يمحو اسمي المكتوب ويكتب اسمه

عسى الإله نابو، كاتب كلِّ شيء، أن يمحو اسمه..

هنا نجد نقطة تطابق مهمة للمقارنة بين جهود الملك آشور بانيبال للحصول على ألواح المعارف من بابل ووضعها في مكتبته في نينوى وبين

جهود الخليفة العباسي المأمون الذي أرسل إلى القسطنطينية صاحب بيت الحكمة (سهل بن هارون) للحصول على الكتب الفلسفية والطبية لوضعها في خزانته في بغداد. لكن الاثنين يختلفان في الهدف، فبينما يسعى الملك الآشوري إلى الحفاظ على تراث بلده من خلال جمع نوادر المؤلَّفات السومرية والبابلية واستنساخها في مكتبة نينوى، فإنَّ خطوة الخليفة العباسي للحصول على الكتب اليونانية تعد انفتاحاً على الثقافة الأجنبية وهي لذلك تعد مثالاً ممتازاً على ما نُسمِّيه اليوم بحوار الحضارات أو الثقافات الداعي إلى تعايش الأمم في ظل الدعوة إلى السلام وتبادل المعرفة واحترام آراء ومعتقدات الطرف الآخر.

لقد أثبتت الدراسات المسمارية والكشوفات الأثرية خلال القرن المنصرم، أنَّ الإغريق على وجه الخصوص، تأثروا بشكل واضح بحضارة العالم العربي القديمة (العراق، مصر، بلاد الشام) في مجالات شتَّى شملت الكتابة والفكر والمعتقدات الدينية واللغة والأدب (الهندسة والرياضيات والطب والفن والعمارة...). لقد وصلت معظم هذه التأثيرات وغيرها كثيراً من بلدان العالم العربي إلى بلاد اليونان عن طريق الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى والمناطق الساحلية لبلاد الشام وبحر إيجة وجزره. والحقيقة أنَّ ما يستخلصه الباحث من دراسة تلك التأثيرات القديمة في الحضارة اليونانية أنَّ بلاد اليونان مدينة لحضارة العالم العربي بأشياء كثيرة. وأنَّ ما أخذه العرب من الثقافة اليونانية خلال العصور الإسلامية فيه كثير من بُضاعةِ العالم العربي عندما انطلقت مظاهر من حضارة وادي الرافدين والشام ووادي النيل غرباً إلى بلاد اليونان والرومان ثم لتعود إليهم ثانيةً في زيٍّ جديدٍ هو الثقافة الهلنستية[1].

إنَّ من أهم المظاهر الحضارية لبلاد وادي الرافدين هو اختراع الكتابة في منتصف الألف الرابع ق.م. ويمكن القول أنَّها الميزة والمظهر الرئيسي، فبوساطة الكتابة تمكنوا من تدوين علومهم ومعارفهم وتأريخهم وثقافتهم وبها انتقلت

العلوم والمعارف من جيل لآخر، كلٌ جيل أضاف وغيَّر وبدَّل وفق متطلبات عصره وحاجته، فتوسعت بذلك مدارك الإنسان وأفق تفكيره. وأضحى مطلعاً على خبرات وتجارب عشرات بل مئات السنين بمجرد قراءة نصوص مكتوبة على بضع ألواح طينية. وقد وجَّه سكان بلاد الرافدين جلَّ عنايتهم إلى وجوب تعلّم الكتابة وإتقانها. فكان النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد طور النضج والازدهار لنظام التعليم في العراق، ويُفهم من النصوص المسمارية أنَّ التعليم لم يكن مقتصراً على الذكور بل شاركت الفتيات أيضاً فيه.

وقد أجمعت الآراء على أنَّ كلمة (**gi r gi nakku**) الأكدية تعني المكان الذي تُحفظ فيه الرُقُم الطينية أو المكتبة وبخاصة تلك الملحقة بالمعابد. وهي على الأغلب كلمة مستعارة من اللغة السومرية، وقد كان أصلها **gi r – gi n – un** بمعنى سلسلة من الألواح. ويُرادف كلمة **gi r gi nakku** الكلمة السومرية **LA – GU – TM** أو **LA – TM**، كما وردت تسمية أخرى بصيغة **E I M GU LA** التي تعني مكتبة ملحقة بمعبد أو لها علاقة بمعبد ما[2] وكما ذكرنا فقد حُفظت في تلك المكتبات شتَّى أنواع المعارف والعلوم مثل النصوص التاريخية والدينية والقانونية ونصوص تبحث في الفلك والتنجيم والطب ونصوص لغوية ومعجمية. ومن أنواع الألواح المهمة الأخرى التي حُفظت في المكتبات ألواح يُطلق عليها في اللغة الأكدية تسمية (**l i gi nnu**) القريبة في لفظها ومعناها من الكلمة العربية (لقَّن) وهي ألواح كُتبت فيها نصوص أو مقتطفات عامة، وتُخصص هذه الألواح لأغراض التعليم وتُقرأ عادةً بصوت مرتفع[3]، كما وردت إشارات إلى وجود أنواع من الألواح فيها تعليمات خاصة بمُغنِّي المعبد (الكالو) كانت ضمن مقتنيات مكتبة (آبو) في نينوى[4].

ونستشف من النصوص المسمارية أنَّ المسؤولين على المكتبات كان لهم منهج خاص في التعامل مع الألواح التي توضع في مكتباتهم ينمُّ عن فكر علمي منظَّم يبدأ في اختيار مضمون الرُقُم والمواضيع التي تتطرق إليها ثم في تدقيقها ويرد: كُتبت على الألواح حكمة أيا، حرفة مغني المعبد، سرُّ الخبير، دُققت وجُمعت ثم أودعت في مكتبة أبي زيدا، صومعة الإله نابو، سيدي، في نينوى، آه يا نابو أنظر برضا على هذه المكتبة[5]. كذلك أوجد العراقيون القدماء نظاماً علمياً دقيقاً لاستعارة الرُقُم من المكتبات للحيلولة دون ضياعها أو تلفها إذ كان يُسجَّل أسم الشخص المُستعير وعنوان الرقيم المُستعار على لوح طيني صغير يُحفظ في المكتبة، وفي رقيم عُثر عليه في الوركاء تقرأ: لَقد تمَّت استعارة النسخة الثانية للرقيم من قبل الملك سرجون وتمَّت إعادته[6].

كذلك يبدو أنه فضلاً عن استخدام منهج صارم في التعامل مع الألواح فقد كانت بركة الآلهة وعطفها تشمل كل من يستعير منها لوحاً ويُرجعه دون أن يغيِّر في محتوياته أو يُلحق به ضرراً عسى عشتار أن تنظر برضى على التلميذ ummanu الذي لا يُغيِّر سطراً ويُعيد الرقيم إلى المكتبة[7].

واستناداً إلى الرُقُم الطينية المكتشفة في مكتبتي آشور بانيبال في نينوى أنَّ الرُقُم الطينية كانت تحتوي على إمضاءات مستنسخيها فضلاً عن وضع علامات خاصة على الرُقُم تُشير إلى عائديتها للمكتبة الملكية، وهي إن صحَّ التعبير تُحاكي الإجراءات المتبعة في الوقت الحاضر من وضع علامة أو ختم خاص على الكتب المحفوظة في المكتبات أيّاً كان نوعها.

كذلك نُشير إلى ظاهرة علمية لا يمكن أن تستغني عنها في أيِّ مكتبة منظَّمة في السابق وإلى الوقت الحاضر، ألا وهي وضع فهارس أو قوائم بما موجود في المكتبة في نصوص تُسهِّل على المطالعين الرجوع إليها ومعرفة ما

تحويه من مواضيع مختلفة. وقد عُثر على مثل تلك الفهارس المدوَّنة على رُقُم طينية صغيرة الحجم ضمن مجموعة ألواح، عُثر عليها في مدينة نُفَّر ترجع بزمنها إلى العصور السومرية المتأخرة، وفهارس أخرى تعود إلى مكتبتي آشور بانيبال من العصر الآشوري الحديث[8].

فضلاً عن ما ذكرته النصوص المسمارية فقد أظهرت التنقيبات الأثرية في بلاد الرافدين على وجود مبانٍ متخصصة لحفظ وخزن الرُقُم الطينية يمكن أن تعدها النماذج الأولى لمباني المكتبات في تاريخ البشرية، وكانت تلك المباني بمخططات وتصاميم شبه موحدة تقريباً بغض النظر عن مكانها أو العصر الذي أنشئت فيه. وقوام هذا المخطط عبارة عن جناح عماري ملحق بمعبد رئيسي يشتمل على عدد من الغرف بمساحات مختلفة. وفيها تكون الغرفة الرئيسة ذات مدخل واحد يوصلها ببقية مرافق المبنى وقد شُيِّد لصف جدرانها الداخلية مصاطب أفقية متعاقبة الواحدة فوق الأخرى تشكِّل رفوفاً منتظمة إلى أقسام أشبه بـ(الكوات) بواسطة قواطع عمودية صغيرة، ويُحفظ في داخل هذه الكوات الرُقُم الطينية.

ومن النماذج الأولى للمكتبات نذكر مكتبة معبد إنليل في مدينة نُفَّر التي ترجع إلى العصر السومري الحديث، ومما تبقى في ذلك المبنى نجد أنَّ غرفة المكتبة كانت تحوي رفوفاً مشيَّدة من اللبن بعرض (45 سم) تقريباً بُلِّطت بالقار وغُطِّيت بحصير من القصب وضعت فوقها الرُقُم الطينية التي عُثر على مئات منها كانت مدونة بنصوص مسمارية سومرية[9].

ولما كان العراق القديم هو الموطن الأول لظهور المكتبات الثقافية لحفظ النصوص الأدبية والعلمية والتأريخية كما هو الحال في مكتبة نُفَّر ومكتبة سبَّار ومكتبة نينوى وخرسباد. فإنَّ هذا انعكس بعد ذلك على ظهور دور التعليم

والمكتبات التي ارتبط ظهورها بالمجاميع العلمية والأدبية التي تمخض عنها النتاج الفكري لبلاد الرافدين في المدة بين الميلاد وظهور الإسلام، فكانت في العراق مدارس تُدرس فيها العلوم السريانية واليونانية وكانت هذه المدارس يتبعها مكتبات، وبعضها وهو الأوفر نشأ في العصور الإسلامية.

ولهذا يجدر بنا التطرق إلى تاريخ التدريس في الإسلام، فالمعروف أنَّ الدرس والتدريس نشأ بنشأة الإسلام. فقد روي أنَّ جماعة من الصحابة كانوا يُعلّمون في مسجد قباء في عهد الرسول الكريم (r). وكانت دعوة النبي للعرب المسلمين إلى التفقه بالدين وطلب العلم تجد آذاناً صاغية. فقد ظلَّ الدين الإسلامي أساس كل الحركات العلمية وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل.

وكانت قراءة القرآن الكريم وفهم معانيه والاقتباس من أساليبه البليغة مما رفع مستوى العقلية العربية وزاد من ثقافة العرب ووسع من مداركهم، فمن خلال قصص القرآن اطلع على أخبار الأمم وقصص الأنبياء السابقين. فاتسعت بذلك آفاقهم وتطورت إبداعاتهم وتعددت مناهجهم. كما كان أيضاً لدراسة القرآن الكريم أثر في الحياة العلمية والعقلية، وفي تنوير الأذهان، وفي دعوته النظر إلى الكون وظواهره عامل في اتجاه العرب المسلمين إلى العلوم العقلية كالفلك والمنطق والجغرافية. وهكذا فقد كان الدين الإسلامي هو الدافع الحقيقي للعلم والتعليم.

كان التدريس إذن قائماً في المساجد منذ صدر الإسلام وكان للعلماء حلقات مأهولة بالطلاب وهي منتشرة في معظم عواصم العالم الإسلامي يجلس فيها العلماء للتدريس وتعليم المسلمين وتثقيفهم في شؤون دينهم. وبقي التدريس قائماً بالمساجد قروناً طويلة منذ العصر الأول، وما زال بعضها قائماً

حتى وقتنا الحاضر. وعلى العموم فقد كان المسجد أهم معهد للثقافة في الإسلام[10].

أمَّا من ناحية التخطيط العام للمساجد كان النظام التقليدي لعمارة المساجد، وهو الطراز المستمد من تصميم مسجد الرسول (r) بالمدينة المنورة هو التصميم الذي كان سائداً في العالم العربي الإسلامي الذي يتألَّف من صحن تحفُّ به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة (بيت الصلاة).

وإلى جانب حلقات المساجد كانت هذه الحلقات غالباً ما تُعقد في دور الخلفاء والأمراء يُناظر فيها العلماء في المنطق وعلم الكلام واللغة. ولم تكن هذه الدور والمجالس دوراً مخصصة للدرس والتدريس، ولكنها كانت مراكز للنشاط العلمي والثقافي.

ولم يبدأ القرن الثاني الهجري حتى نشطت الحركة العلمية، فلما استقر الأمر للعرب ودانت لهم أمم الفرس ودولة الروم التفتوا إلى مظاهر الحضارة التي كانوا يجدونها عند الشعوب التي أخضعوها لهم، وجدوا الكثير من أهلها يتدارسون في مختلف العلوم ويتناقلونها. ومع أنَّ حركة الترجمة في هذا العصر قد اقتصرت على نشاطات محددة قام بها عدد قليل من المترجمين على انفراد، ويُلاحظ أنَّ المترجين الأولين كانوا مسيحيين يعاقبة أو نساطرة. وقد ترجموا إلى السريانية أولاً ومنها إلى العربية. وكانت هذه الكتب المصدر الأول عن تراث اليونان، إلا أنها لم تكن خالية من الأخطاء لكن هذه الترجمات أُصلحت فيما بعد.

توطئة

في الدولة العباسية كثر أختلاط العرب مع غيرهم من الأمم التي دانت لحكمهم، وزادت رغبتهم بالإطلاع على علوم القوم ومعارفهم، فقرّبوا العلماء والأطباء والحُكماء وأهل الفنون والآداب وأجزلوا لهم العطاء.

أبو جعفر المنصور (136 - 158هـ/ 753 - 774م) مع براعته في الفقه والحديث واللغة، كان كلفاً بعلوم الحكمة - خاصةً في الطب والنجوم والفلك والهندسة - وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات[11].

قال المسعودي (ت346هـ) عند كلامه عن أهتمام أبي جعفر المنصور بترجمة مختلف كتب الحكمة ما نصه: "وكان أول خليفة قرَّب المُنجِّمين وعمل بإحكام النجوم، وكان معه نوبخت المجوسي المُنجِّم وأسلم على يده، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزاري المُنجِّم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الإسطرلابي المُنجِّم، وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية، ومنها كتاب (كليلة ودِمْنة)، وكتاب (السند هند)، وتُرجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها، وتُرجم له كتاب (المجسطي) لبطليموس، وكتاب (الأرثماطيقي)، وكتاب إقليدس، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلَّقوا إلى عملها"[12]. وأمَّا الكتب التي نقلها عبد الله بن المقفع (المتوفى سنة 141هـ/ 758م) من الفارسية إلى العربية فهي: كتاب (كليلة ودِمْنة)، وكتاب (خدينامه) في (السِيَر)، وكتاب (آيين نامه) وكتاب (مزدك) وكتاب (التاج) في

سيرة آنو شروان وترجم كتاب (الكيكيين) في أخبار أفراسياب وما كان بينه وبين التُرك من الحروب، ونقل بعض كتب الطب والمنطق التي كان الفرس قد نقلوها إلى لغتهم من اليونانية[13].

وتُرجم من كتاب أرسطاطاليس المنطقية الثلاث هي: (قاطاغورياس)، وكتاب (بارى أرميناس)، وكتاب (أنولوطيقيا)، وكتاب (إيساغوجي) لفرفوريوس الصورى[14].

وفي سنة (156هـ/772م) قَدِمَ على الخليفة المنصور رجل من الهند، وكان عالماً بحركات النجوم وحساب السند الهند، ومعه كتاب يبحث في ذلك، فأمر الخليفة بترجمة الكتاب إلى العربية وأن يؤلَّف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب فتولَّى ذلك مُحمَّد بن إبراهيم الفزاري وعمل منه كتاب (السند هند الكبير) وبقي يعمل به إلى أيام المأمون[15].

ونقل أبو يحيى ابن البطريق كتاب الأربع مقالات لبطليموس في صناعة أحكام النجوم[16].

وتُرجم على عهده من كتب الهندسة كتاب إقليدس وهو من أجلِّ كتب هذا العلم، وما الهندسة التي تُدرَّس في مدارسنا الثانوية في هذه الأيام إلا هندسة إقليدس مع تحويرٍ بسيط وترتيب في النظريات[17].

وكان جورجيوس (المتوفى سنة 160هـ/ 777م) رئيس أطباء جنديسابور وطبيب المنصور – عالماً باليونانية والفارسية، فترجم الكتب الطبية من اليونانية والفارسية إلى العربية، كما ألَّف كنَّاشه في الطب[18]. وسار أولاده على نهجه وأنجب أسرةً علمية جليلة خدمت الترجمة والطب أجلَّ خدمة.

ولَّما غزا العرب بلاد الروم، واستولوا على بعضها، بذلوا عناية خاصة بعلوم القوم ومعارفهم، فحافظوا على الكتب التي وقعت بأيديهم، فلم يفعلوا بها ما فعله الإسبان عندما استولوا على نفائس الكتب العربية في الأندلس، ولا ما فعله التتار والمغول عندما هاجموا البلاد الإسلامية في الشرق، فإنَّ العرب حرصوا كلَّ الحرص على ما وقع بأيديهم منها، وخاصةً كتب الحكمة، وعنوا بها عنايةً فائقة.

ولَّما فتحوا مدينتي عمورية وأنقرة أمروا بالُمحافظة على مكاتبها، وانتدبوا العلماء والتراجمة من بغداد لأختيار الكتب القيِّمة منها، والتي يندر وجودها عند غيرهم من الأمم، فإختاروا الكتب النفيسة النادرة في الطب والفلسفة والفلك، ونقلوها إلى بغداد، وولَّوا أمر هذه الكتب يوحنَّا بن ماسويه (المتوفى سنة 243هـ/ 857م) أكبر أطباء عصره، وجعلوا له من يساعده بترجمتها[19].

وفي أيامه نقل الحجَّاج بن مطر كتاب إقليدس وهو أول نقل كان لهذا الكتاب إلى العربية، وتُسمَّى الترجمة الهارونية، تمييزاً لها عن الترجمة المأمونية.

وأهتم يحيى بن خالد البرمكي بترجمة المجسطي إلى العربية، فقام بذلك عدَّة علماء، ولم يتوفقوا بترجمته كما يجب، فعُرضت على عالمين من علماء بيت الحكمة وهما أبو حسان وسَلَم فصححا الترجمة، وفسَّرا ما غمض من المصطلحات، فكانت ترجمة حسنة[20].

وكان منكه الهندي – طبيب الخليفة هارون الرشيد – ينقل الكتب من الهندية إلى الفارسية والعربية، ونقل عدَّة كتب تبحث في الطب على مذهب أهل الهند. ونقل ابن دهن (الذي كان يُشرف على بيمارستان البرامكة عدَّة كتب في الطب)[21].

ولَّما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون (198 – 218هـ/ 813 – 833م) وجَّه همَّه إلى الترجمة والتأليف، فتُرجمت له كتب الحكمة المختلفة. وكان كثير الإهتمام بها، خاصةً في كتب الفلسفة والمنطق، ذلك لأنَّه كان يرى رأي المعتزلة، وهم من أكبر مؤيدي الرأي، وتحكيم العقل في الأمور الدينية، وكان المأمون واسع العلم، حرَّ الفكر، يميل إلى القياس، لذا كان يرغب بترجمة كتب المنطق والفلسفة لأنَّه يجد له منهما خير معين على تحكيم العقل، فتُرجمت معظم كتب أرسطو – على عهده – وتولَّد عند المسلمين علم الكلام.

ووصف القاضي أبو القاسم أحمد بن صاعد الأندلسي ما كانت عليه الحركة العلمية في عصر المأمون فقال: ثم لَّما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون، تمم ما بدأ به المنصور، فأقبل على طلب العلم في موضعه، وأستخرجه من معادنه، بفضل همَّته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، فإستخار لها مهرة التراجمة، وكلَّفهم إحكام ترجمتها، فتُرجمت له على غاية ما أمكن، ثمَّ حضَّ الناس على قراءتها، ورغَّبهم في تعلّمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولوا النباهة في العلوم، لما كانوا يرون من احضائه لمتحليها، وإختصاصه لُمقلّديها، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظراتهم ويلتذّ بمذاكراتهم، فينالون عنده المنزلة الرفيعة، والمراتب السنيَّة، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمُحدِّثين والمتكلمين، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسَب، فأتقن جماعة من ذميِّ الفنون والتعلُّم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة، وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطلب،

ومهدوا أصول الأدب، حتى كانت الدولة العباسية تُضاهي الدولة الرومية أيام أكتمالها، وزمان إجتماع شملها[22].

وأخذ المأمون يسعى بشتَّى الطرق للحصول على كتب الحكمة المختلفة، فكان يُرسل العلماء وأهل الرأي إلى بلاد الروم وغيرها، لكي يفتشوا عن الكتب النادرة، ويُرغّبوا أصحابها ببيعها، فجمعوا منها كلَّ نفيسٍ ونادر[23].

والناس على دين ملوكهم، فسافرت عدَّة بعثات علمية إلى بلاد الروم، لتحصيل الكتب المختلفة من طبٍّ وفلسفة ونجوم ومنطق وموسيقى وهندسة وغيرها.

وممن سافر إلى هذه الغاية النبيلة هم: أولاد موسى بن شاكر، فإنهم أتعبوا أنفسهم في طلب الكتب النفيسة، وصرفوا مبالغ طائلة للحصول عليها، فحصلوا على كتبٍ نادرة منها. كما أنهم أرسلوا علماء لهذه الغاية، فأحضروا لهم الغرائب منها، وأستدعوا النقلة من مختلف الأقطار، ورغَّبوهم بالبذل الكثير، فترجموا لهم غرائب الحكمة وكان الغالب عليهم: الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم. ولهم كتاب في علم الآلات الحربية[24].

وممن كان يُترجم لبني موسى بن شاكر: حُنين بن إسحاق، وحُبيش بن الحسن الأعسم، وثابت بن قُرَّة، ولهم أجراً في الشهر قدره خمسمائة دينار على النقل والترجمة[25]. وثابت بن قُرَّة بن مروان الحرَّاني الصابي (233 – 288هـ/ 845 – 900م) هو الذي أصطحبه مُحمَّد بن موسى بن شاكر إلى بغداد، لما أنصرف من بلاد الروم، وأدخله في جُملة المترجين والمُنجِّمين، فترجم هذا كتاباً في النجوم[26].

وممن دخل بلاد الروم لتحصيل كتب الفلك والنجوم للخليفة المأمون، هو يحيى بن أبي منصور المُنجِّم المأموني، وهذا أحد علماء بيت الحكمة فتوغل في بلاد الروم، وجمع نفائس الكتب التي تبحث في ذلك[27].

وسافر قسطا بن لوقا البعلبكي إلى بلاد الروم، وحصَّل الكثير من تصانيفهم، وعاد إلى الشام. ثم أستدعي إلى بغداد، ليُترجم الكتب من اليونانية إلى العربية ويذكر عنه ابن النديم: أنه كان يُقَدَّم على حُنين لفضله ونبله، وتقدمه في صناعة الطب، وكان بارعاً في علومٍ كثيرة منها: الطب والفلسفة والإعداد والموسيقى، فصيحاً باللغة اليونانية، جيد العبارة بالعربية، لذا عهد إليه بترجمة كتبٍ عديدة، فكان من التراجمة المعدودين الذين يُعوَّل عليهم[28].

ودخل بلاد الروم حُنين بن إسحاق العبادي (194 – 260هـ/ 809 – 873م) وجدَّ في تحصيل كتب الحكمة، وبذل غاية إمكانه في ذلك، كما أنه أغتنم فرصة وجوده في بلادهم، فتعلَّم اللغة اليونانية وأحكمها، وعاد إلى بغداد ومعه تُحف نادرة من كتب الحكمة، ولازم بني موسى بن شاكر ورغَّبوه بنقل الكتب إلى العربية.

كان حُنين أحد أعاظم العلماء الذين خدموا كتب الحكمة، بما نقله منها وألَّفه فيها، فترجم عدَّة كتب لجالينوس وأبقراط وديقوريدس، وترجم جمهورية أفلاطون والمقولات والطبيعيات والخليقات لأرسطو، وترجم جميع مؤلَّفات جالينوس العلمية إلى السريانية ثم العربية، وترجم كتاب العهد القديم من اليونانية، فكان المأمون يُعطيه من الذهب زِنَة ما ينقله من الكتب.

وصار لحُنين مدرسة للترجمة، يشتغل تحت يده عدد من علماء عصره ويُترجم بعضهم من اليونانية إلى السريانية، ثم يترجمها غيرهم إلى العربية

ويُترجم بعضهم من اليونانية إلى العربية. وممن كان يترجم بين يديه: حبيش بن الحسن الأعسم، وهو أحد تلاميذه وكان حُنين يُقدِّمه ويُعظِّمه، ويُفضِّل نقله، وكان يُترجم من اليونانية والسريانية إلى العربية. وكذا عيسى بن يحيى بن إبراهيم، وهو من تلاميذ حُنين أيضاً، كان من النقلة المجيدين، واصطفين بن بسيل، وموسى بن خالد الترجماني، ويحيى بن هارون وغيرهم[29]. وكان أبنه إسحاق بن حُنين (المتوفي سنة 298هـ/910م) لا يقل عن أبيه في النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية، وله نقول وتآليف[30].

ويبلغ من شغف المأمون بكتب الحكمة والفلسفة: أنه إذا ما عقد معاهدةً مع بعض ملوك الروم، فإنّه كان يشترط عليه أن يُرسل إليه من نفائس كتب الحكمة التي في بلاده، والتي يندر وجودها عند غيرهم من الأمم.

ومن ذلك: أنه جعل أحد شروط معاهدة الصُلح بينه وبين ميخائيل الثالث – قيصر الروم – أن يتزل الثاني للأول عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية، كان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك، فأمر المأمون بنقله إلى العربية وسمَّاه المجسطي[31].

وهادن المأمون صاحب قبرص، وأشترط عليه أن يُرسل إليه من كتب الحكمة، وخاصةً كتب أرسطاطاليس. وقد حدثنا القفطي عن هذا فقال: إنَّ المأمون راسل ملك الروم وكان قد أستطال عليه وأذلَّ دين الكفر، وطلب منه كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس، فطلبها ملك الروم، فلم يجد لها في بلاده أثراً، فإغتم بذلك وقال: يطلب مني ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده، أي عذر يكون لي؟ أم أيَّة قيمة تبقى لهذه الفرقة الرومية عند المسلمين؟ وأخذ في السؤال والبحث، فحضر إليه أحد الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة

النازحة عن القسطنطينية وقال له: عندي علم ما تريد، وقال له: أدركني، فقال: إنَّ البيت الفُلاني في موضع كذا الذي يقفل كل ملك عليه قفلاً إذا ملك ما فيه، قال في – على ما يُقال – مال الملوك المتقدمين، وكل ملك يجيء يقفل عليه حتى لا يُقال أحتاج إلى ما فيه لسوء تدبيره ففتحه، فقال له الراهب: ليس الأمر كذلك وإنما في ذلك الموضع هيكل كانت يونان تتعبد به قبل أستقرار ملَّة المسيح، فلما تقررت ملَّته بهذه الجهات في أيام قسطنطين بن اللانة هيلانة جمعت كتب الحكمة من أيدي الناس، وجعلت في ذلك البيت، وأغلق عليه بذلك، فاستثار الراهب في تسييرها – إذا وجدت – إلى بلد الإسلام، وهل عليه في ذلك خطر في الدنيا أو أثم في الأخرى، فقال له الراهب: سيِّرها فإنك تُثاب عليه، فإنها ما دخلت في ملَّة إلا وزلزلت قواعدها، فسار إلى البيت وفتحه، ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب، ووجد فيها كتباً كثيرة، فأخذوا من جانبها – بغير علمٍ ولا فحص – خمسة أحمال، وسيِّرت إلى المأمون، فأحضر لها المترجمين فاستخرجوها من الرومية إلى العربية، ثم تنبَّه الناس بعد ذلك على تطلبها – بعد المأمون – وتحيَّلوا إلى أن حصلوا منها الجملة الكثيرة. وهذه الكتب من أعظم ما دخل خزانة المأمون من كتب الحكمة[32].

وإنَّ المأمون لم يكتفِ بهذه الكتب، بل إنه فاتح ملك الروم ثانيةً، يسأله أن يسمح لجماعة من العلماء، أن يشتروا من كتب الحكمة ما يجدونه في بلاد الروم، لكي يُضيفها إلى خزانة كتبه، وأن ملك الروم أجاب إلى ذلك – بعد أمتناع – فأرسل المأمون بعثة علمية لهذا الغرض منهم: الحجَّاج بن مطر، وابن البطريق، وسَلَم صاحب بيت الحكمة، فأخذوا مما أختاروه عدداً كبيراً، وحملوها إلى بغداد، فأمرهم المأمون بنقلها إلى العربية، وهكذا أجتمع عند المأمون طائفة كبيرة من كتب: الحكمة والفلسفة والمنطق والموسيقى والنجوم وغيرها.

جاء عن المأمون في الأخبار الطوال[33]: فإنه أخذ من جميع العلوم بقسط، وضرب فيها بسهم، وهو الذي أستخرج كتاب إقليدس من الروم وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد المجالس في خلافته للمُناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه أبا الهذيل مُحمَّد بن الهذيل العلاَّف.

وجاء في كشف الظنون عند كلامه عن المأمون وأهتمامه بعلوم الحكمة قال: وجاء المأمون – من بعد ذلك – وكانت له في العلم رغبة، فأوفد الرُسل إلى ملك الروم، في إستخراج علوم اليونان، وإستنساخها بالخط العربي، وبعث المترجين لذلك، فأوعى منهم وأستوعب، وعكف عليها النُظَّار من أهل الإسلام، وخدموا في فنونها، وأنتهت إلى الغاية أنظارهم فيها، وخالفوا كثيراً من آراء المُعلّم الأول، وأختصوه بالردِّ والقبول، ودوَّنوا في ذلك الدواوين[34] – فلا ندري هل إنَّ هذه البعثة التي أرسلها المأمون، هي التي ذكرها ابن النديم، أم أنها غيرها؟ وصارت بغداد قبلة العالم الإسلامي في العلوم والمعارف أجتمع فيها علماء أعلام، خدموا التراث الإنساني أجلَّ خدمة، بما ترجموه من الكتب النفيسة، وما ألَّفوه من العلوم المختلفة، وما أبدوه من آراءٍ ونظريات.

وممن أشتهر في الفلك والرياضيات: مُحمَّد بن موسى الخوارزمي، كان أول من ألَّف في الجبر والمُقابلة والحساب، وكتبه في هذا الباب هي من خيرة ما أنتجه الفكر، وهو الذي مهَّد للجبر والحساب في كثيرٍ من المسائل التي لا تزال تُدرس في هذه الأيام، وكان قد جمع هذا بكتابٍ ألَّفه للخليفة المأمون بناءً على طلبه[35].

وأشتهر من الفلكيين في عهد المأمون: سند بن علي المُنجِّم المأموني، كان خبيراً بعمل آلات الرصد، فندبه المأمون إلى إصلاح آلات الرصد الذي كان في الشمَّاسية ببغداد، وله تصانيف في النجوم والحساب والجبر والمُقابلة[36].

وممن أشتغل مع سند بن علي في الرصد، هو العباس بن سعيد الجوهري، وأشتغل أيضاً في رصد دمشق الذي كان المأمون قد أسسه. وله مؤلَّفات في الفلك والهندسة. فكان هو وسند بن علي المُنجِّم المأموني، وخالد بن عبد الملك المروروذي، ويحيى بن أبي منصور، أول من رصد في الملَّة الإسلامية[37].

وأشتهر عبد الله بن سهل بن نوبخت بالنجوم والفلك. وكان أحمد بن مُحمَّد بن كثير الفرغاني – أحد مُنجِّمي المأمون – وصاحب المدخل إلى هيئة الأفلاك وحركات النجوم[38].

وأشتهر غيرهم مثل: مُحمَّد بن موسى الجليس، وما شاء الله المُنجِّم، وعمر بن الفرخان الطبري، وأبو جعفر مُحمَّد بن جعفر بن سنان الحرَّاني المعروف بالبتاني. وهو أحد المهرة برصد الكواكب، وأحمد بن عبد الله البغدادي المعروف بحبيش، كان هذا في زمن المأمون والمعتصم، وله كتاب في الزيج والإسطرلاب[39].

ومن الكتب المهمة التي تُرجمت كتاب (الآكر المتحركة) للمهندس أوطولوقس اليوناني، عُرِّب في زمن المأمون، ثم أصلحه يعقوب بن إسحاق الكندي. وكتاب (أكرثاوذوسيوس اليوناني) أمر بنقله إلى العربية الخليفة المُستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم في خلافته، فتولَّى نقله قسطا بن لوقا البعلبكي سنة (250هـ/ 864م)، وأصلحه ثابت بن قُرَّة[40].

فيُقال أنَّ المأمون صرف على الترجمة ثلاثمائة ألف دينار، وكان بنو المُنجِّم يرزقون جماعة من التراجمة خمسمائة دينار في الشهر، وأنفق الفتح ابن خاقان مبالغ كبيرة على الترجمة والتأليف وإقتناء الكتب، وكان مُحمَّد بن عبد الملك الزيَّات لا يقل عن الفتح بن خاقان في هذا، فإنَّه كان يصرف على التراجمة والكتَبَة ما يُقارب ألفي دينار في الشهر، وتُرجمت له عدَّة كتب بإسمه منها: كتاب الصوت الذي نقله حُنين. وأحمد بن المُدبّر، كان ينفق على النقلة والنسَّاخين والمؤلِّفين من ماله الشيء الكثير، وكان أبو مُحمَّد الحسن بن موسى ابن أخت أبي سهل بن نوبخت، وهو أحد الفلاسفة المتكلمين، ويجتمع إليه جماعة من النَقَلَة لكتب الفلسفة مثل أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق وثابت، وغيرهم فينقلون له الكتب ويُنفق عليهم من ماله. وبيع شرح الإسكندر الأفرودوس للسماع الطبيعي ولكتاب البرهان بثلاثة آلاف دينار[41].

قد لا نبالغ إذا ما قلنا أنَّ تفصيل هذه الحركة العلمية المباركة وما قام به العرب والمسلمون، يحتاج إلى بحثٍ طويل. وأنَّ في مؤلَّفات: ابن النديم، والقفطي، وابن جلجل، وصاعد الأندلسي، وابن أبي أصيبعة، وحاجي خليفة، يطلع المرء على الجهود الكبيرة التي بذلوها في ترجمة الكتب المختلفة، وإقبالهم الشديد على دراستها وتدبرها، والتأليف بها. كان هذا بزمن لم تبلغه أمة غيرها في عدَّة قرون، فإجتمع في خزائنهم ثقافة الشرق والغرب بأقل من قرنين. فكانت بغداد مركز العلم والأدب والفن.

إنَّ العرب لم يكتفوا بترجمة الكتب وتفسيرها وتبسيطها، وإبداء آرائهم فيما نقلوه، بل إنهم أخذوا يطبقون العلم على العمل. فصنعوا آلات الرصد، وأنشأوا المراصد في كثيرٍ من البلدان. أقدمها المرصدان اللذان أمر المأمون بإنشائهما، كان أحدهما في الشمَّاسية ببغداد، والثاني بسفح جبل قاسيون

بدمشق، وجُهِّز المرصدان بآلاتٍ دقيقة، صنعها الفلكيون، ورصدوا الكواكب، ودوَّنوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم، فكانت دقيقةً إلى حدٍّ ما.

ويذكر ابن النديم: أنَّ آلات الرصد كانت تُصنع بمدينة (حرَّان) ثم أنتشرت صناعتها في البلاد. وأتسع للصُنَّاع العمل بها في الدولة العباسية، كان هذا منذ أيام المأمون. وأول من عمل الآلات هو ابن خلف المروروذي، فإقتدى الناس به، ثم أنتشرت هذه الصناعة[42].

وكان العباس بن سعيد الجوهري المُنجِّم يُتقن صنع آلات الرصد، فندبه المأمون للإشتغال في رصد الشمَّاسية ببغداد[43].

ويحيى بن رستم أبو سهل الكوهي المُنجِّم، كان عالماً بعلم الهيئة وصنعة آلات الرصد، متقدماً فيها إلى الغاية المتناهية، طلب إليه شرف الدولة البويهي سنة (378هـ/ 988م) برصد الكواكب ببغداد، فبنى بيتاً في دار المملكة، وأحكم أساسه وقواعده لئلا يضطرب بنيانه أو يجلس شيء من حيطانه، وعمل فيه آلات رصد أستخرجها ورصد الكواكب.

ومهر عدَّة علماء بصنع الإسطرلاب، وصنَّفوا الكتب التي تبحث عن كيفية أستعمالها، فكان أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري أول من عمل إسطرلاباً في الإسلام. وكذا بنو الصباح، وهم ثلاثة أخوة، فإنهم كانوا يتقنون صناعة الإسطرلاب، ولهم كتاب برهان صنعة الإسطرلاب[44].

ومنهم أحمد بن مُحمَّد الصاغاني أبو حامد الإسطرلابي (المتوفى سنة 379هـ/ 989م) وكان يُحكم صناعة الإسطرلاب غاية الإحكام، وصارت آلاته التي يصنعها هي المعوَّل عليها في أيدي الناس، وتعلَّم على يديه عدَّة

تلاميذ، كانوا يُنسبون إليه ويفخرون بذلك، وزاد الصاغاني أشياء في آلات الرصد القديمة، وأشتغل بالرصد الذي بناه عضد الدولة البويهي[45].

وقام العرب بعدَّة تجارب في المساحة التطبيقية، وقاسوا دائرة نصف النهار، وكان هذا بأمر الخليفة المأمون، وعيَّن لهذا العمل لجنتين: إحداهما أشتغلت بصحراء (سنجار)، والثانية بصحراء (تدمر) وكانت النتيجة عندهما واحدة، ويكفي العرب فخراً أنَّ النتيجة التي توصلوا إليها كانت قريبة لما نعلمه عن طولها، ويمكن أن نعتبرها بأنها أدق نتيجة توصل إليها العلماء قبل العصر الحاضر.

كان هذا بفضل الخليفة المأمون الذي قام فلكيوه – لأول مرة في التاريخ – بعملية علمية، قاسوا دائرة نصف النهار، وحققوا بواسطتها محيط الكرة الأرضية وقطرها، وكانوا موفقين في عملهم، فكانوا أعظم الفلكيين في عصرهم. ومن أساتذة العالم بعلمهم الدقيق، ونتيجتهم التي توصلوا إليها[46].

وقام الجغرافيون منهم بعمل مصورات جغرافية كانت في غاية الدقة والإتقان، ذكر الأستاذ جميل نخلة المدور نقلاً عن المسعودي: أنَّ لأحمد النهاوندي كتاباً صوَّر فيه الدنيا كلها للرشيد، ببحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر أماكنها[47].

وعمل قُرَّة بن قميطا الحرَّاني، صفة الأرض، وأنتحلها ثابت بن قُرَّة الحرَّاني. ويذكر ابن النديم: أنَّه رأى هذه الصورة في ثياب ديبقي خام بأصباغ وقد شمَّعت الأصباغ[48].

وذكر المسعودي مصوراً كان قد صُنع للمأمون، فقال عند كلامه عن الأقاليم: ورأيت هذه الأقاليم مصوَّرة في غير كتاب بأنواع الأصباغ. وأحسن

ما رأيت من ذلك، في كتاب جغرافيا لمارينوس، وتفسير جغرافيا قطع الأرض، وفي الصورة المأمونية التي عُملت للمأمون، أجتمع على صنعتها عدَّة من حكماء أهل عصره، وصوَّر فيها العالم بأفلاكه ونجومه، وبرِّه وبحره، وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن، وغير ذلك. وهي أحسن مما تقدمها، من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرها[49].

وذكر الزُهري في مقدمة كتابه عنها: أمَّا بعد حمد الله تعالى، فإنِّي نسخت هذه الجغرافيا من نسخةٍ نُسخت من جغرافية الفزاري، التي نُسخت من جغرافية أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، التي أجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلاً من فلاسفة العراق، فوضعها على صفة الأرض – وإن كانت على غير الحقيقة من ذلك – لأنَّ الأرض كروية، والجغرافيا بسيطة، لكنهم بسطوها كما بسطوا الإسطرلاب، وكما بسطوا هيئات الكسوف في دواوينهم، ليعلم الناظر فيها جميع أجزائها وأصقاعها، وحدودها وأقاليمها وبحارها وأنهارها وجبالها، ومعمورها وقفرها، وحيث تقع كل مدينة من مدائنها في شرقها وغربها، ويُنظر الناظر مكان أعاجيبها وما في كل جزء من الأعاجيب المشهورة، والمباني الموصوفة بالقِدَم في أقطارها[50].

وكان أبو الحسن عبد الرحمن بن عمر الصوفي – خادم عضد الدولة البويهي – من أكابر المُنجِّمين، وألَّف كتاب الكواكب مصوَّراً.

وكان أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف العربي (المتوفى سنة 260هـ/ 873م) في طليعة العلماء وأحد أقطاب هذه الحركة العلمية المباركة، ويُعد في الرعيل الأول بين العلماء الذين تناولوا مختلف العلوم، وشتَّى المواضيع: في الكيمياء والطب والموسيقى والفلك والمنطق والرياضة

والطبيعيات والإلهيات، فكان فاضل دهره، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة، ونقل الكثير من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية، وكان له يدٌ طولى في توجيه الثقافة، وتذليل عويصها في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد).

ويمتاز الكندي بإطلاعه الواسع على اللغات التي ترجم عنها. وتمكنه من إيداء المعنى بدقةٍ وإمعان، حتى كان أحد أعلام الترجمة في الإسلام، كما قال عنه أبو معشر: "حُذّاق الترجمة، في الإسلام أربعة: حُنين بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وثابت بن قُرّة الحرّاني، وعمر بن الفرخان الطبري". وأتحف المكتبة العربية بكتبٍ عديدة بين مترجمٍ ومنقّح ومهذّب ومؤلّف فهو من علماء العرب والمسلمين، الذين مهّدوا لطرق العلم، وحلّوا ما أشكل منه. وقد وصفه ابن جلجل بقوله: "إنه ترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المُشكل، ولخص المُستصعب، وبسّط العويص". وهكذا كان الكندي من مفكري العرب، الذين يسّروا العلوم لمن أتى بعدهم[(51)].

وأشتهر عدد من الأطباء بترجمة كتب الطب، وخدموا المكتبة العربية أجلّ خدمة بما ترجموه وألّفوه من الكتب الطبية منهم: يوحنا بن ماسويه، وآل بختيشوع، وعيسى بن الحكم، وزكريا الطيفوري، وحبيش بن الحسن الأعسم، وصالح بن بهلة الهندي، وجبرائيل الكحال، والحجّاج بن يوسف بن مطر، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وغيرهم كثير.

ومما يجدر ذكره، أنّ المأمون كان يحرص على الأحتفاظ بكل أثر نفيس يعثر عليه، فيستدعي العلماء لفحصه وترجمته ودراسته، ومن ذلك: كان المأمون في مصر، وعثر في مدينة أخميم على رسالة السر في الكيمياء لهرمس (كانت

تحت لوح مرمر في قيد قبة ((في قبة فيها)) امرأة ميتة تامَّة الخلق، ضفائرها ممدودة إلى رجليها، وعليها سبع حُلل مذهبة، ولها كلها زر واحد – أي قميص من ذهب – وحولها أسرَّة صغار، عليها أموات في هيئة الصبيان. وهذه الرسالة تحت رأسها، في لوح من ذهب، شبيه بالكتف العظيمة بسواد بخطٍ غريب، ولما علم بها الخليفة المأمون، أستدعى العلماء لقراءتها وترجمتها، فقرأها رجل من حِمْيَر، كان عالماً بالمسانيد. وفُسِّرت له مع المزامير التي فُسِّرت)[52].

وخلاصة القول: أنَّ العرب ترجموا إلى لغتهم أكثر كتب العلوم التي سعوا بالحصول عليها، من: طبٍ وفلسفة ونجوم ورياضيات ومنطق وفلك وفِلاحة وصناعات وتاريخ وأدب ومِلَل. وغيرها[53]. فأخذوا من كلِّ أمةٍ أحسن ما عندها من علوم وفنون وآداب وصناعات.

كان التراجمة من مللٍ ونحلٍ مختلفة: فيهم المسلمون، وفيهم النصارى من السريان واليعاقبة، وفيهم الصابئة، وفيهم الأقباط والبراهمة والمجوس واليهود وغيرهم.

وكان الخلفاء ومحبو العلم يُقبلون عليهم، ويُجزلون لهم العطاء، ويرغبونهم بشتَّى الطرق لكي يستفيدوا منهم في الترجمة، وشرح الكتب العلمية التي يترجمونها، ووضع الإصطلاحات لها، ولم يكن أهتمام الخلفاء مقصوراً على الحكمة والفلسفة والعلوم العقلية فقط، بل كانوا يهتمون بالآداب والتاريخ والفقه والكلام وأيام العرب وأخبارها، فكانوا يعقدون المجالس العلمية ويُشاركون فيما يدور بها من العلوم والآداب والمعارف. وخاصةً الخليفة المأمون – عالم بني العباس وحكيمها – فإنه كان يُشارك في علومٍ كثيرة، وله مجالس علمية يعقدها في قصره يُشارك فيها أجلُّ العلماء، ويحضرها

الخليفة، ويُشارك فيما يدور بها من مباحث مختلفة، يجلس مع الجالسين كأحدهم بغير تمييز أو عناية، فيتكلم العلماء بكل حرية وصراحة فيما يبدو لهم. روى طيفور عن يحيى بن أكثم قال: لما دخل المأمون بغداد، وقرَّ بها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء، وعلى حصير في الصيف، ليس معها شئ من سائر الفرش، وكان مجلس الفقهاء الذين أختارهم يحيى بن أكثم للمناظرة في حضرة المأمون يُعقد كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع[54].

الباب الأول

بيوت الحكمة

بيت الحكمة في بغداد

بيت الحكمة الذي أسسه العباسيون ببغداد، هو أول بيت حكمة عُرف عند المسلمين، كما كان أعظمها شأناً، لما يحتويه من الكتب النفيسة في شتّى العلوم والمعارف بمختلف اللغات. والنصوص التي وقفنا عليها – عن هذه المؤسسة الثقافية – لا تُساير الباحث، بل نجدها متفرقة في بعض المصادر، ذُكرت عرضاً، ومن الصعب أن نقف على أخبارها بصورةٍ متسلسلة.

والذي نراه أنَّ أول أمره كان في خلافة أبي جعفر المنصور (136 – 158هـ/ 752 – 774م) فقد مرَّ بنا أنّه تُرجمت له كتب في الطب والنجوم والهندسة والآداب. كما أُلّفت له بعض الكتب في الحديث والتاريخ والأدب. فجمع المنصور هذه الكتب في خزانةٍ كانت النواة لـ(بيت الحكمة). وكان المنصور شديد الحرص على هذه الكتب، وأوصى بها إلى أبنه وولي عهده مُحمَّد المهدي(55). وكان المهدي قليل العناية بكتب الحكمة، خاصةً بعد أنتشار حركة الزنادقة ببغداد، فإنّه شدد عليهم، وقضى أكثر خلافته في تقصّي أخبارهم، والقضاء على دُعاة هذه الحركة الهدَّامة، ونكّل بهم شرَّ تنكيل، فضعفت حركة الترجمة على عهده، وتجنّب العلماء ترجمة كتب الحكمة والفلسفة والنجوم، والكتب التي تبحث في المِلَل والنِحَل والأهواء والمعتقدات، فلم تتوسع خزانة الحكمة في عهده.

ولَّما جاء الخليفة هارون الرشيد (170 – 193هـ/ 786 – 808م) وكان كثير الإهتمام بعلوم الحكمة، وترجمة كتبها من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، فأضاف إلى خزانة جدِّه المنصور، ما أجتمع عنده من الكتب المترجمة والمؤلَّفة، فتوسعت الخزانة وصارت عدَّة خزانات – أقسام – لكلٍ منها من

يقوم بالإشراف عليها، ولها تراجمة يتولَّون ترجمة الكتب المختلفة إلى العربية، ونسَّاخون يشتغلون بنسخ الكتب التي تُترجم، والتي تؤلَّف للخزانة، ولها مُجلِّدون يُجلِّدون الكتب، ويعنون بزخرفتها وتزويقها. وهكذا صار في بيت الحكمة دوائر علمية منوعة، لكلٍ منها علماؤها وتراجمتها، ومُشرفون يتولَّون أمورها المختلفة.

كان يوحنَّا بن ماسويه (المتوفي سنة 243هـ/ 857م) يتولَّى الكتب التي أمر الرشيد بنقلها من عمورية وأنقرة، عندما غزا بلاد الروم، وجعله الرشيد أميناً على الترجمة – وأكثرها كانت من كتب الطب – وعيَّن له الرشيد كُتَّاباً حذاقاً يعملون بين يديه، ويُساعدونه في عمله. وخدم بعده الأمين والمأمون وبقي إلى أيام المتوكل[56].

قال القفطي: كان يوحنَّا من أجلِّ علماء عصره، متضلعاً في الترجمة، عالماً بالعلوم التي يقوم بترجمتها، كما كان يعقد مجلساً للنظر، ويعمِّر ذلك المجلس بعلم هذا الشأن أتمَّ عمارة، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة، وأجتمع إليه أهل العلوم والأدب، وكان يجتمع إليه تلاميذ كثيرون[57].

فنجد مما تقدم: أنَّ يوحنَّا كان على جانبٍ من العلوم المختلفة، وكان يُحاضر بهذه العلوم، ويجتمع إليه تلاميذ كثيرون، يأخذون عنه ويدرس عليه بعضهم ما يرغب به من العلوم.

وممن كان يشتغل في بيت الحكمة للرشيد، فيُترجم من الفارسية إلى العربية، أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي، وهو من أئمة المتكلمين، كان متضلعاً باللغتين الفارسية والعربية. ومعوله في علمه على كتب الفرس، وله

عدَّة مؤلَّفات بعلومٍ مختلفة. عهد إليه بترجمة كتب الحكمة من الفارسية إلى العربية[58].

وكان علاَّن الورَّاق الشعوبي ينسخ في بيت الحكمة للرشيد، ومن بعده للمأمون[59].

ولما تولَّى الخلافة عبد الله المأمون (198 – 218هـ/ 813 – 833م) وكان شغوفاً بعلوم الحكمة، وجَّه همَّه إلى توسيع دوائرها المختلفة، فأرسل في طلب كتبها من مختلف الأقطار، وأجتمع لديه عددٌ كبير منها، وأختار لها المترجين من اللغات المختلفة: اليونانية والسريانية والفارسية والعبرية والقبطية والهندية والحبشية، فتوسع بيت الحكمة وازداد عدد كتبه بما يُضاف إليه من الكتب المختلفة، التي يؤتى بها من آسيا الصغرى والقسطنطينية، وجزيرة قبرص، وما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم، في الشام وبلاد الجزيرة، وعهد بأمر هذه الكتب إلى أجلّ العلماء وأفصحهم.

فكان سهل بن هارون بن رامنوي الدستمياني – وهو من البلغاء الفصحاء الحكماء – فارسي الأصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، ومن المختصين بخدمة الخليفة المأمون، فجعله أميناً على كتب الحكمة التي أرسلت إليه من جزيرة قبرص، وصنَّف للمأمون كتاب (ثعلة وعفرا) يُعارض به كتاب كليلة ودِمَنة، في أبوابه وأمثاله، ويزيد عليه في نظمه[60].

وكان سعيد بن هارون شريكاً لسهل في بيت الحكمة، ويقوم بترجمة الفلسفة، وهو من البلغاء الفصحاء، المترسلين، الذين يعوَّل عليهم في مثل هذا العمل الخطير[61].

وكان سَلَم أميناً على الكتب التي نُقلت إلى المأمون من القسطنطينية، أرسله لإختيار الكتب والإشراف على نقلها إلى بغداد، ثم صار ينقل مع سهل بن هارون من الفارسية إلى العربية[62]، وكان يوحنّا بن البطريق الترجمان – مولى المأمون – أميناً على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية إلى العربية، فتولّى ترجمة كتب أرسطاطاليس وأبقراط في الفلسفة وغيرها[63].

وكان أبو جعفر مُحمَّد بن موسى الخوارزمي، منقطعاً إلى خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علم الهيئة وصاحب الزيج المعروف بـ(السند هند)، وله مؤلَّفات بها وبالجبر والمقابلة، وكتاب العمل بالإسطرلاب، ومن مؤلَّفاته كتاب (الجبر والمقابلة)، وكتاب العمل بالإسطرلاب، وهو أحد العلماء الرياضيين الذين خدموا بيت الحكمة، بما ألّفوه من الكتب المختلفة في الرياضيات والهيئة[64]. عُدَّ الخوارزمي أعلم جغرافي فلكي عربي في عصره حتى أطلق عليه (سارتون) في مقدمته لتاريخ العلم أسم "عصر الخوارزمي" وهو النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، وقال: "أنّه أكبر رياضيٍّ عصره وواحد من أكبر رياضيٍّ جميع العصور على الإطلاق إذا ما أخذنا في حسابنا اختلاف الظروف"[65]. وعلى الرغم من اشتهار الخوارزمي في الرياضيات إلا أنَّ مؤلَّفاته في العلوم الأخرى لا تقل أهميةً عن مؤلَّفاته الرياضية، ومنها الجغرافيَّة إذ يُعد كتابه (صورة الأرض) الذي أشار إليه كلٌّ من (نلينو) و (بارتولاند): "بأنّه لا يوجد شعب أوربي واحد يستطيع أن يفخر بمُصنَّف يمكن مقارنته بهذا الكتاب الذي يُعد أقدم أثر في الجغرافية العربية"[66]. وقد أكد الدكتور صالح الهيتي بطلان الرأي القائل بأنه ترجمة أولية لكتاب بطليموس (الجغرافيا) لأنَّ عالمنا الجليل كان ضليعاً بالمعرفة الجغرافية عن طريق الفلك وتعرَّف على الثقافة الفارسية والهندية والسريانية ثم الإغريقية، كما كان مولعاً بالفلك

والرياضيات[67]. فكتاب (صورة الأرض) الذي أطلق عليه أبو الفداء أسم (كتاب الربع المعمور) ألَّفه الخوارزمي نزولاً عند رغبة المأمون، في إعداد صور للسماوات والعالم وقد شاركه في ذلك علماء آخرون في إعداد صور أيضاً، ويُعد هذا الكتاب شرحاً لخريطة رسمها الخوارزمي وفُقدت، إلا أنَّها أقدم أثر في الجغرافية العربية اتسمت بالأصالة والابتكار[68].

هناك أمور عديدة أجاد بها الخوارزمي وكان السبَّاق فيها، فسجَّل فيها إبداعاته وأصالته، ومن تلك الأمور في مجال علم الخرائط التي تفرَّد بها، واستخدامه المسقط الأسطواني ذا الإحداثيات المتعامدة والمتقاطعة بزوايا عمودية قائمة، ويُعتقد أنَّ الخارطة المأمونية رُسمت على أساسه. وتكون خطوط الطول والعرض مستقيمة ومتوازية جميعها بعكس المسقط الذي اتبعه بطليموس (المسقط المخروطي) وبما أنَّ الخوارزمي قد سبق (أبا الكارتو كرافيا) العالم الهولندي مركيتور بسبعة قرون فمن الجائز أن يكون الأخير قد أطلع على التراث الجغرافي العربي وأخذ عنه وطوره. وهناك جانب آخر من جوانب الأصالة عند الخوارزمي في مجال رسم الخرائط، أنه اعتمد خط الطول الذي يمر بالساحل الأفريقي وهو خط الصفر، ويقع شرق خط الصفر الذي اعتمده بطليموس والذي يمر بجزر السعادات أو الخالدات (جزر كناري). وتتضح دقة الخوارزمي باختصاره لطول البحر المتوسط، فبينما قدَّره بطليموس الذي سكن على سواحله في الإسكندرية بـ(62) درجة طولية، صححه الخوارزمي إلى (52) درجة طولية، ثم جاء الزرقالي الأندلسي الذي اتبع نهج الخوارزمي في عمل جداوله ليختصره إلى (42) درجة[69].

وكان بنو موسى بن شاكر، من أنشط العناصر التي كانت في بيت الحكمة وهم ثلاثة أخوة: مُحمَّد وأحمد والحسن، وعُرف أبناؤهم - فيما بعد - ببني موسى المُنجِّم. كان أبوهم قد خدم المأمون، فتوفي وهم صغار، فأوصى المأمون بهم إسحاق بن إبراهيم المصعبي، أن يثبتهم مع يحيى بن أبي منصور المُنجِّم، في بيت الحكمة، فلازموا التعلّم بها، فشبّوا مولعين بعلوم الحكمة والهندسة والفلك، والحيل والحركات والفلسفة، ولمَّا علا شأنهم أثبتوا في بيت الحكمة مع العلماء والمترجمين، فكانوا يتولَّون دائرة العلوم الرياضية والهيئة والهندسة والنجوم والحيل والموسيقى، وأشتهر أكبرهم أبو جعفر مُحمَّد بن موسى (المتوفى سنة 259هـ/ 872م) فكان يُشرف على ما يُترجم من كتب الجبر والمقابلة لبيت الحكمة، وله كُتَّاب يعملون بين يديه، وتراجمة يترجمون الكتب التي يختارها، وممن كان يساعده في عمله هذا يحيى بن أبي منصور الموصلّي المُنجِّم، وكان أحد خزنة بيت الحكمة وأحد الرُصَّاد.

وكان أحمد بن موسى بن شاكر، متفوقاً في صناعة الحيل، لا يُدانيه أحد في ذلك، وأشتهر بكتابه الذي ألّفه في الحيل، وبقسمة الدائرة إلى ثلاثة أقسام متساوية[70].

وكان عمر بن الفرخان الطبري، أحد رؤساء الترجمة والمُحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها، أستدعاه الفضل بن سهيل - وزير المأمون - ووصله بالخليفة المأمون، فترجم له كتباً كثيرة وألَّف كتباً كثيرة في النجوم وغيرها من فنون الفلسفة[71].

وكان حُنين بن إسحاق فصيحاً في اللسان اليوناني، واللسان العربي وهو أحد تلامذة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعلى جانبٍ من العلم، أشتغل في

بيت الحكمة فترجم هو ومن كان يعمل بين يديه كتباً عديدة كانت على غاية الأهمية العلمية في الطب والفلسفة والمنطق، وكانت دائرته التي يرأسها في بيت الحكمة لا تقل أهمية عن دائرة أبناء موسى - الذين تقدم ذكرهم -[72] بما أضافوه إليه من الكتب. كان هذا في زمن الخليفة المتوكل العباسي (232 - 247هـ) وكان إسحاق بن حُنين (المتوفى سنة 298هـ/ 910م) ممن يشتغل بترجمة كتب الطب والفلسفة للمأمون، ومن أجلِّ أعماله: أنه نقل كتاب أرشميدس إلى العربية، وهو النقل الذي سُمِّي بالمأموني، وأصلح النقل ثابت بن قُرَّة الحرّاني، فكان من أصحِّ النقول[73].

ونقل حبيب بن بهريز - مطران الموصل - للمأمون عدَّة كتب إلى العربية، كما ألَّف له - أو نقل عن اليونانية - كتاباً في أخبار ملوك اليونان[74].

فاجتمع في بيت الحكمة نخبة مختارة من العلماء، والأطباء، والفلكيين وأصحاب الصناعات والحيل، وترجموا مختلف الكتب التي تبحث في شتَّى العلوم والفنون والمعارف والصناعات، وبلغ بيت الحكمة منتهى التقدم على عهد المأمون.

وكان في بيت الحكمة ما ألَّفه العلماء والأدباء في اللغة والتاريخ والفقه وعلم الكلام والمِلَل والنِحَل، وبعض هذه الكتب أُلِّفت بطلبٍ من الخلفاء أنفسهم لكي توضع في بيت الحكمة.

قال الأصمعي: كان هارون الرشيد الإمام إذا نشط يُرسل إليَّ، فكنت أحدِّثه بحديث الأمم السالفة، والقرون الماضية، فبينما أنا أحدثه ذات ليلة، فقال: يا أصمعي أين الملوك وأبناء الملوك؟ قلت: يا أمير المؤمنين مضوا لسبيلهم، فرفع يديه إلى السماء ثم قال: يا مُفني الملوك أرحمني يوم تُلحقني بهم،

ثم دعا صالحاً صاحب مُصلاّه، فقال: أنطلق إلى صاحب بيت الحكمة، فمُره أن يُخرج إليك سير الملوك وائتني به. فأخرج إليه الكتاب، قال: فأمرني أن أقرأه عليه، فقرأت منه تلك الليلة ستة أجزاء و..... ثم أوصاه الخليفة بالذهاب إلى أبي البختري، للإستعانة به في كتابة ما كان بين آدم وسام بن نوح، ولم يكن هذا مدوناً في سير الملوك، الذي يبدأ بسام بن نوح، فذهب إليه وأخبره بما أمر به أمير المؤمنين، فأخذا كتاب المبتدأ ونسخاً منه هذا الجزء، ونسَّقاه وجعلاه في عشرة أوراق، قُدِّمت على سِيَر الملوك[75].

فنرى مما تقدم: أنَّ الأصمعي كان يؤلِّف في التاريخ، وأنه أكمل كتاباً كان في بيت الحكمة، وكان ذلك بأمر من أمير المؤمنين هارون الرشيد. ومن الكتب التي أستعان بها الأصمعي في إكمال كتاب سير الملوك، هو كتاب (المبتدأ) الذي كان في خزانة بيت الحكمة، وهو مما عمل في الأصل للخليفة عبد الملك بن مروان، ألَّفه: الشعبي، وابن القرية.

وجاء أيضاً: أنَّ المأمون أمر الفرَّاء أن يؤلِّف ما يجمع به أصول النحو، وما سُمع من العرب، فأمر أن تُفرد له حُجرة من حُجَر الدار، ووكَّل به جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه، حتى لا يتعلَّق قلبه، ولا تتشوق نفسه إلى شيء... وصيَّر له الورَّاقين، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان الورَّاقون يكتبون، حتى صنَّف الحدود، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس[76].

وذكر ابن النديم عند كلامه عن أسماء كتب الشرائع المنزلة على ذهب المسلمين، ومذهب أهلها: قرأت في كتابٍ وقع إليَّ قديم النسخ، يشبه أن يكون من خزانة المأمون، ذكر ناقله فيه أسماء الصحف وعددها، والكتب المنزلة

ومبلغها، وأكثر الحشوية والعوام يُصدِّقون به، ويعتقدونه، فذكرت منه ما تعلَّق بكتابي هذا[77].

فكان بيت الحكمة يحوي كل نادرٍ وغريب، يقصده المؤلِّفون ويجدون فيه خير معينٍ لما يرغبون به من العلوم المختلفة.

وأنَّ حمزة الأصفهاني (المتوفى حوالي سنة 350هـ/ 961م) عندما وضع كتابه (سني ملوك الفرس) أستعان بثماني نسخ مترجمة إلى العربية من كتاب (تاريخ ملوك الفرس) كانت إحدى هذه النسخ في خزانة المأمون[78].

وممن لازم بيت الحكمة ونقل عن كتب خزائنه هو ابن النديم (المتوفى بعد سنة 390هـ/ 990م) صاحب الفهرست، فأطلع على ما فيه من كتبٍ نادرة ومصوراتٍ جغرافية، وخطوط لمختلف الأمم، ورقوق قديمة، ولغاتٍ منوعة. فكان ما في بيت الحكمة من كتب وغيرها، من المصادر التي عوَّل عليها في تأليفه الثمين. وآخر ذكر لدار الحكمة نسمعه من ابن النديم.

نقل ابن النديم من بيت الحكمة نماذج من خطوط الأمم التي تكلَّم عنها. فذكر عند كلامه عن القلم الحميري: "ورأيت أنا جزءاً من خزانة المأمون ترجمته: ما أمر أمير المؤمنين عبد الله المأمون – أكرمه الله – من التراجم وكان في جملته القلم الحميري، فأثبت مثاله على ما كان في النسخة"[79].

وقال عند كلامه عن الخط الحبشي، أمَّا الحبشة: فلهم قلم حروفه متصلة كحروف الحميري يبتدئ من الشمال إلى اليمين، يفرقون بين كل أسم منها بثلاث نقط، ينقطونها كالمثلث، بين حروف الإسمين. وهذا مثال الحروف وكتابتها من خزانة المأمون[80].

وذكر أيضاً: وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد آدم، فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم، من أهل مكة، على فلان بن فلان الحميري، من أهل وزل (صنعاء) عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والملكان[81].

هذا هو بيت الحكمة الذي أسسه العباسيون، لتسهيل سُبل الدرس والمطالعة والتأليف والترجمة لمن يرغب بذلك. فقد كان يتعذّر على الناس أن يقفوا على الكتب العلمية النادرة، والتي تُرجمت من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وصُرف في سبيل الحصول عليها، وعلى ترجمتها وتنقيحها المبالغ الكبيرة، فذلل الخلفاء للناس سُبل المطالعة والدرس في بيت الحكمة، الذي أُنشئ لنشر العلوم والمعارف المنقولة عن الأمم الأخرى، والتي رغب الخلفاء بتيسيرها للناس، ليقفوا على حقائق الأمور، وتراث الأمم التي تقدمتهم في شتَّى النواحي الفكرية والعلمية. ففتحوا أبواب الدار لكل قاصد، وشوَّقوا الناس إلى التعلُّم والإقبال عليه، ويسَّروا لهم المطالعة والدرس والأستنساخ. كما كان الناس يحضرون المناظرات العلمية التي تجري بين العلماء في هذه الدار، في مختلف العلوم والفنون وإبداء الآراء وغير ذلك.

كانت الحرية التامَّة تسود بيت الحكمة، فلا تجد فيه أثراً للتعصب الذميم، بل تجد فيه أصحاب العلم والفلسفة يتناظرون بكل حرية وصراحة، ويتكلم أهل المِلَل والنِحَل بما يبدو لهم وبما يعتقدونه، ويرونه أقرب إلى العقل والمنطق.

ومما يؤيد لنا هذا: أنه كان بين الذين تولَّوا أمر بيت الحكمة، وأشرفوا على حركة الترجمة فيه، هم من السريان واليهود والمجوس وغيرهم، ولهم منزلة

رفيعة عند الخلفاء، يُعمل برأيهم ويأخذ عنهم علماء المسلمين، ويرجعون إلى أقوالهم وآرائهم.

كما كانوا يؤدون شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية، ويدافعون عن معتقداتهم بكل صراحة، ويُناظرون المسلمين في الأمور الدينية، ولربما كان هذا أمام الخليفة نفسه.

كان ثئودورس أبو قرَّة (المتوفى سنة 820م) تلميذ يوحنا الدمشقي، وأسقف حرَّان، يُجادل علماء المسلمين في الأمور الدينية بحضور الخليفة المأمون[82].

وكان بعض أصحاب بيت الحكمة من الشعوبيين المغالين في بغض العرب، وتفضيل غيرهم من الأعاجم عليهم، فكان علاَّن الوراق من متولِّي بيت الحكمة. ذكر عنه ياقوت: أصله من الفرس وكان علاَّمة بالأنساب، والمثالب والمنافرات، منقطعاً إلى البرامكة، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة، وعمل كتاب الميدان في المثالب الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها، ابتدأ ببني هاشم قبيلة قبيلة على الترتيب إلى آخر قبائل اليمن[83].

وكان سهل بن هارون مختص بخدمة المأمون، وصاحب خزانة الحكمة له، شعوبياً يتعصب للعجم على العرب، شديداً في ذلك، وله في ذلك كتب كثيرة[84]. ولم ينكر عليه بل إنَّه قوبل بالرد المؤيد بالنصوص والمنطق والعقل، وكان غيرهم كثير.

هذا التسامح كان يسود بيت الحكمة الذي أسسه الخلفاء أنفسهم، حباً بنشر الروح العلمية الخالصة بين كافة الطبقات. كما صارت الكتب التي تبحث

في شتَّى النواحي الفكرية متيسرة في دكاكين الورَّاقين، بعاصمة الرشيد والمأمون في الوقت الذي كانت أوربا تتخبط في دياجير الظلام.

كتب عبد الله بن إسماعيل الهاشمي رسالة إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي، يدعوه بها إلى الإسلام، فأجابه عبد المسيح برسالةٍ يرد بها عليه، ويدعوه إلى النصرانية فلم ينكر عليه هذا[85].

وعرض الخليفة المهدي على طيمثاوس الكبير الجاثليق عشرين سؤالاً عن النصرانية، فأجابه عليها بكل صراحة[86].

وكان الحارث بن قيس الفزاري شيخاً أعمى، وكان له ابن شيعي، وأبنة حرورية، وامرأة ترى رأي المعتزلة، وكانوا جلوساً معه، فقال: أن الله جلَّ وعز يحشرني وإياكم يوم القيامة – طرائق قدداً[87].

وأخيراً فنحن نستطيع أن نستشفَّ بكل وضوح وجلاء من حقائق، أنه وفي حدود منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أصبح تحت يد العرب مختلف علوم اليونان والفرس، ولم يمض قرنان حتى كان العرب قد استوعبوا هذه المعارف والعلوم استيعاباً تاماً وعمدوا في الوقت نفسه إلى تصحيح الكثير من الأخطاء التي جاءت في هذه الكتب، فضلاً عن العلوم الجديدة التي أضافوها إلى هذه العلوم مثل الكيمياء والجبر في صورته الجديدة.

والجدير بالذكر أنَّ من النتائج العلمية الأخرى التي أدَّت إليها الترجمة في بيت الحكمة أن كان هناك تعاون علمي بين المترجمين والمؤلِّفين ومن ترابط بين أجزاء العلم الواحد لما يوفره هذا الاختصاص من إمكانات التحقيق والتدقيق واستمداد المعرفة من أصولها وجلاء الأدلة والحقائق التي تُبنى عليها الأحكام.

وفي وسعنا القول أنَّ الفكر العلمي الذي أزدهر في بيت الحكمة ببغداد تطور بكونه تجريبياً قائماً على أساس المشاهدات والملاحظات إذ وجَّه العلماء العرب جلَّ اهتماماتهم الفكرية والعلمية إلى دراسة مختلف العلوم من طب وكيمياء وفلك وغيرها من العلوم، والعمل على تحسينها بما توصلوا إليه من تجربة وتطبيق. وكان التطبيق وامتحان الحقائق عملياً هو طريق العلماء العرب في البحث.

وفي هذا الصدد يقول لوبون: "ومنح اعتماد التجربة مؤلَّفاتهم دقةً وإبداعاً لا يتنظر مثلهما من رجل تعود درس الحوادث في الكتب. ونشأ عن منهاج العرب التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمة. وإذا ما تفحصنا في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الإغريق في زمن أطول من ذلك كثيراً.

إضافةً إلى هذا كله فإنَّ من النتائج العلمية البارزة الأخرى هو ظهور الأمانة العلمية في كثير من المؤلَّفات العربية، وكان المؤلِّفون العرب يذكرون في كثير من الأحيان الكتب التي اقتبسوا منها كما كانوا يذكرون العلماء الذين اقتبسوا منهم. وهذا يدل على عمق النزعة العلمية عند العلماء العرب. وقد أصبح ذكر المراجع في مصنَّفاتهم العلمية من الأصول المألوفة[88].

وهنا نجد أنَّ أثر بيت الحكمة لم يقتصر على الترجمة والمنقول من علوم الأسبقين، كما أنه لم ينحصر في نطاق الإضافات البسيطة والتطوير الشكلي، بل تعدَّاهُ إلى مجالات الإبداع والأصالة والتجديد فقد أوجدوا مصطلحاتٍ علمية عن طريق التعريب والاشتقاق وتخصيص الألفاظ العربية لتلك

المصطلحات[89]. وبذلك كانت لهم الريادة في التعريب وفي جعل اللغة العربية لغة العلم لقرون عديدة.

ومن المزايا التي اتصف بها العلماء العرب في البحث العلمي أنهم جعلوا السيادة للعقل المُفكِّر في كلِّ أمورهم. فقد ظهر إلى جانب العلوم الدينية التي عُرفت بـ(العلوم العقلية) من طبٍّ ورياضيات وفلسفة وقد عُرفت بـ(العلوم العقلية) تمييزاً لها عن (العلوم النقلية). فقد جعلوا لها أقيسةً منطقية وقواعد خاصة تستند إلى العقل والدراية أكثر من إسنادها إلى النقل والرواية. وكان تطبيق الحقائق وتجربتها وامتحانها عملياً هو طريق علماء العرب المسلمين في البحث والتقصّي، وهكذا أصبح للعلوم العقلية منهج في البحث والتأليف يعتمد على التحليل والنقد والتجربة العملية والتدقيق المنطقي هو الذي يحكم على الأشياء إن كانت خطأً أو صواباً. فلولا هذا الأسلوب في التحقيق والاختبار والاستنتاج والاستقراء والتعليل الذي عُرف بالأسلوب العلمي لما انكشف حقٌّ أو حدثت معرفةٌ أو تكوَّن علم.

لقد تمَّ تطبيق هذا الانجاز العلمي من قبل العلماء المسلمين في العصر العباسي في بيت الحكمة محصوراً في يدهم فهم الذين تنبهوا بفعل السبق الذي أحرزوه في استنباط هذا الأسلوب العلمي قبل أن ينتبه إليه الغرب. علماً أنَّ أوربا في القرون الوسطى سارت على درس الكتب والاقتصار على تكرار رأي المُعلّم، وقال سيديو في هذا الصدد أيضاً: إنَّ أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البُداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدةً لأعمالها، وكان استخراج المجهول من العلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقاً إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثْبُت بغير التجربة...[90].

ويتحدث لوبون عن تجارب العرب العلمية واختراعاتهم وابتكاراتهم فيقول: ".. وإذا قيل أن يكن أول من قال بالتجربة والترصد اللذين هما ركن المباحث العلمية الحديثة فالإنصاف يقضي بأن نعترف بأنَّ الفضل في ذلك للعرب وحدهم".

فنرى مما تقدَّم أنَّ الحياة العلمية والفكرية قد ازدهرت في بغداد، إذ كان العلماء العرب يهتمون بالدراسات والبحوث العلمية، ولم تقتصر الاهتمامات على اختصاص محدد، وظهر منهم الكثيرون من أعاظم الفلاسفة وكبار الأطباء الذين يعتمدون في معارفهم على التجارب والتحقيق والترصد. منهم أبو بكر الرازي[91] صاحب البيمارستان العتيق في بغداد، وله في الكيمياء تجارب وقد أحصي له في علوم الطب والفلسفة والكيمياء أكثر من مائتي كتاب.

ومن علماء العرب في مجال الفلك أبو عبد الله مُحمَّد بن جابر ابن سنان التباني، المعروف عند الغربيين في العصور الوسطى بأسم **Al but egni** أو **Al bat eni us** وهو من أكبر علماء الفلك عند العرب، وقد عدَّه (لالند) واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم. ويكفي أن نذكر أنَّ عدد من نبغ في علم الفلك بلغ (534) عالماً[92].

فضلاً عن هذا كلِّه فقد نبغ عدد كبير من العلماء في مجالات العلوم المختلفة الأخرى وتقدموا بهذه العلوم خطوات واسعة وكان تقدمهم وابتكاراتهم في هذه العلوم العون الأول لهم على بلوغ هذا التقدم.

تخطيط بيت الحكمة

مرَّت دور العلم والمدارس في عصر الحضارة الإسلامية بمراحل عدَّة، فقد ابتدأت بحلقات المساجد ثم استقلَّت عنها وأصبح في كلٍّ منها مسجد تابع لها، وكانت هذه المدارس في أول الأمر تُدرِّس العلوم الدينية.

وتدل مجموع الأخبار التي انتهت إلينا أنَّ فكرة دراسة العلوم المختلفة في خارج المسجد كان من الأمور التي تراود أذهان الخلفاء العباسيين ببغداد في زمن مبكِّر من تاريخ دولتهم. فأوجدوا من أجل ذلك دور العلم وأودعت فيها خزائن للكتب وكذلك بيوت الحكمة التي أنشأها الخلفاء العباسيون وجمعوا فيها أمهات الكتب.

تؤكِّد المصادر التاريخية أنَّ بيت الحكمة كان أشبه بدور للكتب، وكثيراً ما أشار المؤرخون إلى وجود خزانات جليلة للكتب في بيت الحكمة. ومن هنا يتضح لنا أنَّ الغرض من إنشاء بيت الحكمة لم يكن لسدِّ نقصٍ في التدريس وإنما أنشأ لتحقيق غرض آخر ما كان المسجد الجامع وحده بنظامه التقليدي يوفي أو يتحمل وسائله.

للاستدلال على الرسم التخطيطي الاجتهادي لبيت الحكمة لا بدَّ من الوقوف على المعاهد العلمية والمدارس التي شُيِّدت في العراق في العصر العباسي لنجد أنَّ العراق قد حفل بعدد كبير من المعاهد ودور العلم والمدارس الكبرى القائمة بذاتها المستقلة عن المساجد الجامعة. وكانت هذه المدارس في إزدياد مستمر حتى دخول المغول بغداد سنة 656هـ[93].

ولعلَّ أكثر المدارس وضوحاً وتكاملاً هي (مدرسة الأربعين) في تكريت، شُيِّدت في أواخر القرن الخامس الهجري لتكون مدرسةً لأنها تمتلك جميع مواصفات المدارس، وأنها تحتوي على إيوانين متناظرين وفناء وسطي يُحيط به مجموعة من القاعات، ولا شك في أنَّ نظامها يُعد حلقةً من سلسلة ممتدة تشمل عناصر معمارية وتخطيطية سبق تطبيقها في غيرها من المدارس في العراق.

وهناك أيضاً مدارس شُيِّدت في بغداد بعد مدرسة الأربعين كـ(المدرسة الشرابية) في بغداد (القصر العباسي) والمدرسة المستنصرية[94]، إنَّ تخطيطهما يُعبِّر عن مراحل تطور النظام المدرسي في بغداد. والذي يهمنا في سياق الحديث عن تخطيط هذه المدارس الثلاثة (الأربعين والشرابية والمستنصرية) أنها تميزت بوحدة التخطيط والشكل العام فهي مربعة أو مستطيلة الشكل يتوسط كل منها فناء مكشوف تُحيط به مجموعة من المرافق تتألَّف من أواوين وقاعات وغرف وحُجُرات تتوزع في طابق واحد أو طابقين إضافةً إلى المسجد[95]. والإيوان هنا يشبه الصدر في النظام الحيري ذي الصدر والكمَّين، ويكون مفتوحاً على الفناء. وأنَّ تخطيط هذه المدارس الثلاثة يشبه ذلك النظام الذي كان سائداً في العراق من حيث تعدد الأواوين. فقد ظهر في العصر الآشوري، كما توجد عدَّة أمثلة في مدينة الحضر (الحظر)، واستمرت فكرة بناء الأواوين في العصر الإسلامي في عمارة القصور ونراه واضحاً في الإخيضر ودور سامراء[96].

أمَّا فيما يتعلَّق بـ(بيت الحكمة) فمن الواضح ومن خلال النصوص التأريخية التي أتت على ذكر بيت الحكمة أنَّ له شروطاً خاصة به وأنَّ تعريفه ووظائفه الرئيسة من كونه أعدَّ لنُخبة مختارة من المترجمين والعلماء وأصبح فيه دوائر علمية منوعة لكلٍّ منها علماؤها وتراجمتها ومشرفون يتولَّون أمورها

المختلفة. وكذلك أُلحق بـ(بيت الحكمة) مكتبة واسعة ومرصد فلكي وإلى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك، فأصبح بذلك معهداً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة وأنه كان مُعدّاً إعداداً كاملاً ليكون موضعاً علمياً وثقافياً.

لهذا نجد أنَّ المعمار (البنّاء) قد راعى تلك المسألة عند قيامه بتخطيط بيت الحكمة تلك المسألة عند قيامه بتخطيط بيت الحكمة فراعى مسألة وجود أواوين وقاعات وغرف للمترجمين والمؤلّفين والدارسين وبيوت للعاملين فضلاً عن مرافق أخرى.

وعلى الأرجح فإنَّ تخطيط هذه المدارس الثلاث وغيرها من دور العلم قد استنبط من تخطيط بيت الحكمة الذي هو بدوره قد استمد تخطيطه من التصاميم والتقاليد المتبقية في العراق[97].

وفي الختام لا بدَّ من القول أنه لا يمكن الخلط بين نظامي بيت الحكمة والمدارس، ومع أنَّ لكلٍّ منهما نظاماً مختلفاً تمام الاختلاف. إنَّ نظام المدرسة كان يتبع الغرض التدريسي الذي خُصصت له في حين أنَّ بيت الحكمة قد جُعل له نظاماً خاصاً يسير في تحقيق الكتب وترجمتها ومراجعتها وفي البحث والرصد فأصبح أشبه بـ(المجمع العلمي).



الدولة العباسية
والتقسيمات الإدارية قبل بداية انقسامها
في منتصف القرن التاسع للميلاد

بيت الحكمة في القيروان

قامت دولة الأغالبة في تونس (سنة 184هـ / 800م) على يد مؤسسها إبراهيم بن الأغلب، وأتخذت مدينة القيروان عاصمةً لها. أمتاز أمراؤها بميلهم إلى العلم والأدب، وكان منهم شيخ الفتيا وقاضيهم (أسد بن الفرات) فاتح صقلية وصاحب كتاب (الأسدية) في الفقه المالكي.

وأمتاز عصر الأغالبة (184 - 296هـ) بأنتشار علوم الفلسفة والطب والحكمة في تونس، وأول من أهتم بنشرها بين السكان هو الطبيب إسحاق بن عمران، فإنّه شرح كتب الفلسفة وفكّ غامضها وبسّط كتبها، فيسّر أمر قراءتها لمحبيها.

وبهذا يصبح مؤكداً أنَّ أفريقية أيام الأغالبة شهدت ظهور العلماء الروّاد المتخصصين بالعلوم العلمية والفلسفية، فكان لا بدَّ أن تكون أنشطتهم البحثية والتدريسية في صدر قائمة اهتمامات ومهام المؤسسة العلمية الأغلبية ببيت الحكمة[98].

يُعد الطبيب الشهير إسحاق بن عمران من أول هؤلاء الروّاد وأبرزهم، وهو بغدادي الأصل، مسلم النحلة. كان قدومه من بغداد إلى القيروان باستدعاءٍ من أحد أمراء الأغالبة، وهو ابن جلجل الأمير زيادة الله بن الأغلب[99]. وقد عُرف عن إسحاق بن عمران بأنه كان طبيباً حاذقاً مميزاً بتأليف الأدوية المركّبة، بصيراً بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في عمله وجودة قريحته[100]. إنَّ تميز وشهرة هذا الطبيب في مجال الطب وصناعة الأدوية من المؤكد أنّها كانت وراء استدعائه إلى القيروان. وقد وافق إسحاق على القدوم بشروط كان أحدها العودة إلى وطنه متى أراد، وهذا الذي لم يتحقق له. وكان

لإسحاق بن عمران فضل كبير على ميدان الطب والصيدلة بل والفلسفة في أفريقيا، قال ابن جلجل: "وبه ظهر الطب بالمغرب، وعُرفت الفلسفة". وفي هذا شهادة كافية إلى أنَّ هذا الرجل كان صاحب الفضل والرائد الأول في بدء البحث والتدريس في ميدان علوم الطب والصيدلة والفلسفة في أفريقيا بصورة فعلية[101].

وسعى الأغالبة بجلب الكتب العلمية المختلفة من أقطار الشرق كالعراق والشام ومصر وغيرها، ورغّبوا بعض القساوسة من صقلية فاستقدموهم إلى القيروان، وكلّفوهم بترجمة الكتب المختلفة من اليونانية واللاتينية، فترجموا لهم عدّة كتب في الفلسفة والطب والنبات والتاريخ، كان يساعدهم في عملهم رجال أفريقيون يُتقنون اللغة العربية.

ويذهب الأستاذ عثمان الكعاك أنَّ الذي أسس بيت الحكمة بالقيروان، هو زيادة الله الثالث (290 – 296هـ/ 902 – 908م) وكان بيت الحكمة قريباً من الجامع الكبير، واقعاً على السماط الأعظم الذي هو الجادة الكبرى الرئيسية بالقيروان. وفيه مكتبة ودار ترجمة وتأليف، ومعهد لتدريس علوم الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والهندسة والنبات والموسيقى وغيرها.

وأنتشرت بواسطة الأرقام الهندية، التي أخذها العرب وهذبوها، وأدخلها إلى الأندلس دوناس بن فرش القيرواني، وتُرجمت فيه الكتب المختلفة، وتُرجم عن البربرية: مانيثيا وبوغورطة وأنساب البربر التي عوّل عليها ابن خلدون في مؤلفه، وعن اللاتينية تاريخ ليف الروماني، وعن البونيقية كتاب ماعون في الفلاحة، وغيرها من الكتب العلمية والأدبية المختلفة.

وكان فيه محل لإقامة العلماء ومن يرتاد هذا البيت، فيجدون فيه السكن وأسباب العيش ولوازم الكتابة، كما تجد فيه من يساعدهم من النسَّاخين والتراجمة والورَّاقين، كان هذا يُسهِّل لهم الإنقطاع فيه، والتفرغ للدرس والتأليف.

وممن تولاه هو: أبو اليُسر إبراهيم بن أحمد الشيباني، ويُعرف بالرياضي. وهو من أهل بغداد، سكن القيروان، وله سماعٌ ببغداد من جُلَّة المحدِّثين والفقهاء والنحويين، لقي الجاحظ والمُبَرِّد وثعلباً وابن قتيبة، ولقي من الشعراء حبيباً (أبا تمام) ودعبلاً وابن الجهم والبُحتري، ومن الكُتَّاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر وغيرهم. وهذا يُدلِّل على أنَّ أبا اليُسر الشيباني درس الحديث والفقه واللغة والأدب والشعر والكتابة على يد كبار المتخصصين المتميزين الذين عاصرهم. وهو الذي أدخل إلى أفريقيا رسائل المُحدَثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم، وكان عالماً أديباً مترسلاً بليغاً ضارباً في كل علمٍ وأدب، وله تآليف كثيرة. وكان أديب الأخلاق نزيه النفس، كتب لإبراهيم بن أحمد بن الأغلب ثم – من بعده – لإبنه أبي العباس عبد الله، وفي أيام زيادة الله – آخر أمراء بني الأغلب – عهد إليه بأمر بيت الحكمة، وبقي يُشرف عليه إلى أن سقطت دولة الأغالبة على أيدي الفاطميين، وعمَّر سنتين بعد هذا، وتوفي سنة (298هـ/ 910م) ودُفن في مدينة القيروان.

يذكر لنا ابن الأبَّار رحلة الشيباني إلى القيروان ولكن من دون أن يُحدد تاريخاً لها، ولكن من المؤكد أنَّها كانت بعد اكتمال تكوينه الفكري. لقد حمل هذا الرجل معه إلى أفريقيا العلم الذي تعلَّمه في بغداد، وكان من بين ما أدخله إلى أفريقيا الرسائل والأخبار علماً في رأس هذا الرجل أم كتباً وكراريس حملها

من المشرق إلى المغرب ؟ أم الاثنين معاً، وهو الأصوب كما ترى الأستاذة الدكتورة صباح الشيخلي[102]. وبهذا يكون الشيباني قد أسهم في بناء صرح الثقافة والفكر في أفريقيا أيام الأغالبة.

كان الشيباني، كما جاء عند ابن الأبّار، عالماً أديباً ومرسلاً بليغاً ضارباً في كلّ علم وأدب بسهم، وكتب بيده أكثر كتبه مع براعة خطّه وحسن وراقته، وحُكي أنّه كتب على كبره كتاب سيبويه كلّه بقلم واحد وما زال يُبريه حتى قصر فأدخله في قلم آخر وكتب به حتى تمام الكتاب[103]. وهذا يُشير إلى موسوعية الرجل الذي كان له سهم ضارب في كلّ علم وأدب بل وفن، فقد كان فناناً في الوراقة يُدلل على ذلك حكاية نسخه في شيخوخته لكتاب سيبويه كاملاً بقلم واحد. ومما زاد في سعة ثقافته كونه رحّالة جال في البلاد من خراسان إلى الأندلس. ونقلاً عن تاريخ عريب بن سعيد يُسمّي ابن الأبّار بعض مؤلّفات الشيباني وهي: مسند الحديث وسراج الهدى، والرسالة الوحيدة المؤنسة، وقطب الأدب، ولقيط المرجان، وغير ذلك.

لم يكن أبو اليُسر الشيباني واسع العلم والمعرفة فقط، بل كان أديب الأخلاق نزيه النفس. بهذه الصفات والمميزات العلمية والأخلاقية نال الحظوة عند أمراء بني الأغلب، فأصبح ضمن جهازهم الإداري. يقول ابن الأبّار نقلاً عن تاريخ عريب: كتب {الشيباني} لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم ثم كتب لعبد الله المهدي {الفاطمي} حتى مات سنة 298هـ. ومن نصّ سجله ابن الأبّار نقلاً عن تاريخ الرقيق القيرواني تمّ فيه تحديد أسماء الأمراء الأغالبة الذين كتب لهم الشيباني، فجاء فيه: كتب لإبراهيم بن أحمد الأغلبي صاحب

أفريقيا ثم لأبيه أبي العباس عبد الله وكان أيام زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة[104].

لم يمر بيت الحكمة الأغلبي بمراحل النشأة التي مرَّ بها بيت الحكمة العباسي، من كونه نشأ كخزانة للكتب ثم تطور إلى مؤسسة علمية للبحث والترجمة، فقد وجدت اللجنة المؤسسة إنموذجاً متكاملاً فقامت بالتأسيس على غراره، وهذا أحد الأدلة الإضافية إلى الدور البارز والمؤثر الذي لعبه بيت الحكمة العباسي في المساعدة على إنشاء مراكز العلم والحكمة في العالمين العربي والإسلامي. أصبح عالم الفكر والثقافة في أفريقيا أيام الحكم الأغلبي ثابت الركائز واضح الخصائص. فتطور المدرسة الفقهية في القيروان أوصلها إلى درجة الحيوية والتنوع، والمدرسة الكلامية أصبحت تزخر برجالات أفذاذ لهم مقالاتهم ومناظراتهم الجدلية ولهم تلاميذهم، وسارت الحركة الأدبية واللغوية إلى مرحلة النُضج[105]. فلم يبق أمام هذه الساحة الثقافية والفكرية إلا ظهور مدرسة تتوجه باهتمامها إلى العلوم الصرفة والفلسفية، فكان تأسيس بيت الحكمة من قبل إبراهيم بن أحمد ليحتضن مثل هذه العلوم الناشئة في أفريقيا، ولتنال بعده رعاية ولده وحفيده الذي عاش في كنفهم بيت الحكمة. ولا نستطيع هنا أن نجزم، هل جاء هذا التوجه نتيجةً لولع الأمير إبراهيم بن أحمد الشخصي بـ(العلوم الرياضية والحكمة)، أم أنه وجد أنَّ المجتمع الأفريقي لم يُظهر عناية جادة بالعلوم كالطب والفلسفة والرياضيات التي شاعت وازدهرت في المشرق[106]. ولدينا في كتب الطبقات التي تُعنى بالأطباء والحكماء والمهتمين بالعلوم الرياضية وغيرها ما يسند ما ذهبنا إليه من أنَّ بيت الحكمة أُنشئ على أنه مؤسسة وجهتها الأساس العناية بالعلوم الصرفة والفلسفية، وإن كان هذا لا يعني إهمال الأغالبة عنايتهم بالعلوم الدينية والأدبية والإنسانية ورجالاتها.

وبعد سقوط دولة الأغالبة تنقطع عنا أخبار بيت الحكمة، وأنَّ بعض العلماء أخذوا ينزحون منها إلى الأندلس، فرحّب بهم عبد الرحمن الناصر، وأبنه الحكم من بعده، وفتحوا لهم أبواب مساجدهم الجامعة، ويسّروا للناس نشر العلم والحكمة في عاصمتهم قرطبة، وممن سافر إلى الأندلس من هذه الفئة ابن سعيد الصيقل والفتى طريف فإنهما نشرا علوم الحكمة في الأندلس[107].


النوكبرد
مملكة الفرنجة
الصقالبة
كورسيكا
رومية
أوستيا
جيتا
نابولي
باري
البيزنطيون
طارنت
سردينية
846
831
بالرمو
711
827
تونس
مزار
صقلية
بجاية
870
لقيروان
رقادة
لمنستير
مالطة
الأمويون
البحر الرومي
الأدارسة
الرستميون
قابس
طرابلس
الطولونيون
الدولة الأغلبية
870
حدود الدولة الأولى
خطوط تقدم للحملات البحرية مع بيان السنة (بالتاريخ الميلادي)
مناطق جديدة تم فتحها (بعد ٨٧٠ م)
firas.tayyib@hukam.net

دار الحكمة في القاهرة

كانت المنافسة بين الفاطميين والعباسيين في السياسة والعلم والأدب، وفي القرن الرابع الهجري أسس الفاطميون دار الحكمة[108] بالقاهرة سنة (395هـ/ 1004م) على نحو ما كان عليه بيت الحكمة في بغداد. وجعلوا فيها مكتبةً كبيرة، وضعوا فيها آلاف الكتب المنوعة والنادرة العزيزة المنال، والتي تمتاز بجودة الخط، وجمال التجليد، ودقّة الزخارف، وهي في شتّى العلوم والفنون والمعارف. تجد فيها كتب الفقه والنحو واللغة والحديث والسير والنجوم والروحانيات والكيمياء والفلسفة والطب وغيرها، من كلّ كتاب عدّة نسخ. وفيها المصاحف المذهبة بالخطوط المنسوبة، كخط ابن مقلة وابن البوّاب، وغيرهما من الخطاطين.

ذكر المقريزي أنّ الحاكم بأمر الله (375 – 410هـ/ 985 – 1019م) نقل إليها من كتب قصره، ومن خزائن القصور المعمورة، بما يُقدَّر بستمائة ألف مُجلَّد، من أصل تلك الكتب كانوا يعدون مائة ألف مُجلَّد بديعة الخط والتجليد. وبلغ عدد كتب دار الحكمة – بعد هذا – مليون وستمائة ألف مجلد. ويذكر المقريزي أيضاً: أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتبٍ أعظم منها.

وكان فيها مصورات جغرافية، وآلات فلكية، وخطوط نادرة، وأقلام منسوبة، وتحف فنية نادرة. ومن ذلك: كرتان أرضيتان إحداهما من الفضة، كان قد صنعها بطليموس ثم صارت إلى الأمير خالد بن يزيد بن معاوية. وكان مكتوباً عليها: حُملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية. أمّا الكرة الثانية فكانت من النحاس صنعها أبو الحسن لأسد الدولة صالح بن مرداس

الكلابي، أول الأمراء المرداسيين بحلب. وكان في دار الحكمة صناديق مملوءة أقلاماً، من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من الخطاطين المشهورين.

ووصف المقريزي دار الحكمة وصفاً جامعاً فقال: "ففي سنة خمس وتسعين وثلثمائة فُتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، دخل الناس إليها، ونسخ كل من ألتمس نسخ شئ مما فيها ما ألتمسه، وكذلك من رأى قراءة شئٍ مما فيها، وجلس فيها القُرّاء والمُنجّمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فُرشت الدار، وزُخرفت وعُلّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوّام وخدّام وفرّاشون وغيرهم، وسمّوا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، من الكتب التي أمر بحملها إليها، من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم يُر مثله مجتمعاً لأحدٍ قط من الملوك، وأباح ذلك كلّه لسائر الناس على طبقاتهم، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها. فكان من المحاسن المأثورة أيضاً التي لم يُسمع بمثلها، إجراء الرزق السني لمن رسم له الجلوس فيها، والخدمة لها، من فقيهٍ وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر قراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلُّم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر.

وكان الحاكم بأمر الله، يُشرف بنفسه على الحركة العلمية التي كانت في دار الحكمة، وتجري بحضرته المُناظرات والمجالس الدينية والعلمية.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة أحضر أهل الحساب والمنطق، وجماعة من الفقهاء، وجماعة من الأطباء إلى حضرته، فكانت كل طائفة تحضر على إنفرادها للمُناظرة بين يديه، ثم خلع على الجميع ووصلهم.

وأوقف الحاكم للدار ما يكفي لإدامة عمارتها، ولمرتبات من يشتغل فيها من العلماء والفقهاء والخدم، ولأثاث الدار، وما يلزمها من المصروفات المختلفة، وما يحتاج من مرتادوها من أدوات الكتابة ولوازمها، وكان لها نسبة معينة من أوقاف الجامع الأزهر، وجامع المقس، وجامع راشدة، وغير ذلك.

وسار الخلفاء الفاطميون على طريقته، فضاعفوا أوقافها وصرفوا عليها بسخاء، يذكر السيد أمير علي: أنَّ النفقة عليها بلغت (43) مليون درهم سنوياً، بينما يذكر المقريزي: أنَّ النفقة السنوية عليها كانت (257) ديناراً في السنة[109] ولعلَّ ما ذكره المقريزي هو ما كان يُصرف عليها في أواخر أيامها.

والسبب الذي حمل الخلفاء الفاطميين على أن يُضاعفوا النفقة على دار الحكمة، وأن يصرفوا عليها بجودٍ وسخاء، أنهم أتخذوها مركزاً ثقافياً لنشر دعوتهم، ومبادئ مذهبهم الذي يؤيد حقّهم في الخلافة، خاصةً وأنَّ النزاع بينهم وبين العباسيين كان قوياً على الخلافة، وكانت الدولة العباسية في ضعفٍ سياسي، قد تحكّم الأعاجم في الدولة، وأنتزعوا السلطة من الخليفة، وتحكموا في البلاد كما أرادوا، فلجأ الخلفاء العباسيون إلى الطعن بنسب الفاطميين، وأدعوا أنهم ليسوا من نسل الإمام جعفر الصادق (u)، وشنّوا حملةً قوية ضد مذهبهم والطعن في نسبهم، ولم يجد الفاطميون بداً من مقاومة هذا العداء، فلجأوا إلى الدعاوى المذهبية في الدفاع عن خلافتهم، والرد على ما كتبه عنهم علماء أهل السُنّة – أنصار الخلافة العباسية – ونقض ما كتبوه عنهم.

وكانت الدعوة الفاطمية أقوى بكثير من الدعوة العباسية، واتخذوا لهم مراكز عديدة في بلاد الشام والعراق وبلاد الجزيرة.

وكانت مجالس الدعوة التي نظموها في دار العلم كثيرة ومتنوعة، وهي خير ما يعتمدون عليه في تعزيز الدعوة في مصر وفي غيرها من البلاد، وفيها يُدرّب الدُعاة الذين ينشرون الدعوة في البلاد الأخرى، وعقد وزراؤهم وأهل الرأي منهم مجالس علمية – لتأييد خلافتهم – في دورهم، وفي المساجد الجامعة، ونشروا المذهب الفاطمي بما كانوا يجرونه فيها من المناظرات والمساجلات المذهبية والأدبية المختلفة التي تهدف إلى بث مبادئهم بين كافة طبقات الشعب.

ومن ذلك ما فعله الوزير يعقوب بن كلّس (318 – 380هـ / 930 – 990م) الوزير الفاطمي، فإنه كان من أكثر الناس إهتماماً بنشر مبادئ المذهب الفاطمي، وكانت داره مجمع العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، وقلّما يمر يوم إلا ويعقد فيه مجلس علمي يحضره الناس، وألّف هو كتاباً في فقه الإسماعيلية كان يقرأه كل ليلة جمعة في داره، بمجلسٍ عام يحضر المجلس: القضاة والفقهاء والقُرّاء والنُحاة وجميع أرباب الفضائل والعدول وغيرهم، من وجوه الدولة وأصحاب الحديث، فإذا فرغ من مجلسه، قام الشعراء ينشدون المدائح، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم، وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب حتى الطب، ويعارضون المصاحف ويشكّلونها وينقطونها...

وصنَّف كتاباً مما سمعه من المُعز وولده العزيز، وجلس في شهر رمضان من سنة 369هـ مجلساً حضره الخاص والعام، وقرأ الكتاب بنفسه على الناس، وجلس في الجامع العتيق بمصر جماعة يُفتون الناس من هذا الكتاب.

على أنَّ ما قام به الوزراء - ابن كلِّس وغيره - لم يكن من الأهمية بمكان، على ما كانت عليه الدعاوة الواسعة في دار الحكمة - دار العلم - فإنهم نظموا دعوة واسعة فيها، ويسَّروا أمر المطالعة والدرس والإستنساخ لكافة الطبقات التي تقصدها، بما قدموه من الكتب المختلفة، وأدوات الكتابة ولوازمها، فدخلها الناس على أختلاف طبقاتهم: فبعضهم كان ينسخ ما يرغب به من الأبحاث، وبعضهم يُعارض أو يُصحح ما عنده من كتب، وبعضهم يتلقّى الدروس على شيوخ الدار، وأكثرهم لحضور مجالس العلم المختلفة، التي كان يعقدها الفاطميون للمُناظرة في شتَّى العلوم الفلسفية والمنطقية والمذهبية، ويدعون خلالها إلى مبادئهم وتعاليمهم السرية - وهي الغاية التي كانوا يسعون إليها - فالدار مركز مهم لنشر مبادئ المذهب الفاطمي وتعاليمه، ولداعي الدُعاة مجلس في دار الحكمة، وهو يُشرف بنفسه على تنظيم الدعوة بين سائر الطبقات التي كانت ترتاد الدار. قال المقريزي: كان بجوار القصر دار تُعرف بدار العلم - خلف خان مسرور - كان داعي الشيعة يجلس فيها، ويجتمع عليه من التلاميذ من يتكلّم في العلوم المتعلقة بمذهبه.

ولمَّا توسعت الدعوة، وكثر الإقبال على مجالس العلم، ضاقت الدار بمن يرتادها، فأخذوا يعقدون مجالس الدعوة بالمحفل أيضاً، وهو مقر داعي الدُعاة، يتلقون منه أسرار المذهب الفاطمي، والتعاليم التي يرغب بنشرها بين الناس، ويُنظم الفقهاء مجالس بما سيُلقي، يعرضونها على الداعي. وكان هذا يعرضها بدوره على الخليفة، وبعد أن يأخذ موافقته على نشرها، كان الداعي يقوم بتلاوة المجلس (المحضر) على الناس.

قال المقريزي: ويحضر إليه – أي داعي الدُعاة – فقهاء الدولة، ولهم مكان يُقال له دار العلم، ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة، وكان الفقهاء منهم يتفقون على دفتر يُقال له (مجلس الحكمة) في كل يوم أثنين وخميس، ويحضر مبيضاً إلى (داعي الدعاة) فينفذ إليهم ويأخذه منهم، ويدخل به إلى الخليفة في هذين اليومين المذكورين، فيتلوه عليه – إن أمكن – ويأخذ علامة بظاهره، ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين في مكانين: للرجال على كرسي الدعوة بالإيوان الكبير، وللنساء بمجلس الداعي، وكان من أعظم المباني وأوسعها، فإذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا إليه لتقبيل يده، فيمسح على رؤوسهم.

فالفاطميون أعتمدوا كل الإعتماد على فقهاء (دار الحكمة). وكان من أعمال فقهاء الدولة أن يجتمعوا في دار الحكمة عند جماعة متصدرين بها، وأن يقوموا بتنظيم مجالس الدعوة، التي تهدف إلى نشر المذهب الفاطمي – الإسماعيلي – وهي تكون تحت إشراف داعي الدُعاة الذي كان يُراجع الخليفة في أمرها.

ولما زاد الإقبال على مجالس العلم – الدعوة – نظَّم الداعي عدّة مجالس لها فكان يُفرد للأولياء مجلساً، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلساً، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلساً، وللنساء بالجامع الأزهر مجلساً، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً، كما كان الداعي يُنظِّم المجالس بداره، وينفذها إلى من يختص بخدمة الدولة. هذه المجالس المختلفة كانت تُنظَّم بكتبٍ خاصة، يقوم بها فقهاء دار الحكمة، وتُسمَّى (مجالس الحكمة).

فمصدر مجالس الدعوة القوية المنظمة هو دار الحكمة، توضع بها المجالس المتفاوتة بمبادئها وتعاليمها، وكل نوع منها تُناسب قابلية وعقلية من ستُلقى عليه. فمجالس الأولياء – وهم المُقدّمون في المذهب وعليهم الإعتماد – هي غير مجالس العامة والطارئين على البلد، وهذه تختلف عن مجالس النساء، أو مجالس خواص الخدم، وغيرهم، فكانت الدعوة تشمل كافة طبقات الشعب عالمهم وجاهلهم، الرجال والنساء، الخاص والعام، المقيم والطارئ على البلد، وكلها تصدر عن دار الحكمة.

وكما كانت دار الحكمة تنظم الدعوة في مصر، فإنّها صارت مركزاً لنشر المذهب الفاطمي في شمال أفريقيا، وبلاد الشام وبلاد الجزيرة، وتخرّج منها أعلام هذا المذهب ومجتهدوه ودُعاته، الذين خدموا الفاطميين أجلَّ خدمة، وأمدوا الخزانة الفاطمية بشتَّى الكتب الفقهية والعلمية التي تعزز مذهبهم، وتؤيد خلافتهم.

ومن الذين تولُّوا دار الحكمة، هو داعي الدُعاة أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران الشيرازي المعروف بلقب المؤيد في الدين تولَّى الدار في خلافة المستنصر (427 – 487هـ/ 1035 – 1094م) وله ثمانمائة مجلس، عقدها في دار الحكمة، وهي تقع في ثماني مجلدات كبيرة، تناول فيها موضوعات إسماعيلية شتَّى: دينية وسياسية وأدبية وتأويلية، وكلها لتأييد المذهب الإسماعيلي – الفاطمي – وتردّ على من يرى خِلافَ ذلك – وهو الذي كانت المراسلات بينه وبين فيلسوف المعرّة أبي العلاء المعرّي – كما أنه ردّ على ابن الراوندي، وما قاله في كتابه (الزمرذ) في إبطال النبوآت.

وبجانب هذا فإنَّ الدار خدمت العلم خدمةً تذكر، كان يُدرَّس فيها من النحو واللغة والطب والفلسفة والكيمياء وتخرَّج منها أعلام الفكر في العصر الفاطمي.

ومن الحلقات التي كانت تُعقد فيها، هي التي كان يعقدها جُنادة بن مُحمّد بن الحُسين الأزدي الهروي أبو أسامة اللغوي النحوي (المتوفى سنة 399هـ/ 1008م) قَدِمَ مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد، وأبا إسحاق علي بن سليمان المعرّي النحوي، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة، وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات، فقتل الحاكم جُنادة وأبا علي، وأستتر عبد الغني[110].

بقيت الدار عامرة بمجالسها العلمية حتى سنة (461هـ/ 1068م) فأصابتها نكبة طوّحت بكثيرٍ من كتبها النفيسة. وذلك أنَّ الخليفة المستنصر بالله بن الظاهر (427 – 487هـ/ 1025 – 1094م) كان ضعيفاً سيء التصرف، مدمناً على الخمر، أهمل أمور البلاد، فثار عليه الجيش بقيادة ابن حمدان سنة (461هـ/ 1068م) وأضطروه إلى بيع كنوزه، وكنوز قصوره، لسدِّ حاجتهم، وأمتدت أيدي الجيش إلى خزانة كتب دار الحكمة، وكانت تحوي كنوزاً ثمينة ومما كان فيها ألفان وأربعمائة ختمة، مكتوبة بخط مُحلًّى بالذهب والفضة، فإقتسمها الأتراك وفرقوها بينهم، وفرقوا كتب دار الحكمة وما فيها من نفائس، وحملوا منها عدّة أحمال إلى الإسكندرية، أرسلت على الجمال إلى الوزير عماد الدين أبي الفضل بن المحترق – حاكم الإسكندرية – ولما وصلت قرية (أبيار) سطا عليها بعض العربان من قبيلة (لواتة) فنهبوها، وأحرقوا ورقها، وأنتزعوا جلودها الثمينة، وصنعوا منها أحذية، وهكذا تبدد قسم لا يُستهان به من كتب

دار الحكمة. وهي من النكبات الكبيرة التي أصابتها. وفي شهر ذي الحجّة من سنة (516هـ / 1122م) جرت في الدار فتن، أدت إلى غلقها، وتعطيل مجالسها العلمية. ذلك أنه كان ممن يتردد إلى الدار رجلان، أحدهما يُدعى (بركات) والآخر يُدعى (حميد بن مكي الأطفيحي القصّار) مع جماعة، وكان القصّار هذا يبث تعاليم هدّامة، وما زال يُغالي بها، حتى إدعى الألوهية، ولاقت تعاليمه رواجاً عند بعض البسطاء الذين كانوا يترددون إلى الدار، كما أستفسد أستاذين من أساتذة الدار، فتفاقم أمرهم، وخشي أولوا الأمر عاقبة هذه الحركة الهدّامة، فأغلقت دار العلم – دار الحكمة – وقُبض على المضللين ونُكّل بهم.

وإننا نرى أنَّ هذا لم يكن السبب الأصلي الذي أدَّى إلى إغلاق دار الحكمة، وتعطيل مجالسها العلمية، وإنما كان سبباً مباشراً لغلقها. والسبب الرئيسي هو: أنَّ الفاطميين أفترقوا إلى فرقتين، مُستعليَّة ونزارية، فالمُستعليَّة يدعون إلى أنَّ الإمامة أنتقلت بعد المستنصر بالله إلى أبنه المُستعلي بالله ثم إلى أولاده من بعده – وهم حزب الخليفة.

وأمَّا النزارية فيدّعون أنَّ الإمامة أنتقلت بعد المستنصر بالله، إلى أبنه نزار، كان ذلك بالنص من أبيه المُستعلي بالله، وكانت مجالس المناظرة تُعقد في دار الحكمة بين أصحاب الفرقتين – المذهبين – وأخذ دُعاة كل مذهب بتأييد ما يدعيه، ويظهر أنَّ النزارية تغلبوا على المُستعلية بدعواتهم وتعزيز مذهبهم، فمال الناس إليهم، وكثر الخوض في المذاهب، وخشى المُستعلية من تفوق النزارية عليهم، لذا رأوا من الحكمة غلق دار الحكمة، وتعطيل مجالس العلم فيها، إلى أن تهدأ الأحوال ويترك الناس الجدل في المذاهب، فأمر الأفضل بغلق الدار، وتعطيل مجالس الدعوة فيها، فهدأت الحالة وبطلت المجادلات[111].

وبعد عدّة أشهر هدأت حركة النزارية، وأنفض أتباعها عنها، وأستقرت الأمور للمُستعلية، ولم يبقَ لهم منازع، فطلب بعض خدّام دار الحكمة من الخليفة الآمر بأحكام الله (495 – 524هـ/ 1101 – 1149م) أن يُعيد فتح الدار ففاوض الخليفة وزيره (المأمون البطائحي) في الأمر، فأجاب الوزير على هذا، مشترطاً: إذا أُعيد فتح الدار أن تسير الأوضاع الشرعية التي يُقرّها فقهاء المُستعلية، وأن يُبنى لها محل بعيد عن محلها الأصلي، الذي يُجاور قصر الخليفة، ووجودها قرب القصر قد لا يخلو من خطرٍ على حياة الخليفة ومحاذير لا تُحمد عقباها.

فأشار عليهم الثقة (زمام القصور) أن تُبنى قريبةً من داره، على بقعةٍ خاليةٍ يصلح أن يكون موقعها لدار العلم – دار الحكمة – فشيّدوا عليها (دار العلم الجديدة) وكانت داراً كبيرة، يُقال أنَّ النفقة بلغت عليها مائة ألف دينار وأكثر، ونقلوا إليها ما كان في دار الحكمة القديمة، وفُتحت الدار الجديدة في شهر ربيع الأول سنة (517هـ / 1123م) وعاد الإنتفاع بها كسابق عهدها، وجعل بها خازناً أبو مُحمّد حسن بن آدم من أقطاب العلم والفضل، ومتصدرون برسم قراءة القرآن، وداعي المذهب، وناظر يتولّى أمورها، ولم تزل عامرةً بمجالسها العلمية إلى أن أنتهت الدولة الفاطمية سنة (567هـ/ 1171م) فإنَّ السلطان صلاح الدين الأيوبي – بعد أن أحتل مصر – حاول طمس معالم الدولة الفاطمية وقضى على مذهبهم، فهدم دار الحكمة، وشيّد في محلها مدرسة الشافعية، كما أنَّ القاضي الفاضل نقل منها مائة ألف مُجلّد إلى مدرسته الفاضلية.

لم يكن لبيت الحكمة الذي أسسه العباسيون ببغداد صبغة مذهبية ولم يدعو فيه لمناصرة مذهبٍ على آخر، ولا تجد فيه أثراً لتقييد الحرية الفكرية، تسوده روح العلم، وأكثر كتبه كانت في علوم الحكمة: من طبٍ وفلسفةٍ ومنطق وموسيقى ورياضيات وفلك ونجوم. وتولاّه علماء أعلام من الأطباء والفلاسفة والفلكيين، وغيرهم من أصحاب العلوم العقلية، وفيه من السريان والنصارى، ومن الفرس الشعوبيين، ومن الصابئة ومن اليهود والمجوس وغيرهم من أصحاب المِلَل والنِحَل المختلفة، فالحرية الفكرية مطلقة، ولكلٍ منهم حق الكلام والمناظرة والتأليف بما يبدو له. حتى ولو كان الأمر ضد العرب والمسلمين.

والعباسيون لم يقيدوا الأفكار، ولم يفرضوا مذهبهم على الناس، بل لكلٍ دينه ومذهبه ورأيه، وكان الخلفاء يشاركون في المناظرات العلمية والدينية، ويبدون آرائهم كأحد الحاضرين، وتكون عرضةً للنقد والردِّ عليها.

كان المأمون يعقد المجالس العلمية والدينية، ويشارك فيها، ويجادله العلماء بكل حرية وصراحة، ويبدون آراءهم ولو كانت تخالف ما يذهب إليه المأمون، وكان هو يتقبلها بكل أرتياح.

ذكر الطيفوري: سمعت يحيى بن أكثم يقول: أمرني أمير المؤمنين – عند دخوله بغداد – أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد، فأخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً، وأحضرتهم، وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل، وأفاض من فنون الحديث والعلم، فلما أنقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين: قال المأمون: يا أبا مُحمّد: كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس، بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم، فطائفةً عابوا

علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب – عليه السلام – وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي، إلا بانتقاص غيره من السلف، والله ما أستحل أن أنتقص الحجّاج، فكيف السلف الطيب.

كان المأمون يبغي من مجالسه الفقهية الدعوة إلى تفضيل الإمام علي – عليه السلام – وهو ما كان يميل إليه، ولكنه لم يفرض هذا الرأي على الفقهاء الذين أختارهم يحيى بن أكثم لمناظرته، ولذا تراه يشكو إلى يحيى أستياء القوم مما يراه المأمون، ظناً منهم أنه بتفضيل الإمام علي، أنتقاص لغيره من الصحابة. وإنهم جادلوه في أمر تفضيله له، وظهر منهم الأستياء من ذلك، ولكن المأمون لم يغضب من موقفهم معه، بل سمع إلى ما قالوه بكل أرتياح.

وكان المأمون يرى رأي المعتزلة، ولكنه لم يفرض مذهبه على الناس، بل إنه عزز مذهب المعتزلة – أهل الرأي – بترجمة كتب الفلسفة والمنطق، وهي التي تؤيد مذهبهم، وكان من هذه الحركة (علم الكلام) الذي مهد المعتزلة قواعده، وبرعوا فيه، وصار خير مساعدٍ لهم على نشر مذهبهم.

أمَّا الفاطميون فإنهم كانوا بالضد من هذا، فالحرية الفكرية مقيدة، وأهتمامهم بكتب الفقه ومجالس الدعوة أكثر من غيرها. فكانت كتب فقه دار الحكمة مما يؤيد مذهبهم، ويعزز خلافتهم. والدار نفسها مركز دعوة واسعة للمذهب الإسماعيلي، ولا تجد في الدار الكتب التي تعارض مذهبهم أو تطعن بدعوتهم.

وأن المجالس التي كانت تُلقى فيها مقيدة غاية التقييد. فكان يُنظِّمها فقهاء الدولة، مع فقهاء دار الحكمة، ويكون هذا تحت إشراف الداعي، ثم الخليفة نفسه، ثم بعد هذا التحفظ كانت تُذاع على السامعين. فالدار دار دعوة منظمة

للمذهب الإسماعيلي، تحت ستارٍ من العلم. ومناهج الدار تتبع السياسة العليا للدولة، فهي دار دعوة ثم هي دار علم أو حكمة. وعلى هذا فإنَّ الدار مرت بأدوارٍ مختلفة، تتبع بذلك سياسة الخليفة التي يرمي إلى تحقيقها.

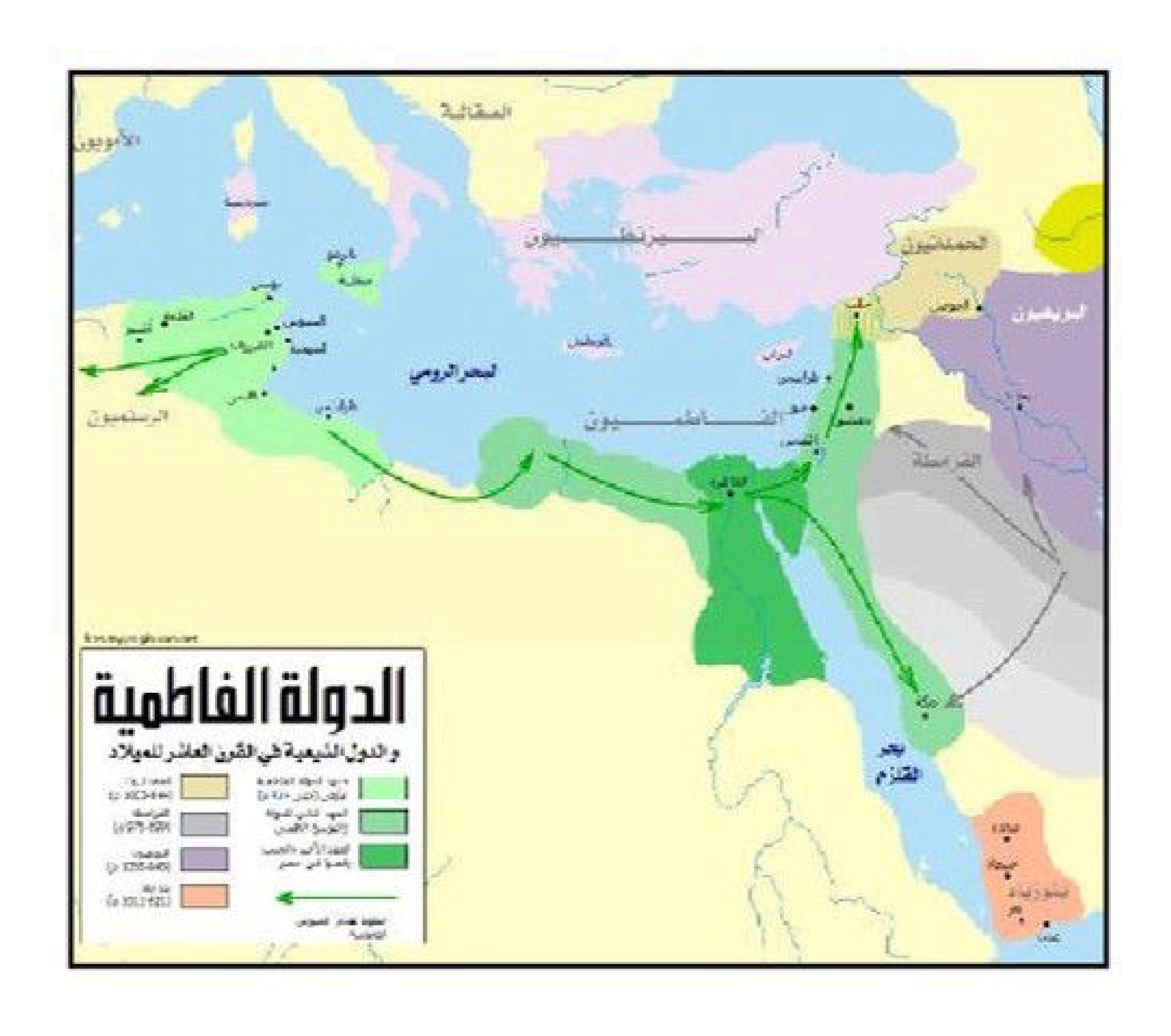
ولما أشتد عسف الخليفة الحاكم بأمر الله على أهل السُنَّة وأهل الذمة، أرسل إليه ابن باديس ينكر عليه أفعاله. وأراد الحاكم ترضية بن باديس وأستمالته إليه، فأمر في سنة (400هـ/1009م) بالإهتمام بدار الحكمة، وزاد عدد كتبها، وأسكنها من شيوخ السُنَّة شيخين، يُعرف أحدهما بأبي بكر الإنطاكي، وخلع عليهما وقرّبهما، ورسم لهما بحضور مجلسه، وملازمة دار العلم، وجمع الفقهاء والمُحدّثين إليهما، وأمر أن يُقرأ فضائل الصحابة، ورفع عنهم الإعراض في ذلك، وأطلق صلاة التراويح، وأمر الفقهاء بتدريس مذهب الإمام مالك، وأقام على ذلك ثلاث سنين. ولكنه لما أعرض عن ابن باديس وأمن جانبه فإنه نكّل بأهل السُنَّة، ومنع نشر مذهب الإمام مالك، وأبطل كل ما أمر به في دار العلم، وعاد إلى سياسته الأولى في الإقتصار على بث مبادئ المذهب الفاطمي، فقتل الفقيه أبا بكر الإنطاكي والشيخ الآخر، وخلقاً كثيراً من أهل السُنَّة[112] فعل ذلك كلّه في يومٍ واحد، وغلق دار العلم ومنع من جميع ما فعله، وعاد إلى ما كان عليه من قبل.

ولما وجد حزب الخليفة – وهم المُستعلية – أنَّ دُعاة المذهب النزاري في دار الحكمة في أزدياد، وأنَّ حركتهم لاقت نجاحاً كبيراً، وأنَّ الدعوة صارت عليهم لا لهم، خشي المُستعلية عاقبة الأمر، فبادروا إلى غلق دار الحكمة، وتعطيل مجالسها العلمية – كما قدمنا – ولم يسمحوا بفتحها إلا بعد أن هدأت الأحوال وكفَّ الناس عن الجدل في هذا – وهكذا نجد أنَّ الصبغة السياسية في

دار الحكمة فوق كل أعتبار، فهي مركز سياسي تدعو إلى تثبيت دعائم المذهب الإسماعيلي - المُستعلية منهم - ولكنها كانت تسير تحت ستارٍ من العلم والحكمة.

هذه الصبغة السياسية لا نجدها في بيت الحكمة ببغداد، فهي مؤسسة ثقافية عالية، تهدف إلى نشر الحكمة والعلم والأدب، نجد فيها الشعوبي يجادل العربي، ويؤلّف الكتب في ثلب العرب، وتفضيل العجم عليهم، والعرب هم الذين منهم الخليفة مؤسس الدار وحامي العلم والدين.

ونجد فيه النصارى بجانب المسلمين يتولُّون أمور الدار، ويقومون بالإشراف على الترجمة والتأليف فيه، يشاركهم بهذا الصابئة والمجوس واليهود وغيرهم، ومنزلتهم العلمية والإجتماعية عند المسلمين، لا تقل عن منزلة المسلمين العلمية الخالصة - الخالية من كل تعصب ديني أو مذهبي أو عنصري - فالروح العلمية هي السائدة في الدار، وحرية الكلام والمعتقدات مطلقة، وتحكيم العقل والمنطق فوق كل أعتبار.


الدولة الفاطمية
والدول الشيعية في القرن العاشر للميلاد
الصقالبة
البيزنطيون
الحمدانيون
البويهيون
البحر الرومي
الفاطميون
القرامطة
الرستميون
بحر
القلزم

دار الحكمة في طرابلس

آل عمار من الأسر العلمية التي كانت بطرابلس الشام، وكانوا على أتصالٍ بالفاطميين الذين أخضعوا طرابلس لحكمهم، وأتخذوها مركزاً لنشر دعوتهم. وقام من آل عمار عدّة قضاة تولّوا قضاء طرابلس، وكانوا على جانبٍ من العلم والأدب ومكارم الأخلاق[113].

أخذت هذه الأسرة تطمح إلى الأستقلال في بعض مدن الساحل، خاصةً بعدما شاهد أضطراب الحالة في سورية ومصر. فقد ثار بالقاهرة ابن حمدان – مع الجيش – على الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (427 – 487هـ/ 1035 – 1094م)، وأستولى الصليبيون على بعض مدن سوريا، وهم جادون بتوسيع نفوذهم فيها، وكانت بعض المدن تخضع أسمياً للخليفة العباسي، يدير شؤون كل منها أمير أو ملك قد أستأثر بالحكم فيها.

وأول من أستقل منهم هو القاضي أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، أستبد بأمور المدينة، وقطع صلته مع الفاطميين، وصار يحكمها ويتولّى سائر أمورها حتى سنة (464هـ/ 1071م) حيث قضى نحبه.

وملك بعده ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي بن مُحمّد بن عمار فإستولى على جبلة، وحاول بدر الجمالي سنة (483هـ/ 1090م) أن يستولي على طرابلس، فلم يتمكن لحصانة المدينة، ودفاع أهلها المجيد عنها.

وأشتهرت طرابلس – على عهدهم – بدار العلم الكبيرة التي كانت فيها، والذي نراه: أنَّ الفاطميين هم الذين ساعدوا على تأسيسها. وأتخذوها مركزاً قوياً لنشر المذهب الفاطمي في سوريا، وكان الذي يرعاها وينفق عليها هم آل عمار الذين كانوا من علماء الشيعة ويرون رأي الفاطميين.

وأن آل عمار بعد أن تمكنوا في البلد وآنسوا بقوتهم، ومناعة مدينتهم، وأنشغال الفاطميين في الأضطرابات الداخلية، أنفصلوا عن الدولة الفاطمية، وأسسوا لهم دولة مستقلة، ولكنهم بقوا على مذهبهم الشيعي، وكانوا يؤيدونه وينشرون دعوته. ولما حاول الصليبيون الإستيلاء على طرابلس، لجأ آل عمار إلى السلاجقة والخلفاء العباسيين، وطلبوا المساعدة منهم، ولم يستعينوا بالفاطميين، خوفاً على أستقلالهم الإداري.

أمَّا أخبار دار العلم فهي قليلة في كتب التاريخ وتتلخص: أنَّ الذي كان يرعى الدار المذكورة هم آل عمار، وهم رجال سياسة وعلم، كانوا قضاة طرابلس، وصاروا ملوكها، وأنهم كانوا يصرفون على الدار بسخاء. فأضافوا إليها آلاف الكتب المختلفة من علمية وفلسفية وأدبية وفقهية وغير ذلك. وشجعوا المؤلفين وأنفقوا على النسَّاخين الذين كانوا ينسخون الكتب المختلفة فيها. فقد كان يعمل بها مائة وثمانون نسَّاخاً ينسخون الكتب بالجراية والنفقة عليهم جارية، والصيانة لهم مشتملة.

ونستدل مما ذكره (ابن الفرات) في تاريخه: أنَّ أول من تولأها منهم هو أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار المتوفى سنة (464هـ/ 1071م) قال عنه: وكان ابن عمار رجلاً عاقلاً فقيهاً، سديد الرأي، وكان شيعياً من فقهائهم، وكانت لهم دار علم في طرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً، وهو الذي صنَّف (ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح).

وفي سنة (472هـ/ 1079م) وسَّع الدار وجددها جلال الملك أبو الحسن علي بن مُحمَّد بن عمار، وأضاف إليها كتباً كثيرة.

وكان بنو عمار لا يعهدون بأمر الدار إلا لأجلّ العلماء في الفقه والعلم، ممن يُناصر مذهبهم. وممن تولأها الحسين بن بشير بن علي بن بشير الطرابلسي، المعروف بالقاضي، قال عنه الذهبي: ذكره ابن أبي طي من رجال الشيعة. وقال: كان صاحب دار العلم بطرابلس، وله خطب يُضاهي خطب ابن نباتة، وله مناظرة مع الخطيب البغدادي، ذكرها الكراجكي في رحلته، وحكم له على الخطيب بالتقدم في العلم.

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه: أنَّ الدار كانت دار دعوة للفاطميين الذين كانوا يسعون في نشر مذهبهم في بلاد سورية، وقد نجحوا في ذلك بعض النجاح، فإنَّ مبادئ الفاطميين تسربت فيها، وتعدتها إلى بلاد الجزيرة وبغداد، وخُطب للخليفة الفاطمي في كثير من بلاد العباسيين، كما حدث هذا بسورية والموصل، وفي بغداد نفسها، كان هذا بتأثير الدعوة الفاطمية القوية التي نظموها ونشروها في طول البلاد الإسلامية وعرضها، فكان لهم مراكز للدعوة في سورية وبلاد الجزيرة والعراق، ومن أقوى المراكز التي كانت في سورية هي دار الحكمة التي تولاها آل عمار، وأمدوها بعلمهم ومالهم، فصارت من المعاهد الإسلامية المعدودة في العالم الإسلامي.

كانت الدار تحوي كتباً كثيرة في شتَّى العلوم والمعارف والآداب، وقد مرّ بنا أنه كان بها أول تأسيسها مائة ألف كتاب، وما زالت الكتب في زيادة مما يجمعه آل عمار، وما يكتبه النسَّاخون، ويؤلِّفه العلماء، حتى تضاعف عدد الكتب فيها.

قصدها العلماء من مختلف أنحاء الشام للإستفادةِ من كتبها وعلمائها، وممن زارها فيلسوف المعرّة – أبو العلاء المعرّي – الشاعر المشهور.

وصلتنا روايات متضاربة عن عدد كتبها، وهي على أختلافها تدل على كثرتها، وإنها كانت من معاهد العلم الكبيرة في الإسلام، خدمت العلم والفقه والأدب والحكمة أجلّ خدمة حتى دمرها الصليبيون سنة 553هـ/ 1109م.

قال ابن الأثير عند كلامه عن هجوم الصليبيين على طرابلس: فهجموا على البلد وملكوه عنوة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها والأطفال، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دار العلم ما لا يُحدُّ ولا يُحصى.

يؤيد هذا ما ذكره ابن خلكان فقال: وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائر دار كتب علمها، وما كان في خزائن أربابها ما لا يُحدُّ ولا يُحصى.

فهم مجمعون على أنَّ تدميرها كان على أيدي الصليبيين، وأن ما أتلفوه من كتبها كان عدداً كبيراً، ونقل جرجي زيدان عن جبون **Gibbon** أنَّ عدد الكتب التي أحرقها الصليبيون في دار العلم كانت ثلاثة ملايين.

وقال البستاني عند كلامه عن طرابلس: وكانت المدينة – على ما أثر المؤرخون – عامرةً بالزراعة والصناعة، حتى أنهم رووا أنه كان فيها نحو من أربعة آلاف نول للنسيج، ناهيك بما كانت تحوي من نتائج العقول، إذ كان فيها مكتبة شهيرة، أختلف الرواة في عدد كتبها بين مُقلٍ ومُكثر، فالذي أقل لم ينقص عن مائة ألف مُجلَّد، والمكثر تجاوز الملايين الثلاثة عداً. قيل وكانت من كتب اليونان والرومان والفرس والعرب.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ دار العلم المذكورة كانت من الدور الجليلة، عامرة بكتبها الكثيرة المتنوعة في شتَّى المواضيع والعلوم: من علميةٍ وفلسفية وفقهية وأدبية بلغاتٍ متعددة.

ويذكر ابن الفرات عند كلامه عنها، وإهتمام آل عمار بنشر العلم في طرابلس (أنَّ طرابلس في زمن آل عمار صارت جميعها دار علم).

ومن المؤسف أن يكون نصيب هذه الكتب الجليلة، كنصيب كثير من كتب دور العلم في الإسلام، التي أُحرقت أو أُتلفت أو لعبت بها أيدي الجُهَّال، وأصحاب الأهواء، كما حدث هذا في الشرق على أيدي التتر، وفي الأندلس على أيدي الإسبان.

فكان مصير هذه الكتب على أيدي قومٍ جُهّال، أعملوا فيها النهب والتدمير والحرق، وتركوها كومة رماد، كما أعملوا السيف في رقاب أهل طرابلس، فلم ينجُ منهم إلا من رحم الله.

دار الحكمة في مراغة

نصير الدين الطوسي أحد الأعلام الذين نبغوا في القرن السابع الهجري ولد بمدينة طوس سنة (597هـ/ 1201م) وتلقى علوم الحكمة والفلسفة على علامة زمانه كمال الدين بن يونس الموصلّي.

كان نصير الدين يتنقل بين بغداد وقُهستان، ويأخذ عن العلماء، ثم أتصل بالإسماعيلية فقرّبه رئيسهم صاحب قلعة (آلموت) وعاش في أكتافهم زمناً، وألّف عندهم معظم كتبه، وأتصل بهولاكو، فأعجب به وأصطحبه معه في حلّه وترحاله، وكان هولاكو يطيعه فيما يُشير به عليه، فأنقذ جماعةً من العلماء والحكماء والفلاسفة والمُنجّمين من القتل، وشفع لهم عند هولاكو. فعفا عنهم، وأصطحبهم نصير الدين معه.

أسس نصير الدين بمدينة (مراغة) دار حكمة. جمع فيها كتباً مختلفة من بلاد العراق والجزيرة والشام، وذلك بعد أن أستولى عليها (هولاكو) فنقل منها أربعمائة ألف مُجلّد، في شتّى العلوم والفنون والمعارف، خاصةً في علوم الحكمة والفلسفة والمنطق والهندسة والهيئة والنجوم.

وفي سنة (662هـ/ 1273م) قَدِمَ نصير الدين إلى بغداد من جهة هولاكو، فنظر في الأوقاف، وأحوال البلد، وأخذ كتباً كثيرة من سائر مدارسها، ونقلها إلى رصده الذي بناه في مراغة.

ورتب في دار الحكمة من الحكماء والفلاسفة والأطباء والمتكلمين والمُحدّثين والفقهاء، وجعل كتب الحكمة والفلسفة والرياضيات في قبّةٍ كبيرة، ورتب لمن يشتغل فيها من الجراية ما يكفيهم، فلكل واحدٍ منهم ثلاثة دراهم في اليوم، وجعل بها دار طب، ورتب للطبيب فيها درهما في اليوم، وبها

مدرسة للفقه، لكل فقيهٍ في اليوم درهم واحد، وبها دار حديث، لكل مُحدّث نصف درهم في اليوم.

وفي شهر جمادي الأولى من سنة (657هـ/ 1268م) شيّد بجانب دار الحكمة مرصداً، عُرف هذا المرصد بآلاته الدقيقة، وبالعلماء الذين كانوا يشتغلون فيه، جمع نصير الدين من أنقذهم من فتك هولاكو، وجاء بهم إلى دار الحكمة في مراغة منهم: ركن الدين الاستراباذي وفخر الدين المراغي من الموصل، والفخر الخلاطي من بتليس، وعز الدين بن الفوطي من بغداد، وقطب الدين الشيرازي، ونجم الدين الإسطرلابي، وظهير الدين الشرواني، وحسام الدين الشامي. ويشتغل معهم في المرصد: صدر الدين علي بن الخواجة نصير الدين، وأصيل الدين حسن بن الخواجة نصير الدين. وكان في الرصد من مختلف الآلات شيئاً كثيراً، منها:

ذات الحلق: وهي خمس دوائر متخذة من نحاس، الأولى دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل.

وفي الرصد أيضاً قبة الدائرة الشمسية يُعرف بها سمت الكواكب، وإسطرلاب تكون سعة قطره ذراعاً، وإسطرلابات كثيرة، وكتب تبحث عن هذه الآلات وكيفية أستعمالها.

وأنَّ نصير الدين أخذ من هولاكو لعمارة الرصد مبلغاً كبيراً، وأقل ما كان يأخذه بعد فراغ الرصد لأجل الآلات وإصلاحها عشرين ألف دينار في السنة.

كانت الدار جامعة واسعة، يُدرّس فيها أشهر العلماء والحكماء والفلاسفة والمُنجّمون والفلكيون والفقهاء والمُحدّثون، ولكن كان أهتمامه بعلوم الحكمة والهيئة والفلك أكثر من غيرها، كما يتضح لنا من المرتبات التي عينها للمشتغلين بها.

كان هولاكو قد فوّض إلى الطوسي إدارة الأوقاف في جميع البلاد التي أستولى عليها، فعيّن نواباً عنه في البلاد، يتولّون إدارة الأوقاف، ويُرسلون عُشر وارداتها إليه، فكان يصرفه على دار الحكمة والرصد[114].

توفي نصير الدين الطوسي سنة (672هـ/ 1273م) وله تصانيف كثيرة في النجوم والهيئة والمنطق والطبيعة والإلهيات، منها كتاب (أخلاق فارس) يذكر ابن العبري عنه أنه في غاية ما يكون من الحُسن، جمع فيه نصوص أفلاطون وأرسطو في الحكمة العملية.

الباب الثاني

خزائن الحكمة

خزانة الحكمة ـ للفتح بن خاقان

هو الفتح بن خاقان بن أحمد (غرطوج) التركي، وزير الخليفة المتوكل على الله العباسي (232 – 247هـ/ 846 – 861م) كان في نهاية الذكاء والفِطنَة، وحُسن الأدب، زكي النفس، حسن العِشرة، في غاية الجود والكرم، اتخذه المتوكل أخاً، وكان يُقدّمه على أهله وأولاده.

كان فصيحاً شاعراً مولعاً بالعلم والأدب والفلسفة والطب والنجوم، وكانت داره مجمع أهل الفضل والأدب، يعقد فيها المجالس العلمية، والمناظرات الأدبية، ويُشارك القوم في علومهم ومعارفهم، وله مواقف دقيقة معهم، تدل على منزلته السامية في العلوم، وتفوقه في الكثير منها.

وله شعرٌ رقيق، ذكر ياقوت منه نخبة تدل على شعوره المرهف، وبراعته في اللغة، وجودة النظم، كقوله:

أيها العاشق المعذب صبراً	فخطايا أخي الهوى مغفورة
زفرة في الهوى أحط لذنب	من غزاة وحجة مبرورة

وهو أحد الثلاثة الذين عُرفوا بحبهم الشديد للكتب وكثرة المطالعة: الجاحظ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، والفتح بن خاقان.

يذكر عنه المؤرخون: أنه قلَّما كان يُفارق الكتاب، حتى في مجلس الخليفة المتوكل، فكان يُخفي الكتاب في كُمّه أو جيبه إذا حضر، فإذا قام الخليفة لحاجةٍ أخرج الفتح الكتاب من كُمّه وقرأه، إلى عودة الخليفة.

كان جمّاعاً للكتب أنفق المبالغ الكبيرة على التراجمة والمؤلّفين والنسّاخين، فاجتمع عنده نخبة ممتازة من شتَّى الكتب المختلفة.

وكان الذي يُشرف على كتبه ويختارها له: أبو الحسن علي بن يحيى المُنجّم، أحد علماء عصره، ذكر ياقوت: أنَّ علياً جمع للفتح (خزانة حكمة)، نقل إليها من كتبه، ومما أستكتبه الفتح أكثر ما أشتملت عليه خزانة حكمة قط[115].

ويذكر ابن النديم: أنه لم يرَ أعظم منها كثرةً وحسناً، لما تحويه من الكتب النفيسة في العلوم والآداب، فتجد فيها كتب الفلسفة والطب والمنطق والرياضيات والنجوم والسيَر والتاريخ والآداب وغيرها.

ولا شك أنَّ الخزانة كانت تحوي كتب الفتح بن خاقان، وهي: كتاب البستان، وكتاب أخلاق الملوك، وكتاب الصيد والجوارح، وكتاب الروضة والزهر. كما كانت تحوي الكتب التي أُلّفت له مثل: كتاب التاج في أخلاق الملوك، وكتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة، وكلاهما للجاحظ. أُلّفهما للفتح، وأخبار الملوك – لُمحمّد بن الحرث الثعلبي، وكتاب القبائل الكبيرة والأيام، جمعهُ للفتح بن خاقان مُحمّد بن حبيب أبو جعفر، وكتب المفضل بن سلمة بن عاصم أبي طالب النحوي اللغوي، فإنه كان منقطعاً إلى الفتح بن خاقان، وله كتب كثيرة.

لم نقف على مصير هذه الخزانة الثمينة بعد مقتل الفتح مع المتوكل سنة (247هـ/ 861م) لأن أخبارها تنقطع عنا.

خزانة الحكمة لآل المُنجّم في كركر

آل المُنجّم من الأسر الفارسية العريقة بالعلم، أول من أسلم منهم يحيى بن أبي منصور، كان متصلاً بالفضل بن سهل، ووصله هذا بالخليفة المأمون

فرغّبه بالإسلام وأسلم على يده، وأختص به المأمون، وكان من مُنجّميه الذين يُعوّل عليهم في الرصد، وعهد إليه مع جماعة من المُنجّمين أن يقوموا برصد الكواكب في الرصد الذي كان في الشمّاسية ببغداد، والرصد في جبل قاسيون بدمشق، وذلك في سنة (215 – 217هـ/ 830 – 832م).

ثم سافر إلى بلاد الروم لتحصيل كتب الحكمة، فتوفي بطرسوس، ونُقل إلى حلب ودُفن بمقابر قريش، وأنجب أولاداً كانوا علماء أعلام.

كان أشهرهم (أبو الحسن علي) على جانبٍ من العلم والأدب، راوية للأخبار والأشعار، شاعراً حسناً، أخذ عن إسحاق الموصلّي الأدب وصنعة الغناء.

أتصل بمُحمَّد بن إسحاق بن إبراهيم المصعبي، ثم أتصل بالفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسي، وقد مرّ بنا أنه عمل له خزانة حكمة كبيرة كانت من الخزانات المعدودة في العصر العباسي.

ثم أتصل بالخليفة المتوكل، وصار من ندمائه المتقدمين عنده، وبقي مختصاً بالخلفاء، يُجالسهم ويُنادمهم ويغنيهم، إلى أيام المعتمد على الله.

وبلغ من المنزلة عندهم أنه كان يجلس بين يدي أسرتهم، ويقصون عليه بأسرارهم، ويأمنونه على أخبارهم، ولم يزل على هذا حتى توفي سنة (275هـ/ 888م) ودُفن بسرَّ من رأى ورثاه أجلّ شعراء عصره: مثل عبد الله بن المعتز، وعُبيد الله بن عبد الله بن طاهر وغيرهما[116].

كان شاعراً راوية إخبارياً علامة بأيام العرب وأخبارها، وله مؤلَّفات بهذا الباب، مثل: كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين، وكتاب إسحق بن إبراهيم، وكتاب الطبيخ وغيرها.

كان هو وأخوته من الذين يُعنون بكتب الحكمة والفلسفة والمنطق والموسيقى، ولهم جماعة من التراجمة يشتغلون بترجمة الكتب التي يرغبون فيها، منهم: حُنين بن إسحاق، وإصطفين الراهب، وإسحاق بن حُنين، وثابت بن قُرّة بن مروان الحرّاني الصابي وغيرهم. ونُقلت عدّة كتب بأسم أبي الحسن علي، فنقل له إصطفين الراهب هو وإسحاق بن حُنين كتاب المقاييس لجالينوس، وألّف له ثابت بن قُرّة بن مروان الحرّاني الصابي كتاباً في علم الموسيقى، وعمل له حُنين فهرست كتاب جالينوس وغيرها من الكتب.

فكانت داره مجمعاً لأهل العلم والآداب، وكان هو يُقرّبهم إلى الخلفاء والأمراء، ويستخرج لهم منهم الصلات.

وأنجبت أسرة علمية يقول عنهم الآمدي: "وهو وأهله وولده وأولادهم، في البيت الخطير من الدين والأدب والشعر والفضل، ولا أعلم بيتاً أتصل فيه إلى هذه الأنواع الشريفة ما أتصل لهم وفيهم".

ويقول التنوخي عند كلامه عن أحد أحفاده أبي العباس هبة الله بن مُحمَّد بن يوسف: "ومحل أهله وسلفه وبيته في منادمة الخلفاء والوزراء والأمراء مشهور، وموضعهم من الكلام والنجوم والعلم والأدب وقول الشعر وتصنيف الكتب في أنواع ذلك معروف".

وأراد أبو الحسن على أن يُخلّد ذكره، وذكر آل المُنجّم بدار كتب جليلة. تجمع صنوف كتب الحكمة والفلسفة والمنطق والنجوم والموسيقى والآداب

والتاريخ وغيرها من العلوم، تكون مرجعاً لمن يقصدها من الناس على أختلاف طبقاتهم، وجعل بها من التسهيلات التي تُساعد على المطالعة والنسخ والدرس، تُقدَّم لهم الكتب، ويُبذل لهم ما يحتاجونه من أدوات الكتابة ولوازمها، وما يلزمهم من طعامٍ ومسكن، ما داموا بدار الكتب المذكورة، فكان يرتادها العلماء والأدباء وطلاب العلم، فيجدون ما يساعدهم على التحصيل.

قال ياقوت الحموي: كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المُنجّم، وقصر جليل، فيه خزانة كتب عظيمة، يُسمّيها (خزانة الحكمة) يقصدها الناس من كل بلدٍ فيُقيمون فيها، ويتعلّمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة في ذلك لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى، فقدم أبو جعفر المُنجّم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يُحسن كبير شيء من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى وراءها فهاله أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم، وأعرق فيه حتى الحد. وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين وبالإسلام أيضاً.

لم نقف على مصير هذه الخزانة النفيسة التي حوت كتباً نادرة في شتَّى العلوم والآداب، وحوت مؤلفات آل المُنجّم، والكتب التي تُرجمت لهم وأُلّفت بإسمهم.

ونحن نُرجِّح أنَّ الخزانة بقيت على حالها بعد موت أبي الحسن علي، لأن أولاده وأحفاده ساروا على نهجه، من محبة العلوم والآداب، فلا شك أنَّ الخزانة لاقت من عنايتهم ما لاقته من مؤسسها علي.

صوان الحكمة في بُخارى

منصور بن نوح بن نصر الساماني (350 – 366هـ/ 961 – 977م) من أمراء الدولة السامانية التي قامت في ما وراء النهر، وعاصمتها مدينة بُخارى. كانت الدولة السامانية تُعنى بالعلم والعمران، وأزدهرت بُخارى على عهدهم، وصارت من المدن التي تُشدُّ إليها الرحال.

شيّد السامانيون فيها دار كتب كبيرة سمّوها (صوان الحكمة) لما تحويه من كتب الحكمة المختلفة، يقصدها العلماء والحكماء والأدباء للمطالعة فيها والأخذ عن العلماء والحكماء المتصدرين فيها، والدار واسعة فيها عدّة قاعات، في كلٍ منها صناديق فيها كتب علمٍ واحد، فغرفةٌ للشعر وأخرى للحكمة وثالثة للفلسفة الخ...

وخير من وصف هذه الدار هو العلاّمة ابن سينا عند كلامه عن اتصاله بسلطان بُخارى نوح بن منصور فقال: فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم، ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي، فدخلت داراً ذات بيوتٍ كثيرة، في كل بيت صناديق كتب، منفصلة بعضها على بعض، في بيت كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيتٍ علم مفرد، وطالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه، ورأيت من الكتب ما لا يقع إلى كثير من الناس قط، ولا رأيته أيضاً من بعد. وقرأت تلك الكتب، وظهرت فوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه، فلمّا بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها[117].

وكان الملوك السامانيون يبذلون الرغائب للعلماء والفلاسفة الذين كانوا يغذون المكتبة المذكورة بالمؤلفات العلمية والفلسفية المختلفة، فحوت فرائد من علوم الحكمة والفلسفة والطب والفلك والرياضيات، فضلاً عمّا كان فيها من كتب الأدب والفقه والسيَر والتاريخ وغيرها.

ومن الكتب الفريدة التي كانت تحويه هذه الخزانة كتب أرسطو، فقد حرص منصور بن نوح الساماني أن يحصل على ترجمة فريدة من كتبه، وعهد بالأمر إلى الفارابي الفيلسوف المشهور، فجمع الفارابي من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة، مطابقة لما عليه الحكمة، ونقل كما أراد وسمّى كتابه (بالتعليم الثاني) فلذلك لُقّب بالمُعلّم الثاني. وكان هذا في خزانة المنصور إلى زمان السلطان مسعود من أحفاد المنصور. كما هو مسوّد بخط الفارابي غير مخرج إلى البياض. وكان الفارابي غير متلفت إلى جمع تصانيفه، وكانت تلك الخزانة تُسمّى (صوان الحكمة)[118].

والشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا تقرّب إلى المنصور بسبب الطب، حتى أستوزره، وسلّم إليه خزانة الكتب، فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب، وأستفاد منها أستفادة كبيرة بإطلاعه على مختلف الكتب التي فيها، خاصة الطبية والفلسفية.

ومن الكتب التي أستعان فيها في دراسته: كتاب التعليم الثاني، فإنه عكف على دراسته بكل جدٌ وإمعان، ولخّص منه كتاب الشفاء، وأن ابن سينا يعترف بإستفادته من هذه الكتب ومن التعليم الثاني خاصةً.

وكانت نهاية هذه الخزانة محزنة، فإنها أحترقت ولا يُعلم سبب أحتراقها. ونسب بعضهم هذا إلى أبي علي ابن سينا بأنه أخذ من تلك الخزانة الحكمة،

وألّف منها مصنفاته ثم أحرقها لئلا ينتشر بين الناس بأنه أخذ الحكمة من كتب الفارابي وغيره. وهذا أفتراء على ابن سينا لأنه صرّح في رسائله وفي الشفاء بأنّ كتابه عبارة عن تلخيص التعليم الثاني للفارابي[119].

الباب الثالث

دُور العِلم

دار علم جعفر بن حمدان في الموصل

أبو القاسم جعفر بن حمدان الموصلّي (240 – 323هـ/ 854 – 934م) أحد فقهاء الشافعية، وله تآليف جليلة في الفقه، كما كان مضطلعاً بعلومٍ كثيرة: في الأصول والحكمة والهندسة والشعر والأدب، ناقداً بصيراً للشعر، كثير الرواية له. كان صديقاً علماء عصره وشعرائهم، وله مراسلات معهم كثعلب والمبرِّد والبُحتري الشاعر، ورثاه بعد موته بقصيدةٍ منها قوله:

تعوَّلت البدائع والقصيد	وأودى الشعر مذ أودى الوليد
وأظلم جانب الدنيا وعادت	وجوه المكرمات وهنَّ سود
فقل للدهر يجهد في الرزايا	فليس وراء فجعته مزيد

دخل بغداد ومدح الخليفة المعتضد بالله العباسي بقصيدةٍ طويلة، ذكر فيها ما يُحسنه من العلوم الدينية والأدبية، وتبجّح بمعرفة إقليدس وأشكاله، وزيادات زادها في أعماله، وأتصل بالوزير قاسم بن عُبيد الله، وله تآليف كثيرة في الأدب، فريدة في بابها.

قال عنه ياقوت: حسن التأليف، عجيب التصنيف، شاعر أديب فاضل ناقد للشعر. ومن تآليفه: الباهر في أشعار المُحدثين، عارض فيه كتاب الروضة لصديقه المُبرِّد، وكتاب الشعر والشعراء الكبير، لم يتم ولو تمّ لكان غاية في معناه، وكتاب السرقات لم يتم أيضاً، ولو أتمه لإستغنى الناس عن كل كتاب في معناه، وكتاب محاسن أشعار المحدثين، وغيرها.

وأشتهر ابن حمدان بدار العلم التي أسسها في الموصل، وهي أقدم دار علم – في الإسلام – وقفنا على أخبارها. كانت الدار تُفتح كل يوم لطلاب العلم والأدب والفقه، فيجدون فيها الكتب المختلفة، وأدوات الكتابة ولوازمها، وإن كانوا مُعسرين فإنه كان يُنفق عليهم من ماله.

قال ياقوت: كان ابن حمدان كبير المحل من أهل الرياسات بالموصل، ولم يكن بها في وقته من ينظر إليه، ويفضل في العلوم سواه، متقدماً في الفقه، معروفاً به، قوياً في النحو فيما يكتبه، عارفاً بالكلام والجدل مبرزاً فيه، حافظاً لكتب اللغة راوية للأخبار، بصيراً بالنجوم، عالماً مطلعاً على علوم الأوائل، عالي الطبقة فيها، وكان صديقاً لكل وزراء عصره، مدّاحاً لهم، آنساً بالمُبرّد وثعلب وأمثالهما من علماء الوقت، مفضلاً عندهم. وكانت له ببلده (دار علم) قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفاً على طالبٍ للعلم، لا يمنع أحد من دخولها، إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان مُعسراً أعطاه ورقاً وورقاً، تفتح في كل يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس، فيُملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطرفاً من الفقه وما يتعلق به، ثم يُملي من حفظه من الحكايات المستطابة.

لا نعلم ما آلت إليه الدار المذكورة بعد نكبة ابن حمدان، فإنَّ جماعةً من أهل الموصل حسدوه على محله وجاهه عند الخلفاء والوزراء والعلماء، وكان قد جحد بعض أولاده، وزعم أنه ليس منهم، فعاندوه بسببه، وزعموا أنه نفاه ظلماً، واجتهدوا أن يُلحقوه به فما تمّ لهم، فاجتمعوا وكتبوا فيه محضراً وشهدوا عليه فيه بكل قبيح عظيم ونفوه عن الموصل، فإنحدر هارباً منهم إلى مدينة

السلام، ومدح المعتضد بقصيدةٍ يشكو فيها ما ناله منهم، ويصف ما يُحسنه من العلوم، ويستشهد بثعلب والمُبرّد وغيرهما.

وبعد هذا الحدث تنقطع عنا أخبار الدار التي خدمت الموصل، ويسَّرت لأهلها سُبُل العلم والأدب[120].

دار علم البُستي

أبو حاتم مُحمَّد بن حبَّان بن أحمد بن معاذ التميمي البُستي. الحافظ الجليل، كان من فقهاء الدين واللغة، وحفّاظ الآثار، عالماً بالطب والنجوم وفنون العلم، وله التآليف الجليلة. منها المسند والتاريخ. وفقّه الناس بسمرقند. وكان من أوعية العلم ومن عقلاء الرجال، سافر ما بين الشاش والإسكندرية، وأخذ عن كثير من شيوخ الأئمة والعلماء، تولّى قضاء سمرقند مدة طويلة. ورد نيسابور سنة (334هـ/ 945م) وكانت الرحلة إليه والى مصنفاته في خراسان. ثم عاد إلى بلده وبنى بقرب داره مدرسة لأصحابه، ومسكناً للغرباء الذين يُقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، ولهم جرايات يستنفقونها داره، وفيها خزانة كتبه، في يدي وصي سلّمها إليه، ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة، من غير أن يُخرجه منها، توفي سنة (354هـ/ 965م) ودُفن بداره قرب مدرسته هذه، وكان قبره يُزار بعد موته.

كانت الدار مفتوحة لكلٍّ قاصد، فإن كان غريباً أقام بها، وتجري عليه النفقة مما أرصد على الدار، والكتب في متناول كل أحد، من غير أن يُخرجها من الدار.

بقيت الدار إلى أوائل القرن الخامس للهجرة – على ما عثرنا عليه – قال ياقوت نقلاً عن أبي عبد الله الحاكم (321 – 405هـ/ 933 – 1014م). أنها اليوم مدرسة لأصحابه، ومسكن للغرباء الذين يُقيمون بها من أهل الحديث والفقه.....الخ[121].

دار علم سابور ـ في بغداد

أسسها أبو نصر سابور بن أردشير (336 – 416هـ/ 947 – 1025م) وهو أحد وزراء الإمارة البويهية في بغداد، وزر لبهاء الدولة ثلاث مرات، ووزر لشرف الدولة أيضاً، كان يُحب الخير عفيفاً عن أموال الناس، يُحب العلم وأهله، قرّب العلماء والشعراء وأهل الفضل، وخلّد ذكره في دار علمٍ أنشأها ببغداد بين السورين بجانب الكرخ.

ففي سنة (383هـ/ 991م) أبتاع داراً كبيرة في الكرخ بين السورين، وعمَّرها وبيَّضها، وسمَّاها (دار العلم) ووقفها على أهله الذين ينتفعون بها، ونقل إليها كتباً كثيرة، أبتاعها وجمعها، ووقف عليها الوقوف التي تكفل الإنفاق عليها، وعلى من يقوم بنظارتها، وخُزّان الكتب والبوابين وغيرهم.

كانت الدار تحوي آلاف الكتب بالخطوط المنسوبة. فذكروا أنَّ عدد كتبها يزيد على عشرة آلاف مُجلَّد، في شتَّى العلوم والمعارف: فنجد فيها كتب الأدب والفقه والحديث والطب والفلسفة وغيرها.

ومما يدلنا على أهميتها العلمية، أنَّ بعض المؤلِّفين كانوا يُخلِّدون ذكرهم بتقديم نسخة مما يؤلفونه من الكتب القيِّمة، إلى دار العلم، ليكون مرجعاً

للعلماء والمتعلمين الذين يرتادونها للدرس والمطالعة والنسخ، والى ما يجري فيها من المناظرات العلمية والمُساجلات الأدبية.

ومن ذلك: أنَّ جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع (المتوفي سنة 396هـ/ 1105م) بعد أن أتمّ كناشه الكبير في الطب – وهو في خمس مُجلّدات – وسمّاه (بالكافي) نسبةً إلى كافي الكُفاة الصاحب بن عبّاد، فإنه وقف نسخةً منه على دار العلم المذكورة[122].

وأحمد بن علي بن خيران الكاتب المصري أبو مُحمّد المُلقب بولي الدولة، صاحب ديوان الإنشاء بمصر بعد أبيه تقلّد ديوان الإنشاء للظاهر ثم للمستنصر، وتوفي سنة (431هـ/ 1039م) فإنّه سلّم إلى أبي منصور الشيرازي – رسول ابن النجّار إلى مصر من بغداد –[123] جزأين من شعره، ورسائله ليعرضها على الشريف المرتضى أبي القاسم وغيره، ممن يأنس به من رؤساء البلد، ويستشير في تخليدها دار العلم، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها أرتضى وأستجيد.

وصار للدار شهرةً في العلم الإسلامي، لما تحويه من نفائس الكتب، ومن كان يتصدر بها من العلماء والأدباء، فكانت مجمع أهل العلم والأدب في بغداد، وهي مما حملت فيلسوف المعرّة أبي العلاء المعرّي أن يرحل إلى بغداد سنة 399هـ فإجتمع بعلمائها وأدبائها، وأجتمع إليهم وجادلهم وناظرهم، وتركت الدار أثراً في نفسه ذكرها عدّة مرات في رسالة الغفران وفي غيرها من مؤلفاته[124].

ومن ذلك أنه كتب إلى أهل المعرّة، يعرّفهم سبب رحلته إلى بغداد، جاء فيها: وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب، ولا أتكثر بلقاء الرجال، ولكن

آثرت الإقامة (بدار العلم)، فشاهدت أنفس مكان، ولم يُسعف الزمن الإقامة فيه..... الخ.

ومما يجدر ذكره أنَّ فيلسوف المعرَّة سمع حمامة تصيح بدار العلم فقال:[125]

وغنّت لنا في دار سابور قينة	من الورق مطراب إلا صائل ميهال
رأت زهراً غضاً فهاجت بمزهر	مثانيه أحشاء لطفن وأوصال
فقلت تغني كيف شئت فإنما	غناءك عندي يا حمامة أعوال
وتحسدك البيض الحوالي قلادة	بجيدك فيها من شذى المسك تمثال

وكان بعضهم يدرس فيها فيجتمع إليهم طلاب العلم يأخذون عنهم. جاء في معجم الأدباء عند كلامه عن علي بن فضّال المجاشعي المغربي المتوفى سنة (479هـ/ 1086م) وكان من علماء زمانه وله عدّة تآليف في علوم مختلفة وأنه كان يُدرِّس فيها النحو.

وأنَّ أبا القاسم بن نامية دخل عليه دار العلم فوجده يُدرِّس النحو في يومٍ بارد فقال[126]:

اليوم يوم قارس بارد	كإنَّه نحو ابن فضَّال
لا تقرؤا النحو ولا شعره	فيعتري الفالج في الحال

وكان يُعهد لإدارة هذه الدار إلى أجلّ العلماء والأدباء، وممن تولأَّها:

1. أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن أحمد البصري اللغوي المعروف بالواجكا المتوفي سنة (405هـ) كان عالماً أديباً قارئاً للقرآن عارفاً

بالقراءات وهو الذي أستقبل أبا العلاء المعرّي[127] في هذه الدار، وعرض عليه أسماء ما فيها من كتب، فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره بدور العلم بطرابلس سوى (ديوان تيم اللات)، فإستعاره منه، وخرج من بغداد سنة 400هـ، وأعاده إليه بعد أن وصل بلدته المعرَّة، وأثنى عليه المعرِّي عدَّة مرات.

2. أبو منصور مُحمَّد بن علي بن إسحاق بن يوسف الكاتب الخازن المتوفى سنة (418هـ) كان له معرفة بالأدب واللغة، وكان يتفقّه على مذهب الشيعة، وهو فقيه في مذهبهم ومفتيهم، وذكره المعرّي في رسالة الغفران على لسان جارية كانت تُخرج الكتب للنُسّاخ والمطالعين أسمها توفيق[128].

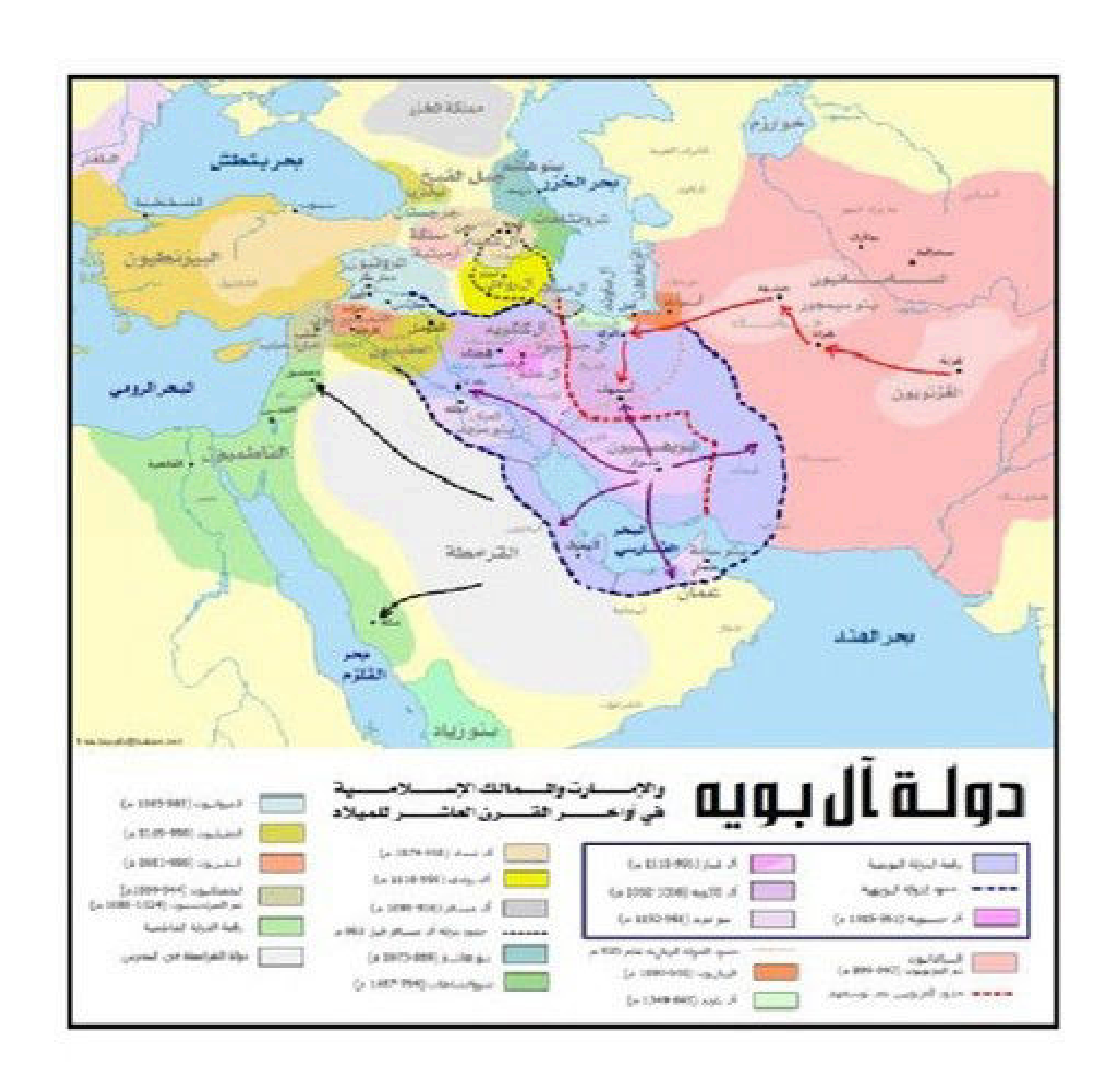
3. أبو عبد الله بن حمد، وكان يشتغل مع الخازن ويُشرف على خزانة الكتب.

4. الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسن الموسوي نقيب الطالبيين المتوفى سنة 436هـ - صاحب الأمالي – وهو من أجلّ كتب الأدب والتفسير[129].

5. أبو يوسف الإسفراييني كان خازن الكتب بها.

وأستمرت الحركة العلمية في الدار حتى سنة (451هـ/ 1059م) فإحترقت الدار، ذكر ابن الجوزي حادثة أحتراقها في حوادث السنة المذكورة فقال:

وفيها أحترقت ببغداد الكرخ وغيره بين السورين، وأحترقت فيها خزانة الكتب التي أوقفها سابور بن أردشير الوزير، ونُهبت بعض كتبها، وجاء عبد الملك الكندري وزير طغرلبك فإختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مُجلّد، وأربعمائة مُجلّد من أصناف العلوم منها مائة مُصحف بخط بني مُقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق، فأزالهم عبد الملك، وقعد يختارها، فنسب ذلك إلى سوء سيرته، وهكذا كانت نهاية الدار.



دار علم غرس النعمة الصابي

هو مُحمَّد بن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي، أبو الحسن الملقب بغرس النعمة، صاحب التاريخ المُسمّى (عيون التواريخ) ذيّله على تاريخ أبيه هلال المتوفى سنة 448هـ، وكان غرس النعمة هذا فاضلاً أديباً مترسلاً، وله صدقة ومعروف، محترماً عند الخلفاء والملوك والوزراء، توفي سنة 480هـ.

ومن محاسنه دار العلم التي أسسها ببغداد سنة (452هـ/ 1060م) قال عنها ابن الجوزي في حوادث هذه السنة: وفي رجب وقف غرس النعمة مُحمَّد بن هلال الصابي دار كتبٍ بشارع أبي عوف من غربي مدينة السلام، ونقل إليها نحو من ألف كتاب[130].

وكان السبب في هذا أنَّ الدار التي وقفها سابور الوزير – بين السورين – احترقت ونُهب أكثر ما فيها، فبعثه الخوف على ذهاب العلم أن وقف هذه الكتب.

وجاء في الهفوات النادرة لغرس النعمة أنه: رتّب عنده في خزن الكتب بدار العلم من شارع ابن أبي عوف – أبو طاهر بن أبي قيراط العلوي – فكان هذا يُشرف على خزن الكتب[131]. وممن تولّى بها خزن الكتب أبو مُحمَّد يحيى بن مُحمَّد الأقساسي العلوي، المتوفى سنة نيف وسبعين وأربعمائة، فتصرف هذا في كتبها، فحكّ ذكر الوقف منها وباعها[132].

دار علم ابن المارستانية

أبو بكر عبيد الله بن علي التيميّ البكري، المعروف بابن المارستانية المتوفي سنة (599هـ/ 1202م) كان أبوه وأمه يخدمان المرضى بالمارستان العضدي،

الذي أسسه عضد الدولة البويهي، على دجلة ببغداد. فنشأ عبيد الله نشأة علمية، فكان يعرف الطب والحكمة وعلم النجوم، وله حلقة بجامع القصر في كل يوم جمعة، يُقرئ فيها الحديث، ويجتمع إليه الناس فيأخذون عنه. وكانت بينه وبين عبيد الله بن يونس صداقة فلما وزر هذا أختص به وقرّبه.

كان ابن المارستانية مغرماً بجمع الكتب، فحصّل كتباً كثيرة، وبنى داراً بدرب الشاكرية ببغداد، سمّاها (دار العلم) وجعل فيها خزانة علم، أوقفها على طلاب العلم، وبها كتب كثيرة منوعة، منها كتابه الذي ألّفه في تاريخ بغداد وسمّاه (ديوان السلام في تاريخ دار السلام).

وكان يتولّى النظر على البيمارستان العضدي، فلم تُحمد سيرته فيه، وقبض عليه وسجن مع المجانين، مسلسلاً في المارستان مدة.

وبيعت دار العلم وما كانت فيها من كتبٍ وأثاث، ثم أطلق سراحه بعد هذا وأخذ يطبُّ الناس، وصادف قبولاً منهم، فأثرى وحسنت حاله، وحصل كتباً كثيرة[133].

الباب الرابع

دار الحكمة
في الدولة الفاطمية

دار الحكمة

في الدولة الفاطمية

قامت الدولة الفاطمية في المغرب وفي مصر على دعائم من العلم والثقافة والعقل. وعندما نعود إلى الوراء ونستعرض ما بناه وحققه آباء وأجداد الحاكم بأمر الله في مجال العلم نقف مقرين بهذا التفوق وتلك الرغبة التي كرّسوا لأجلها حياتهم ووجودهم. ولا غروَ فإنّ العلوم والثقافة أزدهرت كلياً في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ففي تلك الفترة رفع البويهيون والحمدانيون لواء العلم والأدب في المشرق، كما ساهم العباسيون والأندلسيون في ذلك ولكن الفاطميين كانوا أكثر رغبةً واندفاعاً في هذا السبيل، وما ذلك إلا لأنهم كانوا يعتقدون بأنّ كل نهضة علمية، لا يمكن لها أن تصل إلى مستوى السبق والازدهار إلا إذا تولتها أيدي أحفاد الرسول الكريم مُحمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم). هذا ومن جهةٍ ثانية فإنّ الإسماعيليين كانوا يعتقدون بأنّ الإمام هو مصدر العلم والعرفان، وأنّه هو 'المعلّم'.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله أشتهر بسعة إطلاعه، ولم تشغله مهام الخلافة وأعباء الحكم عن البحث والتأليف، وقد ثبت أنّه كثيراً ما كان يُحتّم على ابنه وولي عهده المعز لدين الله بأن يتوفر على الدرس والتحصيل والتزوّد من العلم، وليس هذا وحده بل حرص على حثّ العلماء على الاستزادة من العلوم ومواصلة البحث والدراسة.

ومن الواضح أنَّ مكتبة الفاطميين التي كانت في المنصورية[134] بالمغرب ثم أنتقلت إلى القاهرة المعزيَّة كانت زاخرة بالكتب ومفتوحة الأبواب لكلّ

طالبٍ وراغب، ومن المشهور عن الخلفاء أنّهم كانوا يعقدون المجالس العلمية، والندوات الثقافية، فيحضرها رجال الدولة والعلماء والأدباء فيُظهرون مقدرتهم وإلمامهم بالفلسفة وعلم التأويل والفقه والحديث والطب والهندسة وعلم الفلك وغيرها من العلوم والآداب، ومن جهةٍ أخرى يستحثون الرعية على التزوّد من العلم وفقاً لطريقتهم ومبادئهم التي تنص بأنّه من الخير لهم أن يحكموا شعباً مثقفاً وأن تنالهم من ذلك المتاعب على أن يحكموا شعباً جاهلاً متخلفاً. وشجعوا العلماء وقرّبوهم وأجروا عليهم الأموال والأرزاق، وفتحوا مكتباتهم في القصور للعلماء ولطلاّب العلم، وأباحوا لهم الإطلاع على الكتب ودراستها واستنساخها والتفقه فيها، كما أباحوا لهم سماع المحاضرات من كبار العلماء في القاعات والمساجد التي هيأوها لهذا الغرض. وبالإضافة إلى كل ذلك فقد كان لهم مجالس خاصة خارجة عن هذا النطاق، وتُسمّى مجالس الحكمة – والتي سنحاول دراستها في بحثنا هذا – وهي خاصة بتعاليم الدعوة الإسماعيلية، ففيها كان الدُعاة يتولون شرح ما غمض من كتب الباطن والتأويل والفلسفة والإلهيات، حتى أنّ هذه المجالس كانت جزءاً من مخططات الدولة، وكان لها أثرها البارز في سير الدعوة في الأقطار الإسلامية بحيث كان يُختار للإضطلاع بها دعاة من العلماء والأذكياء. وبهذا نستطيع القول بأنّ الفاطميين قد ضربوا بسهمٍ وافر في تنظيم شؤون دعوتهم فنمت نمواً مطرداً، وأنجبت رجالاً أفذاذاً سبقوا عصورهم وقدّموا للعالم الإسلامي أروع النتائج الفكرية، وأغزر الثمرات العلمية(135).

لقد كانت مصر نصيرة العلوم والآداب حتى جاء الفاطميون ليُضيفوا إلى ذلك اهتمامات أوسع مدىً، فلما قامت دولتهم في مصر شُغلت بادئ ذي بدء بتوطيد مُلكها الفتي، فكان اهتمامها بالحركة العلمية محدوداً، ولا يُشكّل كبير

عناية. بيد أنّ الحركة الفكرية لم تلبث أن لاقت ازدهارها في قيام الجامعة الفاطمية الكبرى (الأزهر) التي بناها بأمر الخليفة المعز لدين الله القائد جوهر الصقلي[136] ، ثم أُنشئت فيما بعد بعهد الخليفة العزيز بالله الحلقات الدراسية التي استحالت إلى محاضرات جامعية، كما نُظِّمت مجالس الحكمة في القصر، وفي جامعة الأزهر أيضاً، وأنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله جامعة دار الحكمة وهي أول مجمع علمي أو أكاديمية تأسست في العالم، بحيث كانت تُلقى فيها المحاضرات على الطلاب من مختلف المذاهب، ولم تقتصر على النواحي الدينية، بل تعدتها إلى النواحي العلمية والفلسفية والأدبية والعلوم والفنون الأخرى.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما كان للوزير يعقوب بن كلّس[137] من أثر بارز في توجيه الأزهر إلى مصيره الجامعي، وقد أدرك الحسن بن زولاق المصري[138] عميد الحركة الأدبية في عصر الإخشيديين أثر الدولة الفاطمية، فأخذ بقسطه في زعامة تلك الحركة، وتولّى رعايتها في عهد الخليفتين المعز لدين الله والعزيز بالله، ومما يجب أن يُذكر أنّ المعز لدين الله أولاه عطفه وتقديره، وابن زولاق عُرف بأنه وضع كتاباً عن المعز لدين الله، ولكن هذا الكتاب فُقد مع كل أسف، ولم يُعثر له على أثر.

وفي عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ازدهرت الحركة الأدبية والعلمية في مصر، وقامت دار الحكمة والى جانبها دار العلم الذي كان يضم المكتبة الفاطمية الكبرى، وهذان المركزان كانا يغذيان الحركة العقلية إلى جانب الأزهر وجامع عمرو بن العاص، وقد كانت تلك الحلقات العلمية والأدبية عنصراً دائماً بارزاً في تكوين الحركة الأدبية لذلك العصر[139] .

ولا بدّ لنا ونحن نتحدث عن الحركة العلمية في عهد الحاكم بأمر الله من الوقوف قليلاً أمام العلاّمة الرياضي والمهندس الكبير (الحسن بن الهيثم)[140]، الذي أشتهر بكتابه (علم المناظر في البصريات)، وهذا الكتاب تُرجم إلى اللاتينية وصار كتاباً مدرسياً في أوربا، ومن المعلوم أنّ ابن الهيثم كان يعيش في دمشق، فسمع الحاكم بأمر الله عنه كلاماً، هو كما ذكره لنا ابن أبي أصيبعة: ْووجدت الصاحب جمال الدين أبا الحسن بن القفطي قد ذكر أيضاً عن ابن الهيثم، ما هذا نصه: قال أنه بلغ الحاكم صاحب مصر من العلويين وكان يميل إلى الحكمة خبره وما هو عليه من الإتقان لهذا الشأن فتاقت نفسه إلى رؤيته، ثم نقل له عنه أنه قال لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادةٍ ونقص فقد بلغني أنه ينحدر على موضع عالٍ هو في طرف الإقليم المصري، فازداد الحاكم إليه شوقاً وسيّر إليه سراً جملة من المال وأرغبه في الحضور فسار نحو مصر ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقيا بقريةٍ على باب القاهرة المعزيّة تُعرف بالخندق وأمر بإنزاله وإكرامه واحترامه وأقام ريثما استراح وطالبه بما وعد به من أمر النيل، فسار ومعه جماعة من الصنّاع المتولين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له، ولما سار إلى الإقليم بطوله ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية وهي على غاية من أحكام الصنعة وجودة الهندسة وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومقالات هندسية وتصوير معجزة تحقق أنّ الذي يقصده ليس بممكن، فإن من تقدمه في الصدور الخالية لم يغرب عنهم علم ما عمله، ولو أمكن لفعلوه، فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلي مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه النيل فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مُراده وتحقق الخطأ والغلبة عمّا وعد

به، وعاد خجلاً ومنخذلاً واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه، ثم إنّ الحاكم ولاّه بعض الدواوين فتولاها رهبةً لا رغبة[141].

كما أنّ الحاكم بأمر الله طلب إلى عامله في حلب أن يُرسل إليه أبا العلاء المعري الشاعر الفيلسوف، ولمّا اعتذر بسبب مرضه، أمر بأن يُترك له ريع الدولة من معرّة النعمان السورية طيلة حياته، وهو وجهٌ آخر من أوجه أهتمام هذا الخليفة بالعلم والعلماء ومحاولته النهوض بالحركة العلمية والفكرية في بلاده.

وأرسل بطلب الفيلسوف الكبير أحمد حميد الدين الكرماني الذي كان يعيش في العراق، وعندما حضر حصر مهمته بإلقاء سلسلةٍ من المحاضرات في دار الحكمة لتعريف خصائص الإمامة ومعرفة مرتبة الأئمة ومحاربة القائلين بالألوهية والمغالاة والإلحاد، فقام بالمهمة كما وضع في مصر رسالة بأسم البشارات والرسالة الواعظة، وهي تهدف إلى الاعتدال بالاعتقادات الفاطمية، والى سلوك الطريق الصحيح، والكرماني هذا هو حجّة العراقين ومن أعظم الفلاسفة الذين أنجبتهم الدعوة الإسماعيلية، فكتابه (راحة العقل) بالإلهيات أعظم كتاب أنتجته المدرسة الفلسفية الإسلامية.

ومن العلماء البارزين في ذلك العصر علي بن يونس[142] الفلكي المشهور، وقد ذُكر أنّ الحاكم بأمر الله قرّبه ومحضه عطفه، وكان والده العزيز بالله قد أقام مرصداً على جبل المقطّم حيث تمكن من أن يرصد منه كسوفين للشمس، ولهذا العالم كتاب (الزيج الحاكمي)، وقد كتبه تخليداً لذكرى الحاكم بأمر الله، ومن الجدير بالذكر أنّ ابن يونس هو أول من اخترع بندول الساعة وليس غاليلو كما ذُكر[143].

ومن الأمور التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحقيق هو العلاقة التي كانت بين الحاكم بأمر الله وابن سينا ووالده الذي كان من دعاته[144].

من خلال هذه المقدمة نستطيع أن نرى بجلاء الأهتمام الكبير والواضح من قبل الحاكم بأمر الله بالحركة العلمية والثقافية في بلاده ومدى تشجيعه للعلم والعلماء للنهوض بواقع المستوى العلمي لأبناء مصر خاصة ولأبناء الأمة الإسلامية عامة، ومن هذا المنطلق كان تأسيس دار الحكمة أو دار العلم ليكون مركز إشعاع ومنطلقاً للفكر الإسماعيلي - الفاطمي لجميع الأقطار والبلدان التي يمكن الوصول إليها من خلال دعاته وحملة رسالته.

خزائن الكتب الفاطمية

قبل دراسة "دار الحكمة" أو "دار العلم" وبدايات نشوء المدارس في الدولة الفاطمية لا بد من الإشارة إلى "خزانة الكتب الفاطمية" التي تعد أهم المؤسسات الثقافية الفاطمية، وقد وصفها ابن أبي طيّ بأنها: "من العجائب ويُقال أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دارُ كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر... ويُقال أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة وإنّ من عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري"[145].

وكان الخلفاء الفاطميون يُكثرون من زيارة خزانة الكتب، وعلى الأخص في القرن السادس الهجري، فكان الخليفة يجيء إليها راكباً ثم يترجّل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويَمثُل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة

بأقلام مشاهير الخطاطين، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب، وكان الخليفة يأخذ منها ما يروقه للمطالعة ثم يعيده مرة أخرى[146].

وقد شارك الوزراء الفاطميون كذلك الخلفاء في أهتمامهم بتكوين المكتبات، فيذكر ابن خلكان أنَّ يعقوب بن كلّس وزير الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله: كان يعقوب يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء ورتَّب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه بنفسه مصنفاته على الناس وتحضره القضاة والفقهاء والقرّاء والنُحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ويعارضون ويُشكّلون المصاحف وينقطونها وكان من جملة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنّف كتاب الأسجاع ورتب في داره القراء والأئمة يصلّون في مسجد اتخذه في داره وأقام في داره مطابخ لنفسه ولجلسائه ومطابخ لغلمانه وحاشيته وأتباعه وكان ينصب كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه[147].

وقد تعرّضت خزانة كتب القصر الفاطمي وخزانة كتب دار العلم لأزماتٍ كثيرة أضاعت الكثير من ذخائرها إلى أن قُضي عليها تماماً في أعقاب سقوط الدولة الفاطمية، فيذكر المقريزي في كتابه (أتعاظ الحنفا) ضمن حوادث سنة 461هـ/ 1068م قوله: وأخرج من خزائن الكتب ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة، وألفان وأربعمائة ختمة في ربعات بخطوط منسوبة محلاة بذهبٍ وفضة. وأخذ جميع ذلك الأتراك ببعض قيمته. وأخرج في المحرم منها في

يومٍ واحد خمسة وعشرون جملاً موقرة كتباً صارت إلى دار الوزير أبي الفرج مُحمّد بن جعفر بن المعز، واقتسمها هو والخطير بن الموفق في الدارين بخدمات وجبت لهما عمّا يستحقانه وغلمانهما من ديوان الحلبيين؛ وأنَّ حصة الوزير أبي الفرج قومت عليه بخمسة آلاف دينار، وكانت تساوي أكثر من مائة ألف دينار، نهبت بأجمعها من داره يوم أنهزم ناصر الدولة من مصر في صفر، مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما. وأخرج ما في خزائن دار العلم بالقاهرة. وصار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف بالإسكندرية كثير من الكتب، ثم أنتقل منها كثير، بعد مقتله، إلى المغرب وأخذته لواته، فيما صار إليها بالأبتياع أو الغصب من الكتب الجليلة المقدار ما لا يعد ولا يوصف، فجعل عبيدهم وإماؤهم جلودها في أرجلهم، وأحرق ورقها تأولاً منهم أنها خرجت من القصر وأنَّ فيها كلام المشارقة الذي يُخالف مذهبهم، فصار رمادها تلالاً عرفت في نواحي أبيار بتلال الكتب، وغرق منها وتلف، ووصل إلى الأمصار ما يتجاوز الوصف[148].

إذ يُبين لنا النص الذي أورده لنا المقريزي أن الجند والأمراء قد أستولوا على نفائس ما كان في خزانة الكتب الفاطمية وخزانة دار العلم، فتفرقَّت أكثر محتوياتها وكلها كتب مفردة مجلدةً تجليداً فاخراً. وصارت بعض هذه الكتب إلى عماد الدولة بن المحترق بالإسكندرية، ثم أنتقلت بعد مقتله في ظروف غير معلومة لنا إلى المغرب، بالإضافة إلى ما أستولت عليه قبيلة لواته وحملته أيضاً إلى الإسكندرية سنة 461هـ/ 1068م وما بعدها. وهي الكتب التي أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم ما يلبسونه في أرجلهم. ثم أحرقوا ورقها بحُجَّة أنَّ فيه كلام المشارقة الذي يُخالف مذهبهم، وذلك سوى ما غرق وتلف وحُمِلَ

إلى سائر الأمصار، وما بقي منها دون حرق سفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً تُعرف بتلال الكتب[149].

لا شكّ أنّ مكتبةً بضخامة كتب الفاطميين بذل الفاطميون في سبيل تكوينها الكثير واشتروا لها النُسخ النادرة من أرجاء العالم الإسلامي، بالإضافة إلى ما كلّفوا النُسّاخ والورّاقين بكتابته لهم، هم ووزراءهم، كان لها مخابر تهتم بالخطوات المختلفة لصناعة الكتاب (الورق والحبر والتجليد، وكذلك الصيانة والترميم، بالإضافة إلى عددٍ وفير من النسّاخين والورّاقين) خاصةً وأنّ المؤرخين يذكرون أنّ أغلب نسخ هذه الخزانة كانت ذات تجليد متميز[150].

ونحن نعرف أنّ قبط مصر حذقوا صناعة تجليد الكتب في العصر المسيحي، وتعلّم المسلمون عنهم أساليب التجليد في أعقاب فتح مصر. وقد تعلّم الرحالة المقدسي البشاري الذي زار مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري فن تجليد الكتب على أقباط مصر. وكان من بين ألقابه 'ورّاق ومُجلّد' كما جلّد المصاحف الكبرى في عَدَن. ورغم أنه قد وصل إلينا بعض جلود الكتب القبطية فإنه لم يصل إلينا أي تجليد لكتاب عربي قديم. أمّا أغلب جلود المصاحف والكتب الإسلامية المحفوظة في مكتبات ومتاحف العالم الآن فترجع إلى العصر المملوكي في مصر والشام وابتداءً من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

لقد كان الوزراء الفاطميون يسيرون على نهج خلفائهم في أقتناء الكتب والحصول عليها عن طريق الخلفاء زملائهم ومن هؤلاء ابن كلّس وهو رائد من روّاد الحركة الفكرية في مصر[151]، وكذلك برجوان أستاذ الخليفة الحاكم بأمر الله كان من الذين خلّف من الكتب ما لا حصر له وأيضاً المسير بن فاتك

وهو من أمراء مصر كانت له خزائن عظيمة[152]. والخزائن الفاطمية أشتهرت بعظمتها وجلالها وكثرة كتبها وأهميتها الكبرى في الإسلام.

يقول ابن تغري بردي عن خزانة الكتب الفاطمية: "وأمّا خزانة الكتب فكانت في أحد مجالس البيمارستان العتيق اليوم كان فيها ما يزيد على مائة ألف مُجلَّد في سائر العلوم يطول الأمر في عدتها[153]. وكان للفاطميين في القاهرة مكتبات منها أربعون خزانة في قصر الخلافة ملأى بنفائس الكتب والمؤلفات الجليلة المقدار ونوادرها المعدومة المثال. وكان أشهرها هذه الخزانة.

وقد كانت خزانة الكتب التي تقع بالقصر الكبير تتكون من أربعين حجرة وتضم من الكتب ما يزيد على مائة ألف مُجلّد تشمل كل أنواع العلوم بينها كتب نادرة ونفيسة. ولا غرو فإنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في العصر الفاطمي فقد أرادوا أن يملأوا الدنيا بعقيدتهم الشيعية – الإسماعيلية – وكان الخليفة المعز يُمضي كل – معظم – وقته بين خزانة الكتب[154].

عُنيت الدولة الفاطمية بالكتب عناية كبيرة، فكان من أشهر خزائن القصور الفاطمية – كما أسلفنا – خزانة الكتب. يذكر أحمد أمين قول المقريزي الذي ينقله المُسبِّحي مؤرخ الدولة الفاطمية، والذي عاش في كنفها، أنه كان بخزانة العزيز نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، وما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبري، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد – ثم قال: إنه كان في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة (يعني الفلسفة والطب والإلهيات وما إليها)، هذا إلى العناية بالناحية الأثرية من أقتناء الكتب بخطوط المؤلّفين، وما عنى فيها بحسن

الخط والتجليد. وينقل المقريزي أيضاً عن ابن الطوير أنَّ كل خزانة تحتوي على عدَّة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المُجلَّدات ويسير من المجردات، فمنها الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة، وكتب الحديث، والتواريخ وسير الملوك، والنجامة والروحانية والكيمياء – من كل صنف النسخ – ومنها النواقص التي ما تممت – كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة[155].

وقد أتجه الفاطميون أتجاهاً غريباً في تكوين مكتبتهم فقد كانوا يحرصون على أن يجمعوا بها جميع النسخ الموجودة من بعض الكتب حتى تكون مكتبتهم المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب أو ذاك، فإذا جمعوا مئات النسخ من كتابٍ ما ثم ظهر لهم أنه لا تزال هناك نسخة منه بعيدة عن مكتبتهم أظهروا أستعدادهم لأن يدفعوا فيها ثمناً باهظاً مهما بولغ فيه ليصلوا بذلك إلى هدفهم. وفيما يتعلّق بالقرآن الكريم فإنهم كانوا حريصين على أن يجمعوا بمكتبتهم جميع النسخ الفخمة أو التي كتبها مشاهير الخطاطين وهذا يُفسِّر لنا لماذا كان بهذه المكتبة عشرات أو مئات النسخ من المصاحف أو من كتاب العين[156].

كان لعناية المسلمين بإنشاء دور الكتب والمكتبات أثر كبير في تيسير وسائل الثقافة والتعليم وتشجيع الطلاب على الإستمرار في الدراسة والبحث العلمي. وقد أنتشرت المكتبات في الإسلام أنتشاراً عظيماً يدعو إلى الفخر والإعجاب فقد كان في معظم المساجد والجوامع والمدارس ودور العلم ودور

الحكمة مكتبات كبيرة مزوّدة بالكتب المختلفة والمراجع النادرة ليرجع إليها الطلبة والعلماء والقُرّاء والنُسَّاخ في أي وقتٍ شاءوا[157].

كما أهتم المسلمون بالكتب واقتناءها. أهتموا بدور الكتب وخزائنها وحرصوا عليها وقدروها حقَّ قدرها وكتبوا عن أثرها في تهذيب العقول وبث البطولة في النفوس وتزويد القرّاء بالأفكار والآراء، وكان علماء المسلمين يفضلون الجلوس في مكتباتهم الغنية بالكتب للقراءة والإطلاع على أن يتولوا أعظم المناصب والمراكز لدى الولاة والحكّام وكانوا يُرسلون من يجوبون البلاد لشراء الكتب العلمية والأدبية من البلاد الأجنبية ليزودوا مكتباتهم بالكتب النادرة النفيسة والجديدة.

وتجلّى نشاط الحركة العقلية في مصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرةً لخلافتهم ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب وأباح لهم جميعاً الإطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر وحذا الخلفاء من بعده حذوه فصاروا يعقدون المجالس العلمية بقصورهم ويدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء فيتناظرون بحضرتهم ولم تكن هذه المجالس تقل في قيمتها العلمية عن الدروس التي تُلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وكان المعز يعقد المجالس العلمية فيحضر كبار رجال دولته ومشايخها وعلماؤها وأدباؤها فيُظهر مقدرته الفائقة وإلمامه بالفلسفة وعلوم التأويل والحديث والفقه وما إليها. ولم يقنع بمكتبة القصر التي جمعت آلاف المُجلّدات فحمل الكثير من الكتب إلى مسجد القاهرة وهو الجامع الأزهر والى ابن طولون والجامع العتيق فحمل إلى الأزهر من المصاحف والختمات عدداً عظيماً ومكّن الناس من القراءة والانتفاع بما فيها.

وكان للعزيز عناية كبيرة بخزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها قيّماً يتولّى شؤونها ويُجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه، وممن تولّى ذلك أبو الحسين الشابشتي[158] الكاتب المتوفى سنة 388هـ فكان الخلفاء يترددون على مكتباتهم للإطلاع أو تفقدها ومناقشة أمنائها فيما يحتاجونه أو تحتاجه المكتبة من كتب وبلغ عدد كتب مكتبة القصر أكثر من مائة ألف مُجلّد. عدا كرتين سماويتين إحداهما من الفضة يُقال أنّ بطليموس هو الذي صنعها وكلفته ثلاثة آلاف دينار كما كانت مكتبة القصر تحوي كثيراً من المصورات الجغرافية[159].

ومن الأهمية بمكان أن نذكر نص المقريزي الذي أورده لنا في كتابه الخطط المقريزية عن خزانة الكتب الفاطمية، وذلك لما لهذا النص من أهمية كبيرة في توضيح المكانة العلمية لهذه المكتبة وللأهتمام المباشر والكبير للخلفاء الفاطميين بالحركة العلمية والفكرية في بلادهم.

قال المقريزي: قال المُسبّحي: وذكر عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خُزّان دفاتره، فأخرجوا من خزانته نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب العين، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز الخُزّان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه، وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها، وقال في كتاب الذخائر: عدّة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، وأنّ الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدّة المستنصر ألفان وأربعمائة ختمة قرآن في

ربعات بخطوطٍ منسوبة زائدة الحسن مُحلاةً بذهبٍ وفضة وغيرهما، وأنّ جميع ذلك كلّه ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم ببعض قيمته، ولم يبقَ في خزائن القصر البرانية منه شيء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل إليها، ووجدت صناديق مملوءة أقلاماً مبريّة من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما. قال: وكنت بمصر في العشر الأول من مُحرَّم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج مُحمّد بن جعفر المغربي. فسألت عنها فعرفت أنّ الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عمّا يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين، وأنّ حصة الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار، وذكر لي من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار ونهب جميعها من داره يوم أنهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما. هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة، وسوى ما صار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالإسكندرية ثم أنتقل بعد مقتله إلى المغرب، وسوى ما ظفرت به لواته محمولاً مع ما صار إليه بالإبتياع والغصب في بحر النيل إلى الإسكندرية في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار، المعدومة المثل في سائر الأمصار صحّةً وحُسن خطٍ وتجليد وغرابة، التي أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم وأحرق ورقها، تأولاً منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز الله أنصاره، وأنّ فيها كلام المشارقة الذي يُخالف مذهبهم، سوى ما غرق وتلف وحُمِلَ إلى سائر الأقطار، وبقي منها ما لم يُحرق وسفت عليه الرياح التراب، فصار تلالاً

باقية إلى اليوم في نواحي آثار تُعرف بتلال الكتب. وقال ابن الطوير: خزانة الكتب كانت في أحد مجالس المارستان اليون يعني المارستان العتيق. فيجئ الخليفة راكباً ويترجّل على الدكّة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر إليه من يتولاّها، وكان في ذلك الوقت الجليس بن عبد القوي. فيُحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب. فإن عن له أخذ شئ منها. أخذه ثم يُعيده. وتحتوي هذه الخزانة على عدّة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المُجلّدات، ويسير من المجردات. فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسِيَر الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ، ومنها النواقص التي ما تممت. كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة في مكانٍ فوقها، وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البوّاب وغيره، وتولّى بيعها ابن صورة في أيام الملك الناصر صلاح الدين. فإذا أراد الخليفة الأنفصال مشى فيها مشية لنظرها، وفيها ناسخان وفراشان صاحب المرتبة وآخر. فيُعطى الشاهد عشرين ديناراً، ويخرج إلى غيرها. وقال ابن أبي طي بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر: ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا. ويُقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتبٍ أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك. ويُقال أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. أنتهى، ومما يؤيد ذلك أنّ القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن علي لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب

القصر مائة ألف كتاب مُجلَّد، وباع ابن صورة دلال الكتب منها جملة في مدة أعوام. فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عن القاضي الفاضل منها شيء، وذكر ابن أبي واصل أنّ خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مُجلَّد[160].

ومن خلال هذا النص المهم الذي يورده لنا المقريزي عن واقع المكتبات وخزائن الكتب في الدولة الفاطمية، يتجلّى لنا الأهتمام الفريد الذي يوليه خلفاء الفاطميين للحركة الفكرية في بلادهم والسعي لنشر العلوم والمعارف بكافة تفرعاتها وتنوعاتها ومذاهبها بين أفراد شعبهم ومجتمعهم في مصر ولغيرهم من العلماء وطلبة العلم الوافدين إلى مصر من كل بقاع العالم الإسلامي، حتى أضحت القاهرة مركزاً يُنافس مدينة بغداد في إستقطابها للعلماء والمفكرين وحاضرةً من حواضر العالم الإسلامي يبزغ منها فجر نهضةٍ علمية إسلامية عظيمة.

وبالتالي فإنَّ استعراضنا للدور الكبير الذي لعبه الخلفاء الفاطميون من خلال الأهتمام بدور العلم وخزانات الكتب ومحاولة نشر ضياء التعليم لتمحي آثار الجهالة من قلوب الناس، أصبح من الواضح لدينا مدى عمق هذا الدور وأهميته والذي توّج بإنشاء (دار العلم) أو (دار الحكمة) في مدينة القاهرة – حاضرة الخلافة الفاطمية – من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي لتكون بمثابة أكاديمية علمية تقف جنباً إلى جنب محاولة نشر الفكر الذي تبنته خزائن الكتب من قبل ومجالس الحكمة التي أعتمدها الفاطميون في نشر الدعوة الإسماعيلية – الفاطمية على طول تاريخهم الدعوي السري والعلني.

أنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم أو دار الحكمة في القاهرة سنة 395هـ وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار فكان يُنفق عليها في كل سنة 257 ديناراً من العين الغربي فمن ذلك: الورق تسعون ديناراً، للخازن ثمانية وأربعون ديناراً، للفراشين خمسة عشر ديناراً، للناظرين في الورق والحبر والأقلام أثنا عشر ديناراً، غرمة الكتب أثنا عشر ديناراً، ثمّ الماء أثنا عشر ديناراً، ثم الحصر العبداني عشرة دينارات – دنانير – ثمن لبود للفرش في الشتاء خمسة عشر ديناراً، ثم طنافس في الشتاء أربعة دينارات – دنانير – غرفة الستارة دينار واحد[161].

وقد بقيت هذه الدار جزءاً من قصر الحاكم ولعلّها هي الخزائن التي أشار إليها المُسبّحي بأسم الخزائن البرانية.

إذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم وكثيراً ما كانت تُقام المناظرات بين علمائها. من ذلك ما ترويه المصادر أنّ جنادة بن مُحمَّد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة اللغوي النحوي[162] قَدِمَ مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد[163] وأبا إسحاق علي بن سليمان المصري النحوي وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات.

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل مكفوف يُقال له أبو الفضل جعفر قَدِمَ مصر فأُعجب به الحاكم وخلع عليه ولقّبه بعالم العلماء[164]، وجعله يجلس في دار العلم يُدرّس النحو واللغة. ومنهم أبو بكر

الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يُقيما بدار العلم ويُلقيا دروساً في المذهب المالكي[165].

ومن الذين تولّوا دار الحكمة، داعي الدعاة أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران الشيرازي المعروف بلقب المؤيد في الدين، تولّى الدار في خلافة المستنصر (427 – 487هـ/ 1035 – 1094م) وله ثمانمائة مجلس، عقدها في دار الحكمة، وهي تقع في ثماني مُجلّدات كبيرة، تناول فيها موضوعات إسماعيلية شتّى: دينية وسياسية وأدبية وتأويلية، وكلّها لتأييد المذهب الإسماعيلي – الفاطمي – وتردُّ على من يرى خلاف ذلك – وهو الذي كانت المراسلات بينه وبين فيلسوف المعرَّة أبي العلاء المعري – كما أنّه ردَّ على ابن الراوندي، وما قاله في كتابه "الزمرذ" في إبطال النبوآت.

كان الطلاب يتلقون في دار الحكمة إلى جانب علوم آل البيت (عليهم السلام) والفقه الشيعي (الإسماعيلي) العلوم العقلية والنقلية وهكذا أختلفت مناهج التعليم في هذا العهد عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية بينما تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية، وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والنجامة من أمثال: ابن يونس المُنجّم وأبو علي الحسن بن الهيثم وعلي بن رضوان[166].

ومن الحلقات التي كانت تُعقد فيها، هي التي كان يعقدها جنادة بن مُحمّد بن الحسين الأزدي الهروي أبو أسامة اللغوي النحوي (ت 399هـ/ 1008م) قَدِمَ مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد، وأبا إسحق علي بن سليمان المعرّي النحوي، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة،

وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات، فقتل الحاكم جنادة وأبا علي، وأستتر عبد الغني[167].

وقد أستطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج منوعة جمعت من الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق من أمثال الرحالة الفارسي ناصر خسرو والداعي الحسن بن الصبّاح اللذين وفدا إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي.

ولعلَّ الدافع على إنشاء المكتبات من أمثال دار الحكمة هو أنَّ الكتب كانت قبل أختراع الطباعة غالية الثمن، لا يقتنيها إلا الأغنياء لأنها كانت مخطوطات باهظة التكاليف ولذلك لجأ القادرون من مُحبي العلم إلى إنشاء المكتبات يجمعون فيها الكتب ويفتحون أبوابها للراغبين كما فعل البطالمة في مكتبة الإسكندرية وكانت نواتها الجامعية وفعل العباسيون في إنشاء بيت الحكمة في بغداد، وكذلك فعل الفاطميون بإنشاء دار الحكمة في القاهرة. ولقد أتفق المؤرخون على أنّ هذه المكتبات كانت تؤدي ما تؤديه معاهد العلم والجامعات والجمعيات العلمية في الوقت الحاضر[168].

كان لمكتبة الفاطميين في القاهرة – دار الحكمة – فهرس كبير وكانت أستعارة الكتب مباحة وإن وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وحسن سيره. وكانت مكتبة القاهرة تُعير كتباً للساكنين في القاهرة فقط وأحياناً يُطلب من المُستعير أن يدفع ضماناً ولكن يُعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع الضمان أو التأمين وكان علي بن مُحمّد الشابشتي أميناً لدار الحكمة بالقاهرة.

وقد كان الحاكم يميل إلى حرية الفكر والرأي لذا شجّع المناقشات الحرة في الدين والعلم وخلافه، ولهذا فقد كان إنشاء دار الحكمة لهذا الغرض. وقد

أباح المناظرة بين المترددين إلى دار الحكمة والذين كانوا يعقدون الإجتماعات هناك وتقوم المناظرات وقد يُفضي الجدال إلى الخصام[169].

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا ما أورده لنا المقريزي في خططه عن دار العلم (دار الحكمة) لما لهذا النص من أهمية كبيرة توضح لنا أدق تفاصيل عمل هذه الدار وطبيعة عملها ومكانتها بالنسبة للدور العلمي والفكري الذي تبناه الخلفاء الفاطميون خلال فترة حكمهم في مصر. قال المقريزي: "وكان بجوار القصر الغربي من بحريه دار العلم، ويدخل إليه من باب التبانين الذي هو الآن يُعرف بقبو الخرنشف، وصار مكان دار العلم الآن الدار المعروفة بدار الخضيري الكائنة بدرب الخضيري المقابل للجامع الأقمر، ودار العلم هذه اتخذها الحاكم بأمر الله فإستمرت إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش.

قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله المُسبّحي: وفي يوم السبت – هذا يعني العاشر من جمادي الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القُرّاء والمنجّمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فُرشت هذه الدار وزخرفت وعلّقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم يُرَ مثله مجتمعاً لأحدٍ قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها. فكان

ذلك من المحاسب المأثورة أيضاً، التي لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيهٍ وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم. فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلّم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وهي الدار المعروفة بمختار الصقلبي قال: وفي سنة ثلاث وأربعمائة أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد، وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه، ثمّ خلع على الجميع ووصلهم، ووقف الحاكم بأمر الله أماكن في فسطاط مصر على عدة مواضع، وضمنها كتاباً ثبت فيه على قاضي القضاة مالك بن سعيد، وقد ذكر الجامع الأزهر وقال فيه، وقد ذكر دار العلم، ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه في كل سنة من العين المغربي مائتان وسبعة وخمسون ديناراً من ذلك لثمن الحصر العبداني وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير، .....

وقال ابن المأمون: وفي هذا الشهر يعني شهر ذي الحجّة سنة ست عشرة وخمسمائة جرت نوبة القصار وهي طويلة، وأولها من الأيام الأفضلية، وكان فيهم رجلان يُسمَى أحدهما بركات والآخر حميد بن مكي الأطفيحي القصار مع جماعة يُعرفون بالبديعية وهم على الإسلام والمذاهب الثلاثة المشهورة، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة. فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة وأخرجهم عن الصواب، وكان ذلك في أيام الأفضل، فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور فهرب... فلما توفّي الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي باتخاذ دار العلم، وفتحها على الأوضاع الشرعية،...

وقال ابن عبد الظاهر: دار العلم كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطلها، وهي بجوار باب التبانين، وهي متصلة بالقصر الصغير، وفيها مدفون الداعي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الأعجمي، وكان لإبطالها أمور سببها أجتماع الناس والخوض في المذاهب والخوف من الأجتماع على المذهب النزاري[170].

وفي كتاب "الفلك الدوار في سماء الأئمة الأطهار" يذكر أنّ الأغراض التي أنشأت دار العلم من أجلها ثلاثة من جملتها:

1. أستيعاب الكتب والمطالعات والمحاضرات.
2. تثقيف القضاة وتدريبهم على ألا يُسمح لهم بدخول الدار حتى يتموا دراستهم في الجامع الأزهر.
3. تعليم موظفي الدعوة وذلك بعد أن يتم هؤلاء دراسة النحو والفلسفة والمنطق والنجوم في الأزهر ثم يغادرونه إلى دار الحكمة.

وهكذا كانت هذه الجامعة التي أطلق عليها أسم دار العلم أو دار الحكمة تقوم بوظيفة من أكبر الوظائف في الدولة وهي وظيفة إعداد الدُعاة وتزويدهم بالعلوم التي يستعينون بها على نشر الدعوة وكانت هذه الدعوة نفسها تمتزج بالفلسفة.

واتخذ بعض أصحاب البدع الأجتماعات التي كانت تُعقد في دار الحكمة وسيلةً لبث آرائهم فأضطر الأفضل بن أمير الجيوش في أوائل القرن السادس الهجري إبطالها دفعاً لأسباب القلق (الفتن) فلما توفي الأفضل أمر الخليفة

الأمر بأحكام الله وزيره المأمون البطائحي فأعادها سنة 517هـ ولكنه أشترط فيها السير على الأوضاع الشرعية وأن يكون متوليها رجلاً دينياً وأن يُقام فيها متصدرون برسم القرآن. فأشار عليهم الثقة (زمام القصور) أن تُبنى قريبة من داره، على بقعةٍ خالية يصلح أن يكون موقعها لدار العلم – دار الحكمة – فشيّدوا عليها (دار العلم الجديدة) وكانت داراً كبيرة، يُقال أنّ النفقة بلغت عليها مائة ألف دينار وأكثر، ونقلوا إليها ما كان في دار الحكمة القديمة، وفتحت الدار الجديدة في شهر ربيع الأول سنة 517هـ/ 1123م وعاد الانتفاع بها كسابق عهدها، وجُعل بها خازناً أبو مُحمَّد حسن بن آدم من أقطاب العلم والفضل، ومتصدرون برسم قراءة القرآن، وداعي للمذهب، وناظر يتولّى أمورها، ولا نظن أن عدد كتبها كان يقل عن 100،000 كتاب. ولما أفضت الحكومة إلى صلاح الدين الأيوبي هدم دار العلم، وشيّد في محلها مدرسةً للشافعية. كما أنّ القاضي الفاضل[171] نقل منها مائة ألف مُجلّد إلى مدرسته الفاضلية. وكان الخلفاء الفاطميون مولعين بجمع كل ما يعثرون عليه من نسخ أي كتاب وقد نُهبت هذه المكتبة في عهد المستنصر حيث قام الغوغاء بسرقة وحرق وإلقاء كثير من كتبها في النيل[172].

ومن خلال دراسة الحالة السياسية التي كانت تمر بها الدولة الفاطمية آنذاك يمكن أعتبار أنّ السبب الرئيس الذي أدى إلى إغلاق دار الحكمة، وتعطيل مجالسها العلمية، إنما كان بسبب افتراق الفاطميين إلى فرقتين، مستعليّة ونزارية، وكانت مجالس المناظرة تُعقد في دار الحكمة بين أصحاب الفرقتين – المذهبين – وأخذ دُعاة كل مذهب بتأييد ما يدعيه، ويظهر أنّ النزارية تغلبوا على المستعلية بدعوتهم وتعزيز مذهبهم، فمال الناس إليهم، وكثر الخوض في المذاهب، وخشي المستعلية من تفوق النزارية عليهم، لذا رأوا من الحكمة غلق

دار الحكمة، وتعطيل مجالس العلم فيها، إلى أن تهدأ الأحوال ويترك الناس الجدل في المذاهب، فأمر الأفضل بغلق الدار، وتعطيل مجالس الدعوة فيها، فهدأت الحالة وبطلت المجادلات[173].

ولكن عندما تسلَّم بدر الجمالي مقاليد مصر جدَّ في أن يجمع من كتب هذه المكتبة ما سلم من الحرق والغرق. فاستعاد ما استطاع أن يستعيده من الأقطار واسترد ما كان في حوزة بعض الناس وبهذا أستطاع أن يُعيد للمكتبة شيئاً من مكانتها.

من كل ما تقدّم وما ذكرناه عن دار الحكمة يدل على أنها كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكتبتها وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل فالفاطميون بإنشائهم الجامع الأزهر ودار الحكمة "دار العلم" كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي تمتاز بها المدنية الحديثة في أيامنا هذه.

مجالس الحكمة في عهد الحاكم بأمر الله

كان أخذ العهد شرطاً أساسياً لدخول أيّ معتقد جديد إلى المذهب الإسماعيلي والتعرّف على أسرار المذهب أو علم الباطن المعروفة بـ "الحكمة". وكان تعليم "الحكمة" يتم في مجالس يحضرها المعتقد الجديد إمّا منفرداً كما في كتاب "العالم والغُلام" أو مع آخرين[174].

ولم يكن ينتظم في هذه المجالس سوى المعتقدين فقط ولا يُسمح لغيرهم بحضورها، وحتى يمكن السيطرة على ذلك فإنّها كانت تُعقد داخل قصر الإمام في مكانٍ مخصص لهذا الغرض سواء في أفريقية أو في القاهرة.

وفي أعقاب الفاطميين لمصر لم تطرأ أختلافات أساسية على طريقة تبليغ الدعوة وعقد "مجالس الحكمة" التي كان يتولاها في الستين عاماً الأولى للحكم الفاطمي في مصر قاضي القضاة، حيث توارث ستة من أسرة بني النُعمان منصب القضاء في هذه الفترة، وكان أول من أضيفت إليه الدعوة إلى جانب القضاء منهم هو الحسين بن علي بن النعمان سنة 389هـ/ 998م. وكانت هذه المجالس تُعقد في أوّل الأمر يومين في الأسبوع (الخميس والجمعة) في موضع بالقصر يُعرف بـ (المحوّل) كان يُدخل إليه من باب الريح وكان الداعي في أوقات الاجتماع يُصلّي بالناس في رواقه.

وحفظ لنا المُسبّحي[175]، الذي يُقدّم لنا أكثر المعلومات أصالةً عن هذه الفترة التي عاشها بنفسه، نصاً شيّقاً حول عقد "مجالس الحكمة" في الفترة الفاطمية المبكرة، يقول: إنّ الداعي كان يعقد خلال يومين في الأسبوع خمسة مجالس: مجلس للأولياء، ومجلس للخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم، ومجلس لعوام الناس وللطارئين على البلد، ومجلس للنساء كان يُعقد في جامع القاهرة الذي عُرف بعد ذلك بالجامع الأزهر، ومجلس للحرم وخواص نساء القصر[176]. يشتمل هذا النص على العديد من المعلومات الهامة، فهو يفيدنا أنه أصبح في القاهرة – كما كان من قبل في أفريقية – مجالس منفصلة للمستجيبين باختلاف طوائفهم؛ ولم تكن هذه المجالس مخصصة فقط لقراءة الحكمة وإنما أيضاً لجمع النجوى التي كان يدفعها المستجيبون والمستجيبات عيناً وورقاً.

أمّا كيفية إعداد هذه المجالس وكتابتها فقد وصفه المسبِّحي أيضاً يقول: إنّ الداعي كان يعمل المجالس في داره ثم يُنفذها إلى من يختص بخدمة الدولة، ويتخذ لهذه المجالس كتباً يبيضونها بعد عرضها على الخليفة.

وفي زمن الخليفة الحاكم بأمر الله وفي إطار سياساته المتناقضة طرأ تحوّل كبير على مجالس الحكمة، ومصدرنا في كل ذلك أيضاً المسبِّحي الذي يذكر أنّ الناس الذين جرت عادتهم بالحضور إلى القصر لسماع ما يُقرأ عليهم من كتب مجالس الدعوة أجتمعوا في ذي القعدة سنة 396هـ/ أغسطس سنة 1006م ولكنهم ضُربوا بأجمعهم ولم يُقرأ عليهم شيء[177]. وفي سنة 400هـ/ 1009م قُرئ سجل صادر من الحاكم بأمر الله بقطع مجالس الحكمة التي كانت تُقرأ على الأولياء يومي الخميس والجمعة، كما قُرئ سجلٌ آخر بإبطال ما كان يؤخذ على أيدي القضاة من الخُمس والفِطرة والنجوى. ثمّ عاد الحاكم في سنة 401هـ/ 1010م وكتب سجلاً أمر فيه فإعادة مجالس الحكمة وأخذ النجوى[178].

لا شك أنّ هذه الإجراءات أتخذها الحاكم بأمر الله في أعقاب افتتاحه لدار الحكمة في فترةٍ أراد فيها التقرّب لأهل السُنّة. ويبدو هذا التردد بين المنع والإباحة في نصوص كثيرة، مصدرها دائماً هو المُسبّحي، الذي يذكر أنه عندما اجتمع الأولياء وغيرهم بالقصر يوم الخميس 18 رمضان سنة 404هـ/ 5 مارس سنة 1014م لسماع ما يقرأه القاضي من كتب مجالس الحكمة منعوا من ذلك[179]، ولم يذكر المُسبّحي سبباً لهذا المنع الذي جاء مواكباً لبداية الدعوة الدرزية التي وصلت إلى مصر في هذا الوقت[180].

ومما يؤكد هذا التعليل أنَّ مجالس الـدعوة عـادت للإنعقـاد زمـن الخليفـة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله سنة 417هـ/ 1026م. وعادت لسابق عهـدها ونظام عملـها في نـشر العلـوم والمعـارف المختلفـة، إضـافةً إلى عملـها وهـدفها الرئيس في نشر تعاليم الدعوة الفاطمية بين صفوف المجتمع.

الباب الخامس

المدارس في العالم الإسلامي

المدارس في العالم الإسلامي

يُقصد بالمدرسة فنياً الأماكن التي بُنيت بجهود الدولة أو الأفراد، وتتعهدها الجهة المؤسسة بالنفقةِ عليها، وقد تُحبس عليها الأوقاف للإنفاق على الطلبة وهيأة التدريس على وفق مناهج تخدم الأغراض التي من أجلها أسست المدرسة[181].

لقد أختلف المؤرخون في تحديد نشأة المدارس وبداياتها وهل كان العرب أم الأعاجم هم أول من أنشأ المدارس في العالم الإسلامي.

فقد ذكر(الذهبي)[182]، أنَّ نظام المُلك[183] هو أول من بنى المدارس[184].

وينكر عليه (السبكي)[185] ذلك لأنَّ هناك مدارس أحدثت قبل ولادة نظام المُلك نفسه، مثل المدرسة البيهقية، والسعدية في نيسابور.

أمَّا (المقريزي)[186] فيُحدد بدايتها قائلاً: "والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تُعرف في زمن الصحابة والتابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سِنِي الهجري".

والنقطة المثيرة للانتباه حول هذا الموضوع، هو أنَّ أغلب المؤرخين يقولون أنَّ نظام المُلك هو أول من بنى المدارس وذلك عند إنشائه المدرسة النظامية في بغداد، وإنه احتذى به الكثير من المسلمين في تلك الخطوة.

لكن بعد البحوث والدراسات التي قام بها عدد من الباحثين منهم (سعيد نفيسي)[187] و (كوركيس عوَّاد)[188] و (مصطفى جواد)[189] و (ناجي معروف)[190] يُظهر لنا عكس ما كان سائد من فكرةٍ خاطئة حول نشأة المدارس. فقد أكد الدكتور (ناجي معروف)[191] ذلك قائلاً: "لقد أثبتنا في

البحوث التي نشرناها عن نشأة المدارس الإسلامية أن (المدرسة النظامية)، لم تكن أولى المدارس التي أحدثت في الإسلام، وإنما أُنشئ قبلها في خراسان وما وراء النهر عشرات المدارس الفقهية والحديثية فصلنا القول على ثلاثين مدرسة فقهية منها أنشأت في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري أي ما قبل النظامية البغدادية.

ولعلَّ سبب نسبة تأسيس المدارس إلى نظام المُلك، فيرجع ذلك إلى شهرته الإدارية والى كثرة المدارس التي أسسها، والى دوام كثيرٍ منها، فمن المعروف أنَّ نظام المُلك قد بنى المدارس في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وطبرستان، حتى قيل أنّه كان في كل مدينة من مدن العراق وخراسان مدرسة[192].

لكن الشيء الذي يُميز مدارس نظام المُلك عن معظم المدارس التي أنشئت قبلها أنها كانت تحتوي على الأقسام الداخلية للطلاب، علماً أنَّ مدرسة أبي حنيفة تسبق نظامية بغداد بأربعة أشهر.

أمَّا أسباب ظهور هذه المدارس، فهو مزيج من دينٍ ودنيا، فقد أشتهر نظام المُلك بحُسن السياسة والإدارة، والظاهر أنّه أراد هذه المدارس لإعداد موظفين في دولة السلاجقة[193]، وهي دولة أعجمية، ونظام المُلك نفسه كان أعجمياً ووزيراً لأعجمي، فما كان أحوجه وأحوج سلطانه لرضى الناس عنهما وعن حكمهما، وأيُ طريقٍ أضمن من طريق العلم والمدرسة للوصول إلى ذلك[194].

فضلاً عن ذلك، فإنَّ الدافع في إنشاء هـذه النظاميـات، هـو دافـع مـذهبي وسياسي، وذلك لمناهضة الفاطميين في مصر، بعد أن نهض جامع الأزهـر سـنة (359هـ/ 969م) في عهدهم بالتعليم[195].

ويؤكد هذا المنحى في تأسيس المدارس في الفكـر الـشيعي مـا ذكـره (ابـن كثير)[196] وهو يتكلَّم عن دار العلم التي بناها سابور في أردشـير ووزيرهـا بهـاء الدولة فيقول في أحداث سـنة (383هـــ/ 993م) أظـن أنَّ هـذه أول مدرسـة وقفت على الفقهاء وكانت قبل النظامية بمدة طويلة.

على أنَّ النظامية لم تكن أول المدارس الـتي أنـشأت في العـالم الإسـلامي، وإنما سبقتها العديد من المدارس في العالم الإسلامي، ومنها جامعة الأزهر، الـتي كانت عبارة عن جامعـة مُـصغَّرة لمفهـوم الجامعـة في الوقـت الحاضـر[197] فهـي كانت تحتوي على غرف للطلبة والعلماء، فضلاً عن رواتب توزَّع على الفقهـاء والطلاب على حدٍّ سواء لسدِّ نفقاتهم الدراسـية، وإنهـا كانـت ترمـي إلى نـشر مذهب الدولة الفاطمية، وإن شارك فيها علماء من مختلف المذاهب فـضلاً عـن تدريسها العلوم المختلفة ولم تقتصر على العلوم الدينية[198].

وبذلك تكون جامعة الأزهر التي أنشأها الفاطميون في مـصر قـد أنـشئت قبل النظامية التي أسسها نظام المُلـك بحـوالي 69 سـنة، مـن الجـدير بالـذكر أنَّ نظام المُلك قد تأثر بـالأزهر الفـاطمي، فأقـام علـى غـراره النظاميـة في بغـداد، لتقويض المذهب الفاطمي، وهي مسألة معهودة مـن قبـل الفـرق الإسـلامية في إنشاء المدارس لأغراض مذهبية خاصة بها أو لأهداف سياسية تتخذ من الـدين ستاراً لها.

فلو راجعنا تاريخ عدداً من المدارس التي أنشئت بعد جامعة الأزهر لتوضح لنا، أثر جامعة الأزهر الفاطمي في إنشاء هذه المدارس. فقد أنشئت عدَّة مدارس بعد الأزهر من أبرزها:

- المدرسة الحافظية في مصر سنة (532هـ/ 1138م).
- المدرسة الفائزية في مصر سنة (546هـ/ 1151م).
- مدرسة أبي منصور النيسابوري في بُخاري سنة (381هـ/ 998م).
- مدرسة أبي صالح التباني سنة (385هـ/ 995م).
- مدرسة الحسن بن داود السمرقندي في نيسابور قبل سنة (395 هـ/ 1004م)[199].

وقد أقتدى صلاح الدين الأيوبي بالمدارس التي أنشأها الفاطميون قبله في مصر، فهي المدرسة الناصرية، ثم المدرسة القمحية في القاهرة أواخر أيام الفاطميين[200].

وتؤيد النصوص التاريخية أنَّ المدارس في الإسلام أنشئت وخُصصت الجرايات لفقهائها وطلابها وشيوخها في زمنٍ مبكر يسبق تأسيس المدرسة النظامية في بغداد بأكثر من قرنٍ من الزمان منها، مدرسة ابن حبان البُستي سنة (345هـ/ 956م)[201]، وذكر (ابن خلكان)[202]، أبا بكر مُحمَّد بن الحسن الأصفهاني بنى مدرسة نيسابور، فيما أسس مدرسة الصادرية الأمير شُجاع الدولة سنة (391هـ/ 1000م) أسسها الأمير شُجاع الدولة، كما كانت مدرسة الإمام أبي حنيفة في بغداد تسبق النظامية بأربعة أشهر، فقد خُصصت المساكن لطلبتها وأُجريت عليهم الجرايات[203].

ثم توالى بعد ذلك إنشاء المدارس في أرجاء العالم الإسلامي لقاء نقل نظام المُلك المدارس إلى المغرب العربي، فشُيِّدت أول مدرسة في تونس في ظل الحفصيين سنة (650هـ/ 1252م)، ثم مدرسة الصفارية في المغرب سنة (684هـ/ 1258م) وهي أشهر مدارس بني مرين في المغرب، وهكذا توالت المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من مناطق العالم الإسلامي[204].

إذا اعتبرنا جامع الأزهر يؤدي دور المدرسة في علومه ويُلبِّي حاجات الطلاب المعاشية بتوفير الجرايات والطعام فيما يُعرف الأقسام الداخلية فضلاً عن جرايات ومرتبات الشيوخ، فالفاطميون يسبقون السلاجقة بهذا المضمار، ويمكن اعتبار نشوء النظاميات ردَّ فعلٍ قام به السلاجقة للوقوف بوجه الفكر والعقيدة الفاطمية، أمَّا إذا أُغفل الأزهر ولم يُحسب إنشاؤه بمفهوم المدرسة على أساس أنه لم يبن بالأسم الفني للمدرسة عندئذٍ يتأخر الفاطميون ببناء المدارس حتى ظهرت المدرسة الحافظية سنة (532هـ/ 1138م) والمدرسة السلفية (العادلية) سنة (544هـ/ 1149م). والظاهر أنهما قد بُنيتا في الوقت الذي تراجعت فيه هيبة الخلافة الفاطمية وفقدت سطوتها بتسلّط الوزراء على الخليفة حتى كانت هاتان المدرستان تخدمان المذاهب الفقهية الأخرى المناهضة للفكر الفاطمي من المالكية والشافعية[205].

من بيت الحكمة إلى المدرسة الجامعة

لئن كانت المدرستين النظامية والمستنصرية من أبرز مؤسسات التعليم العالي في العصر العباسي الأخير، فإنَّ مظاهر محاكاة بيت الحكمة في هاتين المؤسستين العلميتين من الممكن ملاحظته ليس في خزانتي مكتبتيهما ونظامي

إدارتهما فحسب، بل في تحول الأخيرة منها ونعني بها المدرسة المستنصرية إلى مؤسسة تعليمية جامعة بعد انفتاحها على تدريس الطب والعلوم الرياضية والطبيعية فضلاً عن العلوم الدينية واللغة العربية.

إنَّ محاولة أخرى للمقارنة والمقاربة بين بيت الحكمة والمدرسة الجامعة وصولاً إلى الجامعة الحديثة تبدو مفيدة حقاً عند الإشارة إلى أنموذجين آخرين من المدارس الجامعة وهما مدرسة القرويين في المغرب ومدرسة الأزهر في القاهرة. على أنَّ كلاً من المقارنة والمقاربة موضوعتا دراستنا ينبغي أن يُنظر لهما من زوايا أخرى وثيقة الصلة بنشأة الجامعات في العصور الحديثة الأمر الذي له دلالاته المفيدة في تقويم صلة بيت الحكمة وتأثيره ليس في نشأة الجامعات الحديثة فحسب، بل ودورها الذي لم يعد يُضاهيه دور أيَّة مؤسسة ثقافية وعلمية أخرى.

لقد كان الخلاف في تحديد المعنى والدلالات التي ينصرف نحوها مصطلح (الحكمة) بين العلماء المسلمين وأقرانهم العلماء الأوربيين في مختلف العصور أحد الأسباب المهمة في تفاوت مجالات المعاهد المتخصصة بالدراسات العليا التي ظهرت في حقبة لاحقة لازدهار الحركة العلمية سواء أكان ذلك في الشرق العربي أم في أوربا. وعلى قدر تعلق الأمر ببيت الحكمة العباسي فقد بدا واضحاً أنَّ مجال اهتمامه أنصرف نحو تلك العلوم التي اختصت بها دائرة الحكمة المعرفية العربية الإسلامية وقُصد بها تحديداً العلوم الإلهية والعددية وصناعتي الطب والتنجيم.

نجح الشرق الإسلامي في احتواء العلوم الأجنبية بعد قرن على تأسيس بيت الحكمة العباسي ولاسيما حين ظهرت نتاجات العلماء العرب والمسلمين

في الفلسفة (الفارابي وابن سينا) والرياضيات (الخوارزمي وابن الهيثم) والطب (الزهراوي والرازي) والهندسة (البوزجاني وابن الهيثم) والفلك (البتاني والمجريطي)، بدت مسألة قيام معاهد علمية جامعة للعلوم اللغوية والدينية (العلوم الإسلامية) والعلوم الأجنبية (الفلسفة والعلوم الصرفة) كدليل على الاستيعاب الإيجابي لدلالات 'الحكمة' بمعناها القرآني الشمولي. واللافت للنظر أنَّ هذه الجامعة لم تظهر أول ظهورها، بعد تأسيس بيت الحكمة العباسي، في الشرق الإسلامي بل ظهرت في المغرب العربي ممثلةً بجامعة القرويين التي بدأت الدراسة فيها سنة 515هـ على عهد المرابطين. وكانت عمارة هذه المدرسة الجامعة قبل تطورها إلى وضعها هذا تعود إلى القرن الثالث الهجري عندما بدأ بناء جامع القرويين سنة 245هـ ثم توسعت عمارته في عهد الزناتيين ابتداءً من عام 345هـ.

وبذلك تكون مدرسة القرويين قد سبقت المدرسة المستنصرية التي أسست في بغداد بين عامي 625هـ/ 631هـ في نيلها لقب جامعة على أساس الاجتهاد أنَّ هذا اللقب لا بد أن تستحقه كلّ من هاتين المدرستين أي القرويين من قبل والمستنصرية من بعد، نظراً لأنَّ علماء المدرستين أنصرفوا لتدريس العلوم الدينية والفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية والرياضيات والطب والفلك.

أمَّا مدرسة الأزهر التي شهدت انقلاباً مذهبياً بعد قضاء صلاح الدين الأيوبي على الحكم الفاطمي، فإنَّها لم تنفتح على دراسة العلوم الأجنبية إلا في تاريخ لاحق متأخر.

ومن كلٍّ ذلك يمكن أن نستنتج أنَّ بيت الحكمة العباسي قد دفع بمؤسسة التعليم العالي الإسلامية بخطوات متقدمة جداً إلى الأمام يمكن إجمالها بالآتي:

1. إخضاع الدوائر العلمية العليا شبه المستقلة (حلقات العلماء) لتوجيه السلطة. فقد كانت المدرسة تتبع المعلِّم، إلا أنه منذ قيام بيت الحكمة أصبح المعلِّم يتبع المدرسة وصار هذا الاتجاه خطاً متصاعداً في مسيرة المدرسة في الشرق والغرب.

2. توجيه الانتباه نحو العلوم الأجنبية لتدريسها بنفس المستوى من الاهتمام الذي حظيت به العلوم الدينية واللغوية.

3. تطوير نظام إدارة جديد خاص بالتعليم العالي يتجاوز نظام حلقات المساجد القديمة، يتميز بوجود هيئة من الموظفين تتولَّى رئاسة المؤسسة ورئاسة الشعب العلمية بما في ذلك خزانة الكتب وقسم الترجمة وإدارة المرصد الفلكي وتحديد المرتبات ونوع الملابس وطريقة المحاضرات وأوقاتها وأماكن الصلاة والراحة.

4. إنَّ ظاهرة سكن الطلبة وبعض العلماء التي بدأت بإقامة أولاد موسى والخوارزمي في بيت الحكمة تحولَّت إلى نظام للسكن ولاسيما للطلبة والعلماء الوافدين، فصار ملحقاً بالمؤسسة التعليمية يتم الإنفاق عليه من قبل الدولة ومن الأموال الموقوفة على منفعة المؤسسة التعليمية.

المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية

أهتم الخلفاء بتأسيس المكتبات العامة وجمعوا فيها الكتب العربية والفارسية والمترجمة عن اليونانية والفارسية، كما أنشأوا المكتبات في المدارس

والمساجد، ولم يكن هذا غريباً لأنَّ الإسلام حضَّ على العلم، واستخدم العقل في أمور الحياة فقال تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (سورة الزمر: آية 9). وقد زاد من هذه النهضة العلمية والثقافية استخدام الورق في الكتابة وأعطوا الحبر ألواناً مختلفة وزخرفوا وجوه الكتب وذهبوها. ونشطت حركة التدوين والتأليف نشاطاً لم يعهده التاريخ إلا في العصر الحاضر. ونظراً لاهتمام المسلمين بالقرآن الكريم وتدوينه وضعوا النقط والشكل للحروف منعاً للحن في القرآن ووضعوا قواعد اللغة، فقد قام أبو الأسود الدؤلي بوضع النقاط على الحروف نقطة فوق الحرف للفتحة، ونقطة تحته الكسرة، ونقطة على خط استواء الكتابة للضمة، ونقطتان أمام يدي الحرف على خط استواء الكتابة للتنوين وأهمل السكون، ثم جاء نصر بن عاصم الليثي ونقَّط الحروف فجعل للباء نقط والثاء نقطتين والجيم نقطة في بطنها ثم وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي الشكل فوضع الضمة والفتحة والكسرة والتنوين وحلَّ أشكال النطق[206].

وبازدهار حركة التأليف والترجمة وخاصةً في بغداد عاصمة العباسيين ظهر الاهتمام بالكتاب وازدهرت هذه المكتبات تبعاً لتزايد أعداد الكتب وشغف الناس الشديد بالقراءة. وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه النهضة العلمية إلى جمع الكتب والمؤلَّفات وتكوين المكتبات الخاصة ببعض الأفراد وقد كانت في مجموعها صغيرة ولكن مكتبات الخلفاء وكبار رجال الدولة ما لبثت أن تحولت إلى مكتباتٍ عامة لخدمة طوائف معينة من القراءة. ولقد أوصى بها أصحابها أن تُحفظ في المساجد والمدارس حفظاً دقيقاً. وكذلك فإنَّ أساتذة معاهد العلم أهدوا مؤلَّفاتهم ومكتباتهم الخاصة إلى معاهدهم التي كانوا يُدرِّسون فيها[207].

تاريخ المكتبات في الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ العربي الإسلامي، فالمعروف أنَّ العرب قبل الإسلام عاشوا في الجزيرة العربية الإسلامية أحقاباً طويلة وهم في شبه عُزلة عن العالم رغم اتصالاتهم المحدودة مع الروم والفرس والأحباش عن طريق التجارة، وبشكلٍ عام كانت حياتهم بدوية متنقلة أمَّا علومهم فكانت تتناسب ومتطلبات حياتهم. ولم يهتم العرب قبل الإسلام بالتدوين، فقد اعتمدوا على الذاكرة في حفظ ونقل نتاجهم الفكري، وبالتالي لم يكن عند العرب قبل الإسلام سجلات مكتوبة، بحيث لا يمكن الحديث عن شيء اسمه 'مكتبة' ويمكن إن يُعزى ذلك إلى الأمّية وعدم توافر مواد للكتابة. بالرغم من ذلك فإنَّ قسماً منهم عرف الكتابة وكتب على عِظام الحيوانات وسعف النخيل والحجارة إلا أنه لم يصلنا شيء من ذلك[208].

لقد كان القرآن الكريم ولا يزال فتحاً جديد في تاريخ المعرفة الإنسانية، فهو قد رفع العلم والعلماء إلى أسمى منزلة، وأقسم الله في مُحكم آياته بالكتاب وبالقلم وما يسطرون، كما حضَّ القرآن على القراءة والتعليم في أول سورة نزلت على الرسول الأمين مُحمَّد بن عبد الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ومن هنا فليس بغريب أن توصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها كتب ومكتبات. وإذا كان المُصحف الشريف هو أول كتاب ظهر في لغة العرب، فقد بدأت حركة التأليف منذ منتصف القرن الأول الهجري، وشهد القرن الثاني ظهور الكتب وحركة تدوين التراث والتاريخ، متأثرةً في ذلك بطريقة كتابة الحديث، أي القرنان الهجريان الثالث والرابع رأينا ازدهار حركة التأليف خصوصاً بعد إقامة صناعة الورق في بغداد، ونظراً لحب المسلمين الأوائل للكتب والقراءة والعلم، وكنتيجة لاتصالهم بالثقافات الأجنبية التي وجدوها في البلاد التي فتحوها، انتشرت عندهم أنواع عدّة من المكتبات[209].

إنَّ تاريخ المكتبات جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية والفكر الإسلامي. ارتقت بارتقائه وساعدت على ازدهاره ونضجت معه وانحطت بانحطاطه. ولاغرو في ذلك فالإسلام العظيم دعا إلى المعرفة والى التعلُّم والى إنارة العقول بالقراءة والكتابة، وأنَّ أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى عبده ورسوله مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق – الآيات: 1 – 5).

إنَّ تاريخ الكتب عند المسلمين مهم جداً وأساسي لمعرفة تطور المعرفة الإنسانية عندهم، ذلك أنه لم تتفوق على المسلمين أمة من الأمم في حبهم للكتب والعناية بالمكتبات والمعرفة عامة. والمكتبات من أهم وسائل نشر المعرفة على مدى العصور وقد انتشرت المكتبات في الإسلام انتشاراً واسعاً، وهي وإن كانت ثمرة من ثمار الحضارة العربية الإسلامية إلا أنها تعكس في تاريخها هذه الحضارة التي كانت هي نفسها ثمرتها وأن الأطوار التي مرَّت بها هي أطوار الحضارة الإسلامية بشكلٍ عام. هذا ويُعد العصر العباسي عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية وفيه نضجت الحضارة الإسلامية وأينعت وآتت أُكلها وزخرت البلاد الإسلامية بالعلماء والتلاميذ والعاهد والمدارس. وكان للمكتبات من ذلك نصيب موفور إذ تبارى الخلفاء والأمراء والأفراد والوزراء والحكام والسراة في العناية بالمكتبات وفي تشجيعها، ونجد في هذا العصر جميع أنواع المكتبات[210].

أنواع المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية

عرفت الحضارة العربية الإسلامية أنواع عدة من المكتبات ومن تلك الأنواع ما يلي:

1. المكتبات الأكاديمية.
2. المكتبات الخاصة.
3. المكتبات الخلافية.
4. المكتبات العامة.
5. المكتبات المدرسية.
6. مكتبات المساجد أو الجوامع[211].

نبذة بإيجاز عن أنواع المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية:

1. **المكتبات الأكاديمية:** وهذه المكتبات من أشهر المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية وقد وجه الإسلام جلَّ عنايته إلى طلب العلم وجعل القرآن الكريم الأشخاص غير المتعلمين في عداد الأموات. ومن أشهر المكتبات الأكاديمية، مكتبة بيت الحكمة، ومكتبة مراغة التي أسسها المغول في أذربيجان.

2. **المكتبات الخاصة:** انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي بشكلٍ واسع وجيد بحيث يمكن القول بأن هذا النوع من المكتبات قد فاق في بعض الأحيان على غيره من الأنواع الأخرى. ومن أمثلتها مكتبة سعد بن عبادة الأنصاري التي حوت فيها كتباً طائفة من أحاديث الرسول (صلَّى الله

عليه وآله وسلَّم). ومكتبة الصاحب بن عبادة التي بلغت عشرات المجلدات، ومكتبة المستنصر الأموي.

3. **المكتبات الخلافية:** هي نوع من المكتبات انتشر على امتداد العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب وهذه المكتبات كان يُنشئها الخلفاء والأمراء والحُكَّام من أجل أنفسهم، وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمر والمحاضرات والعلوم المختلفة، كما كانت من أجل نشر مذهب يعتنقه الحُكّام والأمراء. ومن أمثلتها: تلك المكتبة التي أسسها السامانيون في بلاد خراسان، خزانة الكتب في العصر الفاطمي، مكتبة الحكم الثاني.

4. **المكتبات العامة:** هي مؤسسات ثقافية يُحفظ فيها تراث الإنسانية الثقافي وخبراتها ليكون في متناول المواطنين من كافة الطبقات والأجناس والأعمار والمهن والثقافات. ومن أمثلتها: مكتبة بني عمار في طرابلس الشام وكان لهم وكلاء يجوبون العالم الإسلامي بحثاً عن الروائع لضمّها إلى المكتبة، وكان بها خمسة وثمانون ناسخاً يشتغلون بها ليلاً نهاراً في نسخ الكتب[212].

5. **المكتبات المدرسية:** أولت الحضارة العربية الإسلامية اهتمامها بإنشاء المدارس من أجل تعليم الناس جميعاً وبها (أي المدارس) ألحقت المكتبات وهو الشيء الطبيعي المُكمِّل لهذا الرُقي والازدهار، وتقول النصوص التاريخية أنَّ أول من أسس مدرسة في الإسلام هو نظام المُلك وزير السلاجقة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ومن المكتبات أيضاً مكتبة ابن جبيرة، ومكتبة مدرسة الفاخرية في بغداد[213].

6. **مكتبات المساجد والجوامع:** إنَّ المكتبات في الإسلام قد نشأت مع نشأة المساجد، حيث يُعتبر المسجد من مظاهر الحضارة وعناصرها في الإسلامية

لأهميته الكبيرة في الحياة الدينية والسياسية والفكرية، ومن أمثلتها: مكتبة جامع الأزهر، كذلك مكتبة الجامع الكبير في القيروان[214]. وإذا كانت مكتبات المساجد تقوم بوظيفة المكتبات المدرسية والجامعية خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام، فقد زودت المدرسة المستنصرية النظامية في بغداد، في منتصف القرن الخامس الهجري بمكتبة ضخمة كان فهرسها كما يُقال يضم ستة آلاف مُجلَّد، واشتهرت بعض هذه المدارس مدارس أخرى كالمستنصرية لتكون جامعة تحمل أسم المستنصر العباسي فيما بعد[215].

الباب السادس

بيت الحكمة

ودوره في ظهور مراكز الحكمة في الأندلس

بيت الحكمة

ودوره في ظهور مراكز الحكمة في الأندلس

أسهم بيت الحكمة البغدادي في رفد الحركة الثقافية في الأندلس ودعمها وتشجيعها وتزويدها بالعلماء والعلوم والمؤلَّفات وحثِّها على الترجمة والتأليف، بفضل الروابط والاتصالات الثقافية بين الحاضرتين بغداد وقرطبة، إذ تتلمذ عدد كبير من طلبة الأندلس في مدارس بغداد والكوفة وواسط والبصرة وغيرها من المدن العراقية. ويعود الفضل الكبير في نقل الحضارة العراقية إلى الأندلس للأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (206 – 238هـ) وعاصر إنشاء بيت الحكمة في عهد الخليفة العباسي المأمون (198 – 218هـ)، ويؤكد المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال بأنَّ الأمير هو الذي أعطى مملكة قرطبة النظام العباسي. فاهتم الأمير بإرسال وزيره القاضي عباس بن ناصح الجزيري إلى العراق للحصول على الكتب القديمة، فأتاه للأندلس بكتاب (السند هند) وهو أقدم الكتب التي تُرجمت إلى العربية في الحساب والأعداد الهندسية. كما أنَّ النظام القرطبي يقتفي أثر النظام العباسي في الثقافة، وتكوين بلاط الأمير كان يدل على تقليده لخلفاء بغداد.

ويؤكد المؤرخ الأندلسي أحمد الرازي أنَّ أهل الأندلس كانوا يستقبلون بإعجاب أو في الأقل باحترام كل من مكان يأتي من بغداد، ونتيجة الحوادث السياسية في بغداد دخلت إلى الأندلس الكتب الفريدة والجواهر الثمينة كعقد الثعبان للأميرة زبيدة والأقمشة الغالية، وقد خاطر كبار التجار لإيصال النفائس والنوادر إلى قرطبة لثرائها، وولع أمراؤها بالمجوهرات والمصنفات، ويؤكد لنا ذلك حضور الفنان العراقي زرياب من بلاط الخليفة هارون الرشيد

إلى بلاط قرطبة في عصر الأمير عبد الرحمن الثاني ونقل معه معالم حضارة عراقية في الفن والأدب وتقاليد إجتماعية وأذواق حضارية أسهمت في نقلة حضارية سريعة في الأندلس.

أصبح المسجد الجامع في قرطبة الذي يحتوي في أروقته من الفن المعماري العراقي يزين جدرانه وسقوفه الخط الكوفي، أكبر أكاديمية في العالم تنافس بيت الحكمة البغدادي، و تخرجت فيه كوادر علمية خدمت الثقافة العربية الإسلامية. يروي ابن حزم القرطبي في حكايةٍ عابرة أنَّ علماء قرطبة واصلوا جهود علماء (بيت الحكمة)، وقد تشوق ابن حزم لزيارة بغداد فوصفها في قوله: "بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف والتدقيق في تصريف العلوم..." أكد المستشرق الاسباني إميليو كاريثه كومث في مقالته عن بغداد بالإسبانية ما كان للحضارة البغدادية من نفوذٍ طاغٍ على مدن أسبانيا التي لم تكن إلا صوراً للمدينة المشرقية. كما أظهر المستشرق الإسباني اسين بلاثيوس تأثر الفكر الفلسفي الأندلسي بالثقافة العراقية وغيرها. وكان لوصول أبي علي البغدادي القالي ومؤلَّفاته العديدة إلى الأندلس في عصر الخلافة، وقدوم الأديب صاعد البغدادي صاحب كتاب (الفصوص) دليل على إسهامات بيت الحكمة في النهضة في بلاد الأندلس.

ظهرت تطورات حضارية في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله بفضل حرصه واهتمامه بالحركة الثقافية، إذ حصل على كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني بمبلغ ألف دينار قبل ظهوره من أسواق بغداد، كما بنى مكتبة خاصة بالقصر كانت تحتوي على 400 ألف مُجلَّد للفهارس وتحتوي على أمهات المصادر في مختلف العلوم، وظهرت طبقة من الأطباء المرموقين أمثال

الزهراوي أكبر جرّاح في العالم آنذاك، وتتلمذ عدد من الأطباء في بغداد منهم أبناء يونس بن أحمد الحراني، وهما أحمد وأخوه عمر، وعملاً مذخراً لصناعة الأدوية في قرطبة على غِرار ما شاهدوه في بغداد و البصرة، وذلك في مدينة الزهراء.

أعجب الرحالة ابن حوقل البغدادي وكتابه (صورة الأرض) بما شاهده من حضارةٍ متطورة في قرطبة التي يُسمِّيها بغداد الثانية، كما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير البلنسي (ت 614هـ) بغداد وأعجب بمعالمها الحضارية، وزار بغداد أيضاً عدد كبير من العلماء والأدباء والفقهاء منهم الحميدي الميورقي، وأبو الوليد الباجي، وأبو علي الصدفي، والطرطوشي (أبي رندقة)، وابن سعيد المغربي، وأبو بكر بن العربي الأشبيلي وغيرهم. وظهرت من الأندلس عوائل علمية كما هو الحال في بغداد، واختصت بالعلوم والآداب منهم: بنو عاصم الثقفي، وبنو شريف الحسني وأصلهم من سبته واستقروا في غرناطة، وبنو مُخلَّد في قرطبة، وبنو عاصم في غرناطة، وبنو سماك في مالقة وغرناطة، وبنو عطية في غرناطة، والتقى علماء الأندلس وفقهاؤها وأدباؤها بأساتذة ومعلمي (بيت الحكمة) وطلبته وأخذوا عنهم وتتلمذوا عليهم وعادوا إلى الأندلس وهم يحملون الثقافة البغدادية والمؤلَّفات والتقاليد.

وتأثر حاكم قشتالة ليون والملك الاسباني ألفونسو العاشر **Al fonso** العالم بالثقافة المشرقية وأسس مدرسة للترجمة في طليطلة بعد سقوطها عام 478هـ على يد ملك قشتالة ألفونسو السادس، وذلك على غرار أسلوب (بيت الحكمة) برنامجها إذ أصبحت طليطلة تنافس بغداد في حركة الترجمة، واستمرت زهاء قرن كامل، كما ظهرت طبقة من المترجمين وتُرجمت مؤلَّفات

العرب في الطب والفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة ومن المترجمين الأسقف ريموند، ويوحنا الاشبيلي، والشمَّاس ماركوس الذي ترجم معاني القرآن الكريم، وهرمانوس المانوسي وترجم شروح ابن رشد على أرسطو، كما زار طليطلة مترجمون كثيرون منهم برونيتولابين أوفده ملك روما، وجيرار الكريموني الايطالي الذي ترجم رسالة الصبيان للرازي، كما ترجمت رسائل أخوان الصفا في الجغرافية والفلسفة و كتاب (التصريف) للزهراوي. وتُرجم أكثر من 70 مؤلَّفاً عربياً في الأندلس، كما وصل غروستست من أكسفورد بانكلترا.

شغف الملك ألفونسو العاشر بالثقافة العربية وولع بالفن والأدب والترجمة ودوَّن موسوعة كبيرة تحتوي على لوحات مصورة من التراث العربي احتوت على 427 لوحة منها (51) لوحة عن المسلمين وتراثهم، يُلاحظ على بعض اللوحات التأثر العراقي من رسوم للفنان الواسطي ولوحات من مقامات الحريري ومعالم الحياة المشرقية ومجالسها الأدبية، ويبدو أنَّ الرسامين كانوا من المشرق والأندلس.

ومن المترجمين من العربية إلى اللاتينية ناثان المثوي وسليمان بن يوسف وجيوفاني دي كابوا، وترجم اصطفيان (الاقربازين) لابن الجزار، كما ترجم ارمنجو ارجوزة ابن سينا وشروحها لابن رشد القرطبي وترجم ادلر الباثي الإنكليزي فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات، كما ترجم الراهب الإسباني سرفيتوس نظريات ابن النفيس في الدورة الدموية، وترجم ابن عزرا اليهودي من العربية إلى العبرية مؤلَّفات البيروني. واشتغلت أسرة طبون في

ترجمة العربية إلى العبرية إعجاباً بالتراث العربي الإسلامي واهتماماً واستفادةً منه لخدمة البشرية.



الموسيقى والغناء في الأندلس

الموسيقى الأندلسية موسيقى شرقية عربية أثّرت في الموسيقى الإسبانية المحلية وتأثرت بها منذ الفتح العربي الإسلامي. والموسيقى الأندلسية هي خلاصة المعطيات الفنية لعناصر بشرية من عربٍ وبربرٍ وصقالبة تعايشت مع السكان المحليين في ظل الحكم العربي الإسلامي للأندلس. ثم كان لهذه الموسيقى تأثير قوي مباشر في جنوبي فرنسة فأوربا.

كان العرب قد تأثروا بالموسيقى الفارسية منذ فجر الإسلام حين كانوا يستمعون إلى ألحان الفرس الذين كانوا يعملون في المدينة، كما أفادوا من المعرفة الموسيقية عند الإغريق. وكانت العلوم المختلفة، ومنها الموسيقى القديمة، قد أتت أوربا عن طريق الباحثين الإسلاميين الذين حافظوا على كتابات اليونانيين بنقلها إلى العربية، وكانوا هم الذين أكتشفوا النظريات الموسيقية اليونانية فتمثلوها وأغنوها بأنواع الموسيقى الشرقية الأخرى قبل نقلها إلى أوربا، إذ لم يكن الباحثون الأوربيون يعرفون من كتابات أفلاطون وأرسطو في ذلك الحين إلا القليل، وكانت تلك المعرفة مقتصرة على قلّة من الترجمات من اليونانية إلى اللاتينية. ولكن أوربا اللاتينية عرفت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مؤلّفات الفلاسفة العرب الذين حافظوا على مؤلّفات اليونانيين، وقد تُرجمت مؤلّفات الفارابي إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وكان الفكر العربي قد التقى الفلسفة الأوربية عن كثب إبان الحروب الصليبية وفي أثناء الحكم الإسلامي في الأندلس. ويُعد أديلارد الباثي الإنكليزي، رائداً في دراسة فلسفة العرب وعلومهم، وقد كتب تعليقاً على الكتاب العربي (زيجات الخوارزمي ورسائل فلكية) وتناول في هذا الكتاب الموسيقى وفقاً لما كان متبعاً

في الدراسات الأكاديمية في العصر الوسيط، وكذلك أصبح كثير من الكتب العلمية العربية التي ترجمت إلى اللاتينية كتباً مدرسية في المؤسسات التعليمية الأوربية. ومما يُذكر أنَّ أول كلية للموسيقى في أوربا كانت في سلمنقة Sal amanca (القرن 13)، وكذلك مدرسة الترجمة في طليطلة، وأصبحت دراسة الموسيقى في المعاهد الأندلسية جزءاً من العلوم الرياضية، وكان يحضرها طلاب من مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك.

ظلّت الحاضرتان الكبيرتان بغداد وقرطبة على اتصالٍ دائم، على ما كان بينهما من تنافسٍ سياسي، وكان أبناء المشرق والمغرب يتبادلون الزيارات فيلتقون في مجال الفكر، ويتنازعون في ميدان السياسة، وكان لهذه الزيارات المتبادلة أثرها البعيد في ازدهار العلوم والآداب والفنون.

كان لزرياب (ت 230هـ/ 845م) أثرٌ كبير في تطور الموسيقى الأندلسية، فعندما غادر بغداد إلى الأندلس أخذ يوازن بين أنواع الموسيقى الأندلسية وألوانها ويُضيفها إلى ثقافته الموسيقية النظرية والتطبيقية فجاء بغناءٍ لم تعهده الأسماع حتى ذلك العصر. ثم جاء ابن باجّة فمزج غناء النصارى بغناء المشرق، وجاء بعده ابن جودي وابن الحمراء فزاد الألحان تهذيباً. وكان أبو الحسين بن الحاسب المرسي خاتمة هذه الصناعة. وزرياب هو مبتدع منهج جديد نما تحت الشكل الرمزي لشجرة فنية سُمّيت بشجرة الطبوع أو شجرة الصيغ modes لتُشير إلى مختلف الأشكال اللحنية mel odi c. فالمشرق تبنّى كلمة (مقام)، ويرجع المقام إلى درجة الأساس t oni c، وتبنّت الأندلس كلمة أكثر اتساعاً وهي (الطبع) التي تلخص ارتباط الإنسان بالأحياء والأشياء، ويكمن الاختلاف بين المدرستين المشرقية والمغربية في كون الأولى تقنية، والثانية

روحانية. ويُقال أنَّ زرياب كان يحفظ عشرة آلاف من الأغاني بألحانها، وقد وضع أسلم بن أحمد بن رشيد كتاباً عن أغانيه.

وضع القدماء أوتار العود على عدد الطبائع الأربع في الجسد فزاد زرياب الخامس الذي يقوم مقام النَفْس، وجعله متوسطاً وصبغه بالأحمر وأسماه الوتر الأوسط الدموي، كما صنع منقر العود من قوادم النسر عوضاً عن رقيق الخشب.

قامت شهرة زرياب أيضاً على مدرسته الموسيقية التي أسسها في قرطبة، والتي أصبحت معهداً للموسيقى الأندلسية، ومركز حضارة رائعة لفنٍ عربي أندلسي امتدت أصوله إلى مجمل أقطار المغرب العربي، ولاسيما مراكش والجزائر وتونس، فكان تلاميذه من مشاهير أعلام الموسيقى الأندلسية. وكانت العادة قبل زرياب، في تعليم الغناء، أن يكرر اللحن عدة مرات حتى يتم للتلميذ المغني أخذه على تمامه. أمَّا زرياب فقد جعل طريقته في التعليم في ثلاث مراحل: يتعلَّم التلميذ في المرحلة الأولى ميزان الشعر ثم يقرؤه وهو ينقر على الدف ليدل على مفاصل الميزان وليبين مواضع الحركات في تبيانٍ لمواضع القوة والضعف في الميزان، وفي المرحلة الثانية يتعلم التلميذ اللحن بسيطاً مجرداً من كل زخرفةٍ وتنميق، أمَّا في المرحلة الثالثة فيتعلَّم التلميذ الزخرفة وما يتبعها من إظهار للعواطف والأحاسيس. وكان زرياب يُخضع تلاميذه للاختبار، قبل البدء بتعليمهم، فيجلسون على مقاعد عالية ويصيحون بكل ما في صدورهم من قوة(يا حقام) وقيل (يا حجام)، أو يصيحون قائلين (آه) ممدودة على جميع درجات السلم (ر. الموسيقى)، وبذا يتم اختيار ذوي الموهبة والاستعداد الطيب لتعليمهم. وكان إذا لوحظ في صوت التلميذ لين رخو شُدَّ على بطنه

شال العمامة حتى يقوى صوته، وإذا كان لا يستطيع أن يفتح فاه إلا بقدر لعيب خلقي فرض عليه أن يدخل في فيه قطعة خشبية عرضها ثلاث أصابع ينام بها طوال الليل. وكان أولاد زرياب العشرة، الذكور منهم والإناث، أوائل تلاميذ معهده، وكانوا كلهم حراساً لصناعة الغناء وعاملين على إشاعته في الأندلس.

وكما حصل امتزاج بين الأنماط الغنائية العربية الجاهلية والموسيقى الفارسية في المشرق العربي، فقد حصل امتزاج آخر في الأندلس بين موسيقى المسلمين الفاتحين من عربٍ وبربر، والموسيقى الإسبانية المحلية. ونتيجة هذا التمازج الفني في مجال السلالم والمقامات، أصبح الجنس **tetrachord** (المؤلَّف من أربعة أصوات متتابعة) أساساً لدراسة المقامات – أي الطبوع – ولكل طبع منها سمات خاصة. ونتيجة لذلك، وضعت دساتين **frets** قليلة ومتباعدة محددة على زند العود الأندلسي بما يشبه تلك التي ترى على زنود الآلات الوترية الأوربية الحديثة المحددة التصويت مثل الماندولين **mandoline** والغيتار **guitar**.

شغف الأندلسيون بالغناء، كأهل المشرق العربي، فابتدعوا نوعين من الشعر الخاضع للتلحين هما: الموشح والزجل. وانبثق الموشح في القرن الثالث للهجرة في مبدعات مُحمَّد بن حمود القبري وتابع تطوره في مبدعات الآخرين، وبدأ الشعر حينذاك يحرر نفسه فبعد أن كان الوشاحون يلزمون بحوراً لا تتجاوز الستة عشر، أربت هذه على مئة، وصارت أوزان الموشحات على غير عروض شعر العرب. وقد لجأ الملحنون إلى صوغ الألحان أولاً، ومن ثم ركَّبوا عليها المقطوعات الشعرية المتجاوبة والمتناسقة مع الألحان الموضوعة، وظهر

بذلك الملحن الشاعر الذي كان يصوغ اللحن ويُنظم الشعر المناسب لـه، ولهـذا قيل إنَّ المشارقة كانوا يُخضعون الموسيقى للـشعر في حـين كـان المغاربـة، علـى النقيض من ذلك، يُخضعون الشعر للموسيقى. ويتألَّف الموشح عادةً من مقطـع يُسمَّى (بدنيّة) يُقاس عليها المقطع الثاني تلحيناً، ويعقب ذلك ما يُـسمَّى بالخانـة أو السلسلة أو الدولاب، وكل مقطع أو قسم مخالف للآخـر في الـتلحين. ومـن أشهر الوشاحين: ابن زُهر، وابن باجّه، وابن سهل الإشبيلي، ولسان الـدين بـن الخطيب، وابن زَمْرَك.

وقد وجد الزجل في الأندلس إلى جانب الموشَّح، فحرر الزجـالون الـشعر مـن القافيـة الواحـدة والأوزان الـشعرية المحـدودة، ولم يتقيـدوا بقواعـد النحـو وحركات الإعراب ولم يتورعوا عن إدخـال الكلمـات الأعجميـة في أزجـالهم. فالزجل أو الموشح فن شعري غنائي واحد تقريباً من ناحية البناء اللغـوي، غـير أنَّ الموشَّح يُطلق على الفصيح المعرَّب والزجل على العامي الدارج.

كان لفن الزجل الذي اتسم بالبساطة وطبع على الفطرة صـداه البعيـد في المجتمع الأندلسي. وكثير مـن الأغـاني الـتي تـأثرت بالغنـاء الأندلـسي الـشعبي كانت من نـوع **cante hondo** (أو **jondo**) وكلاهمـا يعـني الغنـاء العميـق. وتتصف هذه الأغاني بالإعادات الكثيرة مع تزيينـات وتجمـيلات **fioritura** مبالغ فيها مع استعمال قفزات لحنية كانت تُعدّ غير مقبولة في الـصيغ الأوربيـة. أمَّا غناء الفلامنكو **cante flamenco** فهو أغاني الغجر ورقصهم. وهو فـرع مـن النـوع الأول. ومثـل ذلـك يُقـال في الترانـيم الـتي كانـت ضـمن شـعائر المـستعربين **mozarabic rite**. وشـارك الزجـل الموشـح إلى حـدٍّ كـبير في موضوعات الحب والمديح والمجتمع وغير ذلك. أمَّـا الأغـاني الـتي كـان يرددهـا

التروبادور troubadours في العصر الوسيط في جنوبي فرنسة (وأسمهم باللغة المحلية provencal) ففيها أسماط وأغصان تُشابه مثيلاتها في الأندلس، وقد تشابهت أغانيهم بقوافي الزجل وموضوعاته الدنيوية. ومما يُشار إليه هنا التأثير والتأثر في آنٍ واحد بين الغناء الأندلسي والغناء الغريغوري والكانتيغات cantigas وهي أغانٍ دينية شعبية انتقلت مكتوبة إلى أرجاء أوربا ويرجع الفضل في حفظها إلى الملك ألفونسو الحكيم الذي اهتم كثيراً بالتعليم العربي في إسبانية المسيحية.

وقد سبب انتشار الزجل، المجد والصيت الواسعين للشاعر المغني ابن قزمان (ت555هـ/ 1160م)، وهو أحد أوائل الشعراء الجوالين قبل الأوربيين، وأعماله في الزجل وصلت في مدة ثلاثة أشهر فقط إلى بغداد ولاقت هنالك نجاحاً كبيراً.

وتحت تأثير قالب الأغنية الشعبية الأندلسية في المذهب (الدور) burden-refrain الذي كان يُعاد قبل كل مقطع جديد (غصن) stanza وبعده، ظهرت أنواع أخرى شاعت في عصر النهضة الفرنسية كالنشيد الاحتفالي ode، والأغنية الروائية التي كانت قبلاً من الرقصات الشعبية (بالأد) ballade. وفي المغرب العربي ما زال يُطلق على الموسيقى الأندلسية في تونس اسم (المالوف)، وفي الجزائر (الغرناطي)، وفي المغرب (الآلة).

والنوبة (ر. الأغنية) قالب من قوالب التأليف الموسيقي يتناوب فيه الغناء والموسيقى، وقد يكون مقتصراً على الموسيقى الآلية وحدها. وتتركب سلسلة الألحان على نظامٍ واحد وقواعد محددة، وجميع ألحان النوبة الواحدة تكون عادةً من الطبع الذي تحمل اسمه. وقد ورثت أقطار المغرب هذا الابتكار

الأندلسي عن طريق السماع والتلقين، وبذا فَقَدَ كثير من النوبات بعض أجزائها واندثر عدد كبير منها. وقد لجأ أهل المغرب العربي إلى جمع ما استطاعوا من النوبات أو إلى دمج أقسام منها في نوبات أخرى، ويُطلقون عليها اسم (اليتايم) وعددها عندهم اليوم إحدى عشرة، ويُقال إنها كانت في الأصل أربعاً وعشرين بعدد ساعات اليوم. ويرجع الفضل في الحفاظ على هذه النوبات إلى أقطار المغرب العربي؛ تونس والجزائر والمغرب.

وقد تعددت الآلات الموسيقية في الأندلس كما ورد ذكرها في الدراسات المرجعية وحمل قسم كبير أسماء كثيرة وبقيت أوصافها غامضة ومشوشة في معظم الأحيان. فالعود، مثلاً، وردت له أسماء عدة، ومن المُحتمل أن تكون هذه التسميات لأعواد مختلفة لكل منها خصائصه المميزة. وكان يُطلق على العود قبلاً (البَرْبط) نسبةً إلى الموسيقي الفارسي (باربد)، ولما صُنع وجه قصعة هذه الآلة من الخشب (أي من العود) سُمِّي عوداً بعد أن كان يشد على قصعته جلد حيوان. وانتقل أسمه إلى اللغات الأوربية بألفاظ متشابهة: (بالإسبانية **laud**، وبالإنكليزية **lute**، وبالفرنسية **luth**، وهكذا). وكذلك آلة الرباب ذات القوس **rebec** أو **rebecca** (وتسميات أخرى مشابهة) دخلت إلى أوربا، وظلت قوسها بشكل قوس الصياد حتى القرن 15م. وتعد الرباب أساساً لآلة الكمان **violin**. والمزمار المُسمّى (الزُلامي) على شكل قصبة مفتوحة الطرفين ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل به على غرار الآلة اليونانية أولوس **aulos**. والشبابة هي قصبة جوفاء بثقوب مثل الناي. أمَّا القيثارة التي يُطلق أسمها على القيثار، فهي بالإسبانية **guitarra** وباليونانية **kithara** أو **kitharis** كما سمّاها هوميروس. ولفظة قيثارة في الأصل أخذها اليونانيون من سورية. ولعلَّ ما يُسمَّى بالبوق هو ما يُعرف بالترومبا المستقيمة (بالفرنسية

trompe droite، وبالإنكليزية قرن الصيد hunt horn). وقد جاء وصف لآلــة سميــت بالــشقير وردت بالفرنــسية (choqqar أو choqra أو échiquier) بأنها صغيرة الحجم وذات ملامس سوداء فبيضاء على التوالي توضع على منضدة أثناء العزف. ومن المعتقد أنَّ هذه الآلة هي إحدى مبتكرات زرياب في الأندلس. وقد تكون بحسب الوصف سابقة لآلة الكلافيكورد clavichord، جدة آلة البيانو، المتطورة عنها في القرن الخامس عشر. أمَّا آلة الشاهرود أو الشهرود فقد تكون السولتيري psaltery الوترية الشبيهة بالسنطور zither. ويبدو الأصل العربي كذلك واضحاً في تسمية الآلات الإيقاعية الكثيرة والمتنوعة. فالطبل، مثلاً، سُمّي بالإنكليزية القديمة tabor، وبالإيطالية taballo وبالفرنسية tanbour، والنَقارة بالفرنسية nacaire وبالإيطالية naccara، وكذلك الدُف المُسمّى بالإسبانية أدوفه adufe.

اشتهر في الأندلس كثير من الموسيقيين والمغنين وعلى رأسهم ابن الحاجب الشاعر والملحن والمغني، وولأّدة بنت المستكفي الشاعرة والمغنية، والصقلّي المغني، والطبيب يحيى بن عبد الله الذي كان يجدد في تكوين الفرقة الموسيقية المصاحبة لغناء الزجل وذلك بإدخال آلات النفخ النحاسية، وابن الحمراء الملحن والعازف البارع. ولكن المؤلّف الأكثر عمقاً كان الفيلسوف ابن باجَّه وهو في الوقت نفسه عالم نظري وعازف ماهر ومغنٍ بارع، وقد ألَّف كتاباً يُلخص فيه المعارف الموسيقية مما يضعه في صفٍ واحد مع الفارابي. أمَّا الآخرون الذين عُرفوا بكتبهم ورسائلهم التي ضاع منها الكثير فيذكر منهم: أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني ومُحمَّد بن الحداد، ويحيى بن الخُدُج، وابن

سناء الملك، وأحمد بن مُحمَّد الإشبيلي، ولسان الدين بن الخطيب، وابن خلدون، وابن الحائك، والمقرِّي.

لم يتوقف تأثير الحضارة العربية الإسلامية في أوربا عند التأثير الموسيقي، بل تعداه إلى كثير من العلوم والمعارف والفنون الأخرى التي كانت الأساس والمنطلق للنهضة الأوربية. وكان تأثير العلوم الموسيقية الأندلسية واضحاً في الأوربيين، إذ إن وفود الطلاب الأوربيين إلى الأندلس في قرطبة وغيرها من المراكز والمعاهد الموسيقية في المدن الأندلسية الأخرى وإيابهم إلى أوطانهم كان سبباً آخر في انتشار الفنون الموسيقية العربية في أوربا، فترجموا كتابات العرب في علم الموسيقى إلى اللاتينية وبعض اللغات الأوربية الأخرى. كما كان للزجل الأندلسي تأثير جلي في الشعر الأوربي ولاسيما المكون منه من ستة أبيات تكون قوافي الثلاثة الأخيرة هي قوافي الثلاثة الأولى ذاتها. وكذا ظهور طبقة المغنين الجوالين الفرنسيين الذين قلَّدوا الزجالين الأندلسيين. ويبدو كذلك كثير من التقاليد والأوضاع الموسيقية الأندلسية واضحة في الموسيقى والغناء والرقص الإسباني الحديث الذي يتصف بالخفة والرشاقة والتفنن في الحركات، وصلصلة صنوج الراقصات على أنغام الإيقاعات الموسيقية المختلفة.

قرطبة مدينة الكتب والحضارة

إنَّ الازدهار العلمي والحضاري الذي عرفته الأندلس عامة وقرطبة خاصةً لم يشهد له مثيل في التاريخ، فقد فتح المسلمون أسبانيا، وأسسوا بها حضارة عريقة أيقظت البشرية من غفوتها ومهدت لتطوير وتنوير العالم بصنوف المعرفة والعلم والأخلاق، فبهرت البشرية بتطورها وشدَّت لها الأنظار

وشغفت بها العقول للإستنارة من قبسها، فكانت حقاً ملتقىً للعلم والحضارة والأدب، حضارةً أرسى دعائمها الإسلام، الإسلام الذي شجع على العلم والبحث والفكر والأخلاق، الإسلام الذي به شُيِّدت المساجد، وأروع القصور، أجمل الحدائق، وشُقَّت به الطرقات، وتنافس فيه العلماء لاقتناء العلم والمعرفة من كل مدن الأندلس. ونتاجاً لذلك أسست المكتبات، ودواوين النسخ والترجمة، ومخابر البحث والتجريب في كل مكان. وتعتبر مدينة قرطبة أحد أهم هذه الرموز الحضارية الساطعة في التاريخ، لما اشتملته من صنوف العلم والمعرفة، فقد كانت قبلةً للعلماء، والمفكرين والأدباء، خصوصاً أنَّ بها مكتبة عريقة عُرفت بمكتبة قرطبة، يوجد بها مختلف الخرائط، والوثائق المهمة، والتجارب العلمية، وأخبار العلماء والأدباء وأخبار التاريخ والفقه والسيرة...الخ، كما أنها اشتملت على أمهات الكتب وأندرها وأشهرها في ذلك العصر بل أنها توفرت على كتب بعدة لغات ومن شتَّى بقاع العالم في ذلك الوقت.

مكتبة قرطبة:

أنشئت هذه المكتبة في عصر مُحمَّد الأول عام 238 – 273هـ/ 853 – 887م. ثم تطورت في عهد الحكم الثاني، وقد كانت مكتبة الحكم رصيدها ثلاث مكتبات هي: مكتبة القصر التي اشتملت على ما جمعه أسلافه، ومكتبة أخيه مُحمَّد التي ورثها بعد وفاته، ومكتبته الخاصة التي جمعها من كلِّ حدبٍ وصوب، وأخذ الحكم في تنمية مجموعات المكتبة الجديدة حتى بلغ عددها أربعمائة ألف مُجلَّد. وعندما تولَّى الحاكم الأموي عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس عام 300 – 350هـ/ 913 – 962م. والذي اشتهر بحبِّه للكتب

حتى بلغت شهرته الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي لم يجد شيئاً يتقرب به إلى قلب الناصر حينما عزم على عقد معاهدة معه سوى أن يُهديه كتاباً جديداً لم يعرفه من قبل وهو كتاب ديسقوريدس، وكانت هذه النسخة رائعة حيث كُتبت بحروفٍ من ذهب وزُيِّنت برسومٍ جميلة، وحب الناصر للكتب جعله يهتم بمكتبة القصر الملكية وذلك بتزويدها بكل ما هو نفيس من الكتب. وفي تلك الأيام بدأ كل من ولديه الأميرين الحكم ومُحمَّد دراستهما تحت إشراف معلمين من أهل البلاد وخارجها، وقد زاد شغفهما بالكتب إلى درجة قوية جعلتهما لا يرضيان عن مكتبة أبيهما، وبدءا يتنافسان في طلب العلم ويتناغيان في جمعه ويتباريان أيهما يستطيع أن يجمع مكتبة أكثر عدداً وأفضل اختياراً من الآخر، وعندما توفي مُحمَّد آلت كتبه لأخيه الحكم وورثها عنه.

وفي عام 350هـ/962م. تولَّى مسؤولية الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان شغفه بالكتب والمكتبات ومقدار اهتمامه بالعلم والعلماء كبيراً، فجعل الحكم كل هدفه السير بالأندلس قُدُماً في طريق العلم والمعرفة فوجَّه الحكم جلَّ اهتمامه إلى بناء وتنمية مكتبته الخاصة فنشر رجاله في كل مراكز الثقافة الإسلامية يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات ويدفعون أغلى الأثمان بغية الحصول عليها، بل وكانوا يصادقون تجار الكتب في كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو بسبيله إلى الصدور وكان يحدث كثيراً أن يشتروا الكتب من مؤلِّفيها أو ناشريها لتصدر في الأندلس قبل أن ترى النور في بغداد أو الموصل أو البصرة أو مصر حيث كان الحكم يجد متعة في أن يكون أول قارئ لما يصدر من الأبحاث الجديدة.

وللأسف كان مصير هذه المكتبة نفس مصير المكتبات المشرقية من الحرق والسلب والنهب والتخريب، ذلك أنه بعد وفاة الحكم ولي الأندلس المنصور ابن أبي عامر وقد أراد أن يرضي العامة والفقهاء في زمانه فأخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية وأضرم فيها النار في الميدان العام في قرطبة.

ولم يقف أمر هذه المكتبة عند هذا الحد فقد ضعفت الأندلس بعد وفاة المنصور وبدأت في التفسخ وقد تعرضت قرطبة لحصار البرابرة واحتاج الحاجب واضح مولى المنصور ابن أبي عامر إلى المال فأخرج أكثر الكتب من المكتبة وباعها، وما تبقى منها نُهب وحرق عندما اجتاح البرابرة قرطبة.

لم يكن للمكتبات عند إنشائها أبنية مستقلة خاصة، بل كانت المكتبة جزءاً غير مستقل من مبنى المؤسسة التي تنشأ في كنفها، فكانت مكتبة الحكم تشغل إحدى أجنحة قصر الخلافة بقرطبة وكان هذا الجناح هو ما يُعرف في التاريخ باسم مكتبة الحكم أو مكتبة قرطبة الأموية، وعندما ضاقت غرف المكتبة بما تحويه من كتب، علاوةً على عدم استيعابها للزيادة المطردة من الكتب كان من الضروري أن تنقل المكتبة في مكانٍ آخر، وقد استغرقت عملية النقل ستة أشهر كاملة. وكان المبنى الجديد يضم عدداً من الأقسام منها قاعة الكتب وهي أصل المكتبة، ومركز البحث والتأليف، ومركز النقل والترجمة، ومركز التدقيق والمراجعة.

وكانت تشمل القاعة الرئيسية في مبنى المكتبة، عدداً كبيراً من الكتب التي كان يجمعها الأمراء ويشترونها ويعتبر المصدر الأهم في جمع الكتب حيث كانوا يتنافسون في الحصول على الكتب ونوادر المخطوطات ويدفعون فيها أموالاً طائلة. وقد وصل عدد المُجلَّدات نحو أربعمائة ألف مُجلّد، ولقد بلغ عدد

فهارس بها في أسماء دواوين الشعر فقط (44) فهرساً، بكل فهرسة عشرون ورقة. واهتم الحكم المستنصر بهذه الكتب عنايةً كبرى، فجمع في قصره حذاق النسَّاخين، والمهرة في الضبط، والمجيدين في التجليد صيانة لكتبه.

لقد كان المستنصر يجد في طلب الكتب والبحث عنها في كل مكان خصوصاً النادرة منها والمهمة، فقد بعث المستنصر في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ودفع إليه فيه ألف دينار، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يظهر في بغداد. كذلك ألَّف له كتاباً يتضمن أنساب قومه بني أمية، وقد فعل المستنصر ذلك أيضاً مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، ومع مُحمّد بن القاسم بن شعبان بمصر، ومُحمّد بن يوسف الوراق الذي صنَّف له كتاباً ضخماً في مسالك أفريقية وممالكها، وأبي عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن يحيى بن مفرج. وكان يُعين هؤلاء الكُتَّاب بالمال على كتابة مصنفاتهم، كما كان لا يتردد في مساعدتهم عن طريق إعارتهم ما كانوا يحتاجون إليه من مصادر، فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب تاريخ مصر والمغرب كتاباً استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه المذكور، في القسم الخاص بالأندلس. فضلاً عن ذلك كانت تأتي كتب أجنبية من البلدان الأخرى هدية إلى حكام المسلمين، ومن المصادر أيضاً الوقف وكان يمثل مصدراً في إثراء المكتبة بالمجموعات القيّمة من الكتب، حيث كان الحُكّام والمحكومون شديدي الرغبة في وقف الكتب على مختلف معاهد التعليم وإنشاء المكتبات بها حتى ينالوا الأجر والثواب من الله على ذلك وإفادة طلاب العلم من جهةٍ أخرى. وكان تنظيم المكتبة من الداخل يعتمد على الفهارس الموضوعية، وقد بلغت

هذه الفهارس التي فيها تسمية الكتب وأسماء المؤلّفين نحو أربعة وأربعين فهرساً لكل موضوع، وفى كل فهرس عشرون ورقة.

إنَّ المتصفح لحقب تاريخ الأندلس يجده حافل بصنوف العلم والحضارة، الحضارة التي شكّلها المسلمون بأخلاقهم الحميدة وحبهم للعلم والعمل، وما دليل ازدهار قرطبة وتطورها من مدينة صغيرة ليس لها شأن إلى مدينة عريقة وذات حضارة بقيت معالمها إلى اليوم لدليل راسخ على فضل العلم والأخلاق في ذلك، وقد ساهمت مكتبة قرطبة في ذلك الوقت إسهاماً كبيراً في نشر العلم والمعرفة، لما وفرته من أمهات الكتب وأندرها، وأكثرها غزارةً بالمعارف، كما أنها شكلت همزة وصل بين المشرق والمغرب فكانت مكاناً يلتقي فيه كبار العلماء ويتهادون فيه أندر الكتب، ويترجمون، وينسخون ويدققون ويستفيدون من محتوياتها.

وتعتبر الكتب التي احتوتها مكتبة قرطبة من أهم الكتب وأكثرها تطوراً وإفادة في ذلك الوقت، نظراً لكثرتها ولتنوعها وتنوع علمائها من المغرب والمشرق، ولولا أنَّ معظم الكتب إن لم نقل كلها قد اندثرت وحرقت، لكانت خير دليل على ذلك، كما أنَّ فن عمارتها كان جميلاً جداً حسب المؤرخين لولا أنه دُمِّر، وليس لنا إلا أن نستشهد بجامع قرطبة الذي ظلت معامله شاهدة إلى اليوم في أسبانيا على فترة قادت فيها هذه الأمة الأمم جمعاء.

تنظيم المكتبة

كانت مكتبة الأمويين في قرطبة داراً علمية بمعنى الكلمة، فلم تكن مجرد دار لخزن الكتب وفهرستها على نحو ما هو مألوف الآن فقط، وإنما نُظِّمت

تنظيماً دقيقاً لتوفر الغاية المرجوة منها، وقد أُقيمت هذه المكتبة بقصر الخلافة في قرطبة[216]. وإن كانت المصادر التي وقعت بين أيدينا لم تمدنا بمعلوماتٍ وافية عن وصف بناء المكتبة، إلا أنه من المُرجَّح أنَّ بناءها قد لقي عنايةً فائقة من الناصر الذي عُني بقصر قرطبة عناية عظيمة، حتى قيل إنه لم يبق فيه بنية إلا وله فيها أثر مُحدث إما بتجديد أو بتزييد. وحسبك ببناء يتسع لأربعمائة ألف كتاب فكيف يكون اتساعه وعدد حجراته ؟ لقد كانت عدد غرف مكتبة الخلفاء الفاطميين أربعين غرفة في قصورهم الداخلية[217]. فمن المُحتمل أن تكون عدد غرف مكتبة الأمويين في قصر الخلافة مساوياً له إن لم يفقه عدداً، وقد زودت بالبسط والسجاجيد والستائر والمقاعد، ونُظِّمت حجراتها على نحو يكفل الراحة لروّادها، فكانت هناك غرفاً للمطالعة وأخرى من أجل المناظرات والاجتماعات والبحث، ومخازن خاصة لخزن الكتب قد أعدت إعداداً خاصاً، ونوعاً آخر من الغرف تضم الهيئات العاملة في المكتبة عن النسّاخين والرسّامين والخطاطين والمترجمين والمدققين. وغيرهم، وقد زودت هذه الحجرات بما يلزم العاملين من أحبار وأوراق وأدوات كتابية وأصماغ وأصباغ. ولعلَّ في وصف المقري لمكتبة الحكم وإن كان مختصراً ما يعضد وصفنا لها: "وقد جمع في قصره الحُذّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد فأوعى في ذلك كله.." (نفح الطيب، جـ1، ص386). وسوف نقوم الآن بوصفٍ سريع لأهم أقسام المكتبة لنقف على كيفية إعداد الكتب فيها.

أ. قسم الترجمة

يضم هذا القسم أعداداً كبيرة من المترجمين المجيدين للغات الإغريقية واللاتينية والأسبانية وغيرها، وكان أغلبهم من النصارى والصقالبة واليهود، وقليل من المسلمين، نذكر منهم: عبد الله الصقلي، ومُحمَّد النباتي، والبسياسي، وأبا عثمان الخزار الملقب باليابسة، ومُحمّد بن سعيد، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، وحسداي بن شبروط خوليان ريبيرا[218]. وقد ساهمت هذه المجموعة في ترجمة كتاب الطب الذي أهداه إمبراطور الروم إلى الخليفة الناصر، وكان الخلفاء الأمويون يعتنون بهذا القسم أشد الاعتناء، يُجزلون العطاء للعاملين فيه مما ساعد على ترجمة العديد من الكتب الإغريقية في مجالات الطب والهندسة والفلسفة والفلك وغير ذلك في مجالات العلوم المختلفة.

ب. قسم التدقيق والمراجعة

يعمل في هذا القسم نُخبة من العلماء المعروفين بغزارة علمهم ودقة استنباطهم وحذقهم في القياس، والضاربين بقسطٍ وافر في اللغة والأدب وعلوم الدين وعلوم الحياة، كلٌ حسب تخصصه ومواهبه، وكانت مهمة هذا القسم مراجعة الكتب وتصحيحها والتعليق عليها بعد نقدها وتفنيدها، نذكر منهم: الرباجي مُحمَّد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي، وكان ضليعاً في علم النحو، وقد استأدبه الخليفة الناصر على ابنه المغيرة، وفي عهد الحكم زاول مهنة المراجعة والتدقيق في مكتبته وأوسع له هذا الخليفة في الجراية والعطاء ابن القرضي.

ومن المدققين أيضاً مُحمَّد بن أبي الحسين الفهري القرطبي، ومُحمَّد بن مُعمَّر الجياني، وكانا خبيرين في النحو وعلم اللغة، وقد كلفهما الحكم بتدقيق وتهذيب ما لم يهذبه أبو علي القالي من كتابه 'البارع في اللغة' حيث قام المؤلف بتصحيح كتاب الهمزة وكتاب العين، ثم توليا المدققان الباقي منه بالتصحيح والتهذيب، ولما اكتمل الكتاب، خرج بخطٍ فصيح في مائة وأربعة وستين جزءاً وعدد أوراقها أربع آلاف وأربع مائة وست وأربعون ورقة، ورفعاه إلى الحكم المستنصر الذي قام هو أيضاً بالمقابلة بينه وبين كتاب العين للخليل بن أحمد، وأضاف عليه إضافاتٍ أخرى خوليان ريبيرا[219].

جـ . قسم الورّاقين

يضم هذا للقسم مجموعاتٍ كبيرة من الورّاقين الذين يقومون بنسخ الكتب وتزيينها بالصور وتجليدها ثم عرضها في المكتبة، نذكر منهم الأديب اللغوي مُحمَّد بن أبي الحسين الفهري، وعباس بن عمرو بن هارون الصقلي، الذي عيَّنه الحكم وراقاً في مكتبته، وكان يأنس إليه كثيراً ويوسع له في الرزق.

ومما ساعد على ظهور مهنة الوراقة هذه والتي لعبت دوراً بارزاً في تكوين مكتبة الأمويين ظهور الورق وانتشاره في الأندلس، حيث تأسس أول مصنع لصناعة الورق عام 950م في مدينة شاطبة ينتج جمع أنواع الورق بما فيها الأيض والملوّن[220]. والذي ساعد بطبيعة الحال على تأليف الكتب، وسهل تداولها بين الناس، جعل أهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة رواية المقدسي عن (أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ3، ص13).

وأعمال النسخ من الأعمال الأساسية للورّاقين، وقد أعدت لهم غرف خاصة، زودت بمستلزمات النسخ من مقاعد ومحابر وأقلام وأوراق، ويشترط فيمن يمتهن مهنة النسخ جودة الخط ووضوحه وصحته، وأن يكون على حظٍّ كبير من المعرفة والثقافة، حاضر الذهن يقظاً متنبهاً لما يكتب، معروفاً بالأمانة والصدق بين الناس.

وطريقة النسخ المتبعة غالباً أن يقوم الناسخ بنسخ المخطوط مباشرةً من مخطوطٍ آخر أمامه، فإذا انتهى من نسخه يدفعه إلى قسم المراجعة والتدقيق للتأكد من صحّة ما نسخ، وإذا ما طلب أكثر من نسخة كان يجلس مجموعة من النُسَّاخ بعدد النسخ المطلوبة، ويُملي عليهم شخص آخر من المخطوط المُراد نسخه، ثم تدفع النسخ جميعها للمراجعة والتدقيق[221]. فإذا ما انتهى النُسَّاخ من عملهم تمر الكتب على قسم الزخرفة لتزيين صفحاتها وتحليتها بالذهب والفضة وبعض الرسومات الجميلة، ثم تمر بعد ذلك إلى قسم التجليد ليبطن بعضها بالديباج والحرير، ثم تُجلَّد بالأدم الجيد المجلوب من مدينة مالقة بالأندلس، والتي كانت من أكبر مراكز صناعة الجلود الفاخرة والتجليد الممتاز[222].

د. قسم الفهرسة

يقوم هذا القسم بفهرسة الكتب التي في المخازن وتصنيفها وتنظيمها حتى يسهل تناولها واستعمالها، وقد كانت مكتبة الأمويين مرتبة حسب المواضيع، فقد كان لكل موضوع فهارسه الخاصة، وهو نظام قريب من الفهرسة الموضوعية السائدة الآن في بعض المكتبات، ويتميز هذا النوع من الفهرسة بالسهولة وسرعة حصر محتويات المكتبة، فهي مكتوبة في مُجلَّدات تستعمل

كالكتب يمكن الرجوع إليها بسهولة، فلا غرو أن يرد في بعض الروايات العربية حصراً لأمهات الكتب في مكتبة الحكم، فيروي المقري نقلاً عن ابن حزم أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين. وهذه الفهارس هي على ما يبدو فهارس الدواوين الشعرية، فكيف يكون إذن سائر الموضوعات من فلسفة وعلوم دينية ونحوية وتاريخية وطبية وعلمية..الخ.

هـ . قسم التأليف

مهمة هذا القسم الإشراف على تأليف الكتب لحساب المكتبة الأموية، وينحصر عمله في اتجاهين: تلقي المؤلفات من خارج الأندلس، أو يوصى بالتأليف لأحد العلماء المبرزين في الأندلس، ومن أمثلة الاتجاه الأول مراسلة أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني للحصول منه على أول نسخة من هذا الكتاب، كما وضحنا سابقاً، بل كانوا في بعض الأحيان تتم مراسلة مع المؤلِّف نفسه وإغرائه بالهجرة أو الرحيل إلى الأندلس، كما حدث مع أبي علي القالي صاحب كتاب (الأمالي) الذي ترك العراق ورحل إلى الناصر الأموي واستقبله استقبالاً طيباً في قرطبة، وكان يتم الاتصال بين المؤلِّفين في المشرق الإسلامي عن طريق بعض الرُسُل المبعوثين على نفقة الخلافة الأموية، وكان أغلبهم ممن يمتهن الوراقة ولهم دراية بصناعة الكتب، وينتشرون في البلدان لانتخاب غرائب التواليف والبحث عنها ومن جملة هؤلاء الرُسُل: مُحمَّد بن طرخان في بغداد، وأبو إسحاق مُحمَّد بن القاسم بن شعبان، وأبو عمر مُحمَّد بن يوسف بن يعقوب الكندي في مصر، وهما من أكبر فقهاء

المالكية، وكان الحكم يدر عليهما أموالاً كثيرة لاقتناء الكتب النادرة التي تظهر لدى علماء مصر.

ومن أمثلة الاتجاه الثاني، وهو تكليف بعض علماء الأندلس التأليف في تخصصات معينة، أبو عبد الله بن مُحمَّد بن أحمد بن يحيى الذي ألَّف للحكم كتباً في الفقه. ومُحمَّد بن الحارث الخشني، الذي ألَّف لمكتبة الأمويين مجموعة ضخمة من الكتب منها تاريخ قُضاة قرطبة وقد نقل عنه ابن الفرضي في كتابه (تاريخ علماء الأندلس) كثيراً في تراجم الرجال، ومن كتبه أيضاً: فضائل الإمام مالك، ومناقب سحنون، وفقهاء المالكية، وتاريخ الأفريقيين، وكتاب الرواة عن مالك، وكتاب التعريف وكتاب الاقتباس، وكتاب المولد والوفاة، وكتاب النسب، وأغلب هذه الكتب تعد من كتب الطبقات التي تثبت غزارة علم الخشني وقوة إدراكه بالأخبار وأسماء الرجال وأنسابهم. ومن مصنفات الخشني في الفقه: كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتاب رأي مالك الذي خالفه فيه أصحابه وكتاب الفتيا، وكتاب المحاضر، وكتاب التحاصر والمُغالاة، وهذه المجموعة من كتب الفقه على ما يبدو كانت بتكليف من الناصر الأموي وابنه الحكم؛ لتدعيم المذهب المالكي مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في الأندلس، وذلك للوقوف أمام دُعاة المذهب الإسماعيلي الذي حاول الفاطميون في الشمال الأفريقي تسريبه إلى الأندلس.

أثر المكتبة الفكري في شعوب غرب أوربا

قبل الحديث عن الأثر الحضاري الذي تركته مكتبة الأمويين في شعوب غرب أوربا، أود أن أثير نقطة هامة كان لها الفضل الأكبر في هذا التأثير الحضاري، وقد أشار إليها كثير من المؤرخين المنصفين من الغرب، وهي سياسة

التسامح الحكيمة والهادفة التي سار عليها الأمويون في الأندلس مع رعاياهم من النصارى واليهود، حيث لم يستثنوهم من تولّي الوظائف العامة بما فيها العمل في قصر الخلافة ومكتبته الكبرى، فقد كانت تعيش طوائف مسيحية ويهودية كثيرة العدد في عاصمة الخلافة، تمارس طقوسها الدينية في حريةٍ تامة، وينعمون بالأمن والرخاء في ظل حماية الدولة الإسلامية لهم، ويشاركون المسلمين في حياتهم العامة، فسرت إليهم العادات الإسلامية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية وآدابها، وكتبوا بها مؤلَّفاتهم العلمية، وشاركوا مشاركةً فعّالة في خدمة الكتب والحركة العلمية في الأندلس، فقد كان منهم مترجمون ونسَّاخون ومجلِّدون، واقتنى الكثيرون منهم مكتباتٍ كبرى أغلب كتبها باللغة العربية، ولعلَّ هذه النعمة التي نعم بها هؤلاء المسيحيون الأسبان في ظل الحضارة الإسلامية في الأندلس، والتي شهد بها المطران "الفيرو القرطبي" al varo de cordoba عندما أصبح مطران العاصمة، وكان متعصباً لبني جلدته حيث كتب يقول: "... من الذي يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين بديننا على دراسة الكتب المقدسة، أو يرجع إلى كتاب أي عالمٍ من علمائها ممن كتبوا في اللغة اللاتينية؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرُسُل ؟ إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حباً باللغة العربية، يبحثون عن كتبها ويقتنونها، ويدرسونها في شغفٍ، ويعلقون عليها، ويتحدثون بها في طلاقة، ويكتبون بها في جمالٍ وبلاغة، ويقولون فيها الشعر في رقةٍ وأناقة. يا للحزن! مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولاتينيتهم، وينسون لغتهم نفسها؛ لأنَّ الفصاحة العربية تسكرهم، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلماً عليه، وتستطيع أن تجد جمعاً لا يُحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية".

ولعلَّ في شهادة هذا القس المتعصب ما يُقيم دليلاً قوياً شهد به أعداء الإسلام، على ما تتميز به الحضارة الإسلامية من طابعٍ إنساني رفيع، فهي تكفل للإنسان إنسانيته مهما كان جنسه ودينه، ولا تسلبه حقوقه الإنسانية في طلب العلم والتعلُّم، وفي الوقت الذي فتح فيه الأمويون أبواب مكتباتهم وجامعاتهم العلمية أمام كل طالب علم، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم، نرى أبناء المسلمين اليوم يُعانون كثيراً من الأزمات في طلب العلم وتحصيله، حيث تقوم بعض المؤسسات العلمية في الغرب بحبس الكثير من النتائج العلمية ولاسيما في مجالات العلم والتكنولوجيا، وتناسى هؤلاء القوم أنهم تعلَّموا على أيدي علماءٍ بررة، لا يكتمون علماً ولا يحبسون أسراره عن أحدٍ عملاً بقول نبي الإسلام (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): "من سُئِلَ عن علمٍ فكتمه ألجمه الله بلجامٍ من نار يوم القيامة"، فشتان إذن بين حضارتين: حضارة ترى العلم فرض كفاية إن لم يوجد في الأمة من يقوم به أثمت الأمة جميعها فلا تحول بينه وبين طلابه من أجل إسعاد البشرية، وحضارة تضنُّ به وتقصره على أبنائها من أجل السيطرة والاستعلاء.

ولم يقتصر التأثير الفكري على نصارى أهل الأندلس، بل امتد ليعم أثره شعوب غرب أوربا قاطبةً، وهذه حقيقة لا مراء فيها، فتُشير الروايات إلى تأثر الإيطاليين والألمان والفرنسيين بمؤثرات الفكر الإسلامي عن طريق صقلية والأندلس إبان القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. فقد نقل شاباط بن إبراهيم، وكان يهودياً، علوم الطب من (بالرمو) عاصمة صقلية إلى شبه الجزيرة الإيطالية، وفي سنة 953م بعث الإمبراطور أوتو الكبير "جان غورتز" في بعثة سياسية إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأندلس، وقد مكث فيها ثلاث سنوات تعلَّم أثناءها اللغة العربية، وعندما رجع إلى ألمانيا حمل معه مجموعة

كبيرة من الكتب العربية، ويُرجّح الدكتور محمد ماهر حمادة أن بعضها كان كتباً علمية، مستدلاً على ذلك بالازدهار الملحوظ في دراسة العلوم خلال القرن الحادي عشر[223].

كما كانت كثير من المدن الأندلسية مراكز علمية كبرى ساهمت في نقل الفكر الإسلامي إلى أوربا، مثل قرطبة، أشبيلية، بطليوس، بلنسية، سرقسطة، طليطلة، وقد شهدت الأخيرة أكبر حركة لتأثر الأوربيين بالفكر الإسلامي، فقد غصت مكتباتها وجوامعها بالكتب العربية في شتّى العلوم المختلفة، ولاسيما العلمية، وأُنشئت فيها مدرسة للترجمة من العربية إلى اللاتينية أغلبها من اليهود والنصارى الذين يُجيدون اللغتين، وقاموا بنقل العديد من المؤلَّفات العربية ولاسيما بعد سقوط هذه المدينة في أيدي ألفونسو السادس الذي شجع حركة الترجمة هذه، ولم يأتِ القرن الثالث عشر إلا وكانت معظم المؤلَّفات العربية تدرس في أوربا[224].

ويكفينا في هذا المقام شهادة أنجل جنثالث بالنسيا **pal enci a** مؤلِّف تاريخ الفكر الأندلسي والذي نقله عن الأسبانية الدكتور حسين مؤنس يقول: إنَّ الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوربا يرجع إلى ما كتبه العرب. العرب الذين كانوا يبعثون بالسفراء لاستجلاب الكتب القيّمة ما بين إغريقية ولاتينية، ويُقيمون المراصد لدراسة الفلك، ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم بالتاريخ الطبيعي، ويُنشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشتّى صنوفها[225].

وبعد، فهذه مكتبة الأمويين في قرطبة، وقد نُظّمت تنظيماً علمياً على نحو ما رأينا، فكانت لؤلؤة زمانها، وسراج العلم في عصرها، ولا غرو في ذلك، فإنَّ

دورها في توطيد الصلات العلمية بين المشرق الإسلامي ومغربه لا ينكر، وتأثيرها الفكري في شعوب أوربا لا يُجحد.



مدرسة بالرمو للترجمة

كانت، مدينة بالرمو عاصمة صقلية وقاعدة ملوكها أيام حكّام المسلمين والنورمان والجرمان وتقع على ساحل الجزيرة الشمالي. ويُفهم من كلام الإدريسي أنّه كان يوجد بوسط بالرمو مدينة إسلامية قديمة تُعرف بـ(الخالصة)، كانت مقر السلطان وجنوده أبان الحكم الإسلامي، وكان المسلمون يعرفونها بأسم المدينة، والنصارى يعرفونها باسم بالرمو، ثم غلب الأسم القديم بالرمو على المدينة كلها بعد ذلك. ولقد زارها ووصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون أمثال ابن حوقل البغدادي (ت 380هـ)، و الشريف الإدريسي السبتي (ت حوالي 548هـ)، ولابن جبير البلنسي الأندلسي (ت 614هـ). وهكذا كانت بالرمو حاضرة صقلية في العصر الوسيط، وقد قامت فيها في القرن الثالث عشر الميلادي (7هـ) مدرسة للترجمة عن العربية على غرار مدرسة طليطلة في شمال أسبانيا. وتوطدت بين المدرستين علاقات ثقافية تبودل فيها الكتب والترجمات فضلاً عن العلماء.

هذا، ومن المعروف أنَّ معاني القرآن الكريم تُرجمت إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أو السادس الهجري. كذلك، تُرجمت قصة الإسراء والمعراج، بأمرٍ من الملك الإسباني ألفونسو العالم، إلى اللغات القشتالية والفرنسية واللاتينية، وانتشرت في أسبانيا وإيطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي (7 هـ)، ولم تلبث هذه الترجمات أن انتقلت إلى جامعات باريس ونابولي وبولونيا. على أنّه يُلاحظ أنَّ حركة الترجمة في مدرسة بالرمو، اتجهت في معظمها – على غرار مدرسة طليطلة – إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعية. وكان من أهم ما تُرجم فيها على سبيل المثال كتب ابن

سيناء **Avi cenne** (ت1037م) (مثل كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الفلسفة. وكتب أبي بكر مُحمّد الرازي **Razes** (ت 932م) مثل كتاب الحاوي في الطب...الخ. وكان من أعلام المترجمين فيها أوجين البلرمي **Eugeni us** وليوناردو البيزاني **Leonar do pi sano**. ولعلَّ من مظاهر هذه النهضة العلمية، آلاف المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما إلى الآن. وممن تردد على مدرسة بالرمو العالم الاسكتلندي مايكل سكوت **M Scot t** أحد تلاميذ مدرسة طليطلة الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد عليها. ومن المُحتمل أنّه تعرَّف على الإمبراطور فردريك الثاني الذي أزدهرت مدرسة بالرمو في عهده.

وهكذا كانت جزيرة صقلية في العصر الوسيط، هي المعبر الثاني الذي عن طريقه أنتقلت الحضارة الإسلامية إلى الفكر الأوربي. وينبغي أن نكرر ما قلناه دائماً من أنَّ الباحثين ورجال العلم المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة أو مترجين، ولكنهم عدلوا التراث الكلاسيكي، وأعادوا خلقه وأخرجوا منه ثقافة جديدة عليها طابع الإسلام. وعلى هذه الصورة نقلوها إلى عقول أوربا التي جاءت تطلب العلم في أسبانيا وصقلية.

طليطلة ومكانتها العلمية

أنجبت طليطلة العديد من رجال العلم والأدب والدين، منهم: أبو الوليد بن الوقشي. وقد لقيه صاعد بتلك المدينة عام 438 هـ وكان يجمع إلى علوم اللغة والفقه معرفةً بصناعة الهندسة والمنطق؛ وأبو جعفر بن منيح أحد المعتنين بعلم الهندسة والمنطق والنجوم والطب؛ والقويدس الذي تأدب في طليطلة وبرع في علوم العدد والهندسة والفرائض، ودرس في تلك المدينة زمناً طويلاً؛ وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبيّ النقاش المعروف بولد الزرقيال، وكان بصيراً بعلم الفلك. قال فيه ابن الأبار: "ولم تأتِ الأندلس بمثله، آخر أرصاده بقرطبة، وكان أكبر رصده قبل ذلك بطليطلة في أيام المأمون"[226].

ومن المشتغلين بالعلم أيضاً في طليطلة، أبو عامر بن الأمير المقتدر بن هود. وكان يُضيف إلى معرفته بالعلم الرياضي اهتماماً بالمنطق والعلم الطبيعي والإلهي. ومن المهتمين بالطب ابن البغونش. وقد درس على علماء قرطبة فأخذ علم العدد والهندسة عن مسلمة المجريطي، وعلم الطب عن ابن جلجل وابن عبدون الجبلي وغيرهما، ثم خدم الظافر بن ذي النون والمأمون... ومن مشاهير الأطباء الذين استوطنوا طليطلة، ابن وافد اللخمي. وقد ألّف كتاباً في الأدوية المفردة جمع فيها بين كتابي ديوسقوريدس وجالينوس. وكان يرى أنّ التداوي بالغذاء مقدَّم على التداوي بالدواء. أمّا صاعد بن أحمد الطليطلي الذي ولّي قضاء طليطلة ليحيى بن ذي النون، وهو مشهور بمؤلَّفه التاريخي "طبقات الأمم"، فقد كان من الحكماء والفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والحكمة. تتلمذ على ابن حزم في قرطبة[227].

سقوط طليطلة وأهميتها للأسبان

لقد كان استيلاء ملك ليون وقشتالة على مدينة طليطلة سنة 1085 م من أهم أحداث التاريخ الإسباني في العصور الوسطى: (فقد كان له نفس الصدى الذي حدث عن سقوط هذه المدينة، يوم كانت عاصمة القوط الغربيين القديمة في أيدي المسلمين)[228]. ونظراً للمكانة العظيمة التي أصبحت تحظى بها هذه المدينة عند الأسبان بعد استرجاعها، فقد أمتد أسمها إلى مناطق كثيرة في أمريكا الجنوبية والشمالية والفلبين والبرتغال إلى أن وصل إلى ستة وثلاثين من الأماكن والمدن التي تحمل الأسم نفسه (طليطلة Tol edo).

يرى بعض الباحثين العرب أنه لحسن حظ العرب والثقافة والحضارة العربيتين، أستولى النصارى على مدينة طليطلة. فكما كان من الضروري على العرب فتح الأندلس ومدَّ جسر بينهم وبين الغرب، كان من الضروري أيضاً أن تسقط مدينة طليطلة في يد ألفونسو السادس (الأدفونش)، وفي التاريخ الذي سقطت فيه أي عام 1085م. ولو تأخرت خمسين سنة عن السقوط، لما أتيح للعرب أن يؤدوا دورهم الثقافي والحضاري في العالم الغربي. ولو تأخر استرداد مدينة طليطلة خمسين سنة، لما استفاد الغرب شيئاً من الثقافة العربية واليونانية، بل كان الغربيون لجأوا إلى ترجمة الثقافة اليونانية من مصدرها اليوناني...، لأنه من المعروف أنَّ الثقافة اليونانية وصلت إلى الغرب عن طريق العرب، أي أنَّ العرب كانوا قد نقلوا الحضارة اليونانية إلى العربية، ثم جاء الغربيون، ونقلوا هذه الحضارة من العربية إلى اللاتينية في مدينة طليطلة[229]. ومن الحقائق التاريخية الثابتة أنَّ إسبانيا كانت المعبر الأكثر أهمية الذي تسربت منه الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوربا.

طليطلة ومدرسة المترجمين

ظلت طليطلة حتى بعد زوال الحكم الإسلامي محتفظةً بالحضارة العربية الإسلامية: وقد غلبت العروبة على نصارى طليطلة، ولبثوا نصارى؛ ولكن اتخذوا اللغة العربية والثقافة العربية لأنفسهم، وكانوا يُقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنيسية باللغتين العربية واللاتينية، وأطلق على هذا الطقس الكنيسي اسم (الطقس المستعرب)... وظل سكانها متمسكين بعروبتهم، ولبث أخذهم وعطاؤهم وبيعهم وشراؤهم وجميع صكوك معاملاتهم باللغة العربية حتى أواخر القرن السادس عشر، ورغم أنهم طوال وجودهم تحت الحكم العربي، كانوا كثيري العصيان والتمرد والثورات على حكام قرطبة[230].

ويؤكد المؤرخ الإسباني خواكين بالبيه، أستاذ اللغة العربية في جامعة مدريد المركزية: أنه بعد سقوط طليطلة، ظلت اللغة العربية لغة رسمية لأكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة. وهناك أكثر من ألف وثيقة تمت كتابتها في تلك المدينة بعد سقوطها، ويُشير إلى أن أكثرها متعلّق بالمعاملات الخاصة بالمورسكيين الذين ظلوا في المدينة ولم يغادروها[231].

وبالرغم من كل ما اتخذته السلطات المسيحية الحاكمة فيما بعد من تعنت وقهر وتعذيب لإرغام المسلمين الذين فضلوا البقاء في طليطلة على التنصير، فقد بقوا مسلمين في سرائرهم محافظين على شعائرهم الدينية، وأصبح المسلمون شبيهين بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان، وكانوا يجتمعون سراً ويتناقشون في أمور دينهم خفية حتى لا يُعرف أمرهم. واستمروا على هذه الحالة إلى أن أصدر الملك فيليبي الثاني يوم 7 نوفمبر سنة 1566م قانوناً بموجبه يمنع التكلم باللغة العربية ويقضي على التقاليد العربية وحطم

الحمامات، كما ألزم المسلمين المتضررين بمقتضاه بترك أبواب منازلهم مفتوحة بصفة دائمة لكي يقع تفتيشها في كل وقت وحين لكي يتحقق المسيحيون من عدم أداء المسلمين لشريعتهم الإسلامية خفية إذا خلوا إلى أنفسهم"[232].

أمّا دورها الثقافي، فقد استمر في العطاء، فأصبحت وسيطاً من أهم وسائط الثقافية العربية الإسلامية إلى جميع أرجاء القارة الأوروبية، حيث أدرك ألفونسو السادس أهميتها وفاعليتها في هذا الميدان، لأنها سرعان ما تحولت إلى دار ترجمة كبيرة للثقافة العربية الإسلامية إلى اللاتينية، حيث توافد عليها الباحثون والمتعطشون للمعرفة من مختلف أنحاء أوربا. فقد كان من أهم أعمال ألفونسو السادس: تأسيسه لمدرسة المترجمين التي عهد إليها بنقل أمهات الكتب العربية في مختلف العلوم إلى اللغة اللاتينية وبالسهر على إشاعتها... وقد استعان على نقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية بكبار المتخصصين من المسلمين واليهود والنصارى، لأنَّ اللاتينية كانت لغة الدين والدولة والعلم في الممالك النصرانية كافة... وقد كان لهذه المدرسة دور هام في إيقاظ أوربا من سباتها العميق وإخراجها من ظلمات الجهل والتعصب إلى نور العلم والمعرفة، بما تناقله العلماء بشتَّى الأقطار من نتاج الحضارة العربية وما اقتبسوه عنها من وسائل البحث وطرائق الاكتشاف، وبفضل ما استخرجوه من الكتب... ويقول رواة التاريخ الإسباني خلال هذه القرون السبعة الأخيرة: إن أولئك العلماء من مسلمين ويهود قد نهضوا بالمهمة المسندة إليهم على أحسن وجه بما أنجزوا من عمل النقل وتعليم الترجمة والإشراف عليها فكان فضلهم على النهضة الإسبانية عظيماً"[233].

وكان من أهم رجالها في هذه الفترة الراهب رايموندو (Raymond) (1126 – 1157م)، الذي أدرك أنه لا مفر من معرفة كنه العلوم الإسلامية التي لا تعرف المسيحية منها آنذاك إلا القشور، ووضع خطة لترجمة أمهات الكتب العربية ترجمة علمية عن طريق النخبة من المستعمرين الوافدين على إسبانيا والمستقرين بها من اليهود والمسلمين والدارسين لشتَّى العلوم الإسلامية وعلى رأسها الفلسفة، وبلغت الكتب التي ترجمها ما يزيد على خمسة وسبعين كتاباً وموسوعة. وكان فعله هذا حدثاً حاسماً كان له أبعد الأثر في مصير أوربا، كما يقول إرنست رينان: فقد تولَّى الأسقف رايموندو رعاية جماعة من المترجمين والكتاب، تعرف في تاريخ الأدب بمدرسة المترجين الطليطليين (Toledanos Colegio de Traductores)، وحفز، أفرادها على المهمة في نقل المؤلفات العربية. فتمت في هذه المدرسة ترجمة عيونها في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة، ومنها أورجانون أرسطو وشروح المسلمين عليه أو مختصراتهم له، وهي شروح ومختصرات جليلة وضعها فلاسفة مسلمون من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد[234].

ومن بين أشهر الوافدين إليها جيراردو دي الكرموني (Gerardo de Cremona) الذي وفد إليها من إيطاليا، حيث أمضى حوالي ثلاث وأربعين سنة من حياته في الترجمة والتأليف، ووصل ما نقله من العربية إلى اللاتينية سبعة وثمانين كتاباً في الفلسفة والمنطق والطب والفلك وغيرها من العلوم.

ألفونسو العاشر ومدرسة المترجمين

ظلت طليطلة مركزاً للثقافة الإسلامية في إسبانيا النصرانية في عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب بالعالم والحكيم (El Sabio)، الذي اعتلى العرش سنة 1245م وتوفي سنة 1284م. وكان فعلاً عالماً محباً للثقافة ومجالسة المهتمين بها. مارس سياسة انفتاح على الأدب والفكر الشرقيين. ورغم مخاصمته العرب سياسياً، فقد بلغ الاهتمام بالثقافة العربية في عهده ذروته: فكان علمي التفكير، ونظرته إلى الثقافة نظرة إنسانية شاملة، وهو يفصل في أعماق الحقيقة بين قوميته الإسبانية، وبين قيمة الحضارة العربية العظيمة، التي حاول أن يُحافظ على معطياتها، ورغم ما بدأت تتميز به تلك العهود في الممالك الأخرى من حقد على العرب... وظلت إسبانيا في عهده مستعربة إلى حدٍّ بعيد، وتعاون هو شخصياً مع العلماء المسلمين، واستفاد من تركة العرب الثقافية... استفاد من علومهم وآدابهم... ومثل خلفاء العرب أحاط نفسه بالأدباء والعلماء[235].

وبهذا يكون ألفونسو العاشر قد اقتفى أثر العرب في إقبالهم على نقل تراث الفرس والإغريق إلى اللغة العربية أيام خلافة المأمون العباسي الذي اعتنى بالترجمة والتأليف انطلاقاً من بيت الحكمة الذي أنشأه والده هارون الرشيد ببغداد، حيث جمع فيه المؤلَّفات العربية والمخطوطات للترجمة، وشكل مجموعة من المترجمين لنقل العلوم من اللغات اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والآرامية. وأسند هذا الملك العالم مهمة ترجمة الكتب العربية القيِّمة بالأندلس إلى اللغة الإسبانية الناشئة آنذاك إلى أساتذة المدرسة الطليطلية المشهورة وطلابها، وكان من بينهم نفر من النصارى والمسلمين واليهود المتحققين بشتَّى العلوم حوله. وقد أشرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة

والتحرير أو التلخيص التي كان مساعدوه يقومون بها، وأنشأ في مرسيه معهداً للدراسات بمعاونة القرطبي الفيلسوف المسلم، ولم يوفق هذا المعهد المرسي كثيراً، فنقله إلى أشبيليا وأنشأ فيها مدرسة عامة للاتينية والعربية، وجعل فيها أساتذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم[236].

وقد تُرجمت في عهده العديد من المؤلَّفات إلى اللغة الإسبانية كان أهمها كتاب 'الإنجيل' و كتاب 'كليلة ودمنة' وكتاب 'التلمود' وقسم من مؤلفات ابن رشد. وأمر الملك ألفونسو كذلك بترجمة كتب في ألعاب شرقية ككتاب 'الشطرنج' **Juego de Ajedrez** (نشره آرنالد تشايجر في زيوريخ عام 1941م) واستخدم الموسيقى الأندلسية في وضع أناشده الذائعة الصيت (**Las Cantigas**)[237].

وكان لهذه الترجمات التأثير الحاسم على الثقافة الأوربية. فهذا رينان يقول عن توما الأكويني: إنه كفيلسوف مدين تقريباً بكل شيء لابن رشد'، ويقول عن معلم توما الأكويني ألبيرتوس الكبير: إنه مدين بكل شيء لابن سينا'، علماً بأنَّ المترجمين باستثناء اثنين منهم هما غند سللبو ويوحنا الإسباني كلهم أجانب نقلوا ما ترجموه إلى بلدانهم، وتأثر علماء العصر بهذه الترجمات، بحيث أنَّ الذين نبغوا في القرون الوسطى كان نبوغهم بتأثير الثقافة العربية: البرتوس ماغنوس، توما الأكويني، يوحنا الصليبي، دانتي، روجير بيكون وغيرهم كلهم تأثروا بالثقافة العربية[238].

أمَّا في ميدان التأليف، فقد كان جهده عظيماً بحيث جمع في طليطلة نفراً من أهل العلم ليُصنِّفوا له كتب علم الفلك. وقد تمكن هؤلاء العلماء من النهوض والتقدم بالدراسات الفلكية بفضل مشاهداتهم ونقولهم وما قاموا به من أعمال علمية أخرى. وكان الملك كثيراً ما يُشرف بنفسه على الأعمال التي كانت تجري في

مدرسته الطليطلية، وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة ويقوم بترتيبها بنفسه وخاصةً ما يقول منها بنظريات جديدة تعدل مذهب بطلميوس في الفلك والجغرافية. وأمر كذلك بصنع آلات وأجهزة لم تكن معروفة إلى ذلك الحين. وكان يراجع ما ينجز من الترجمات ويصلح من أسلوبها، ويتجلّى ذلك بوضوح من مقدمة ما يُعرف بـ (الأوامر الخاصة) بكتب النجوم الأربعة. فقد جاء فيها: هذا هو كتاب "هيئات النجوم الثابتة الكائنة في السما الشافية"، مما أمر بترجمته من الكلدانية والعربية إلى الإسبانية الملك دون ألفونسو... بعد أن رتبها الملك المذكور وأمر بتصنيفها ثم استبعد منها الآراء التي وجد أنه قد تقادم بها العهد أو تكررت في الكتاب، والعبارات التي لم يكن أسلوبها قشتاليّاً قومياً ووضع محلها عبارات أخرى تفي بالمراد. أمّا كتب علم الفلك هذه، فتتألف من: (الكتب الأربعة في نجوم الفلك الثامن). (الكتب الألفنسية في أجهزة علم الفلك وأدواته وكتبه). (كتاب الزيج الألفونسي).

إنَّ الكثير من الكتب التي استعملت في هذه التآليف كانت نقولاً عن الزرقالي ومسلمة المجريطي وعلي بن خلف فلكي المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وغيرهم كثير. كما نشطت في عهده وتحت إشرافه كتابة التاريخ على الطريقة الحولية اقتداءً بالطريقة الإسلامية في تدوين التاريخ، فدونت عدة حوليات من أشهرها "الحولية التاريخية الكبرى لإسبانيا" التي كتبت باللغة القشتالية، واعتمد واضعوها على مصادر تاريخية عربية ككتاب "البيان الواضح في الملم الفادح" للمؤرخ البلنسي ابن علقمة المتوفى سنة 1115م. وهذا الكتاب مفقود، ولكن نقل عنه عدد من المؤرخين اللاحقين أمثال ابن عذاري المراكشي وابن الأبار وابن الخطيب. وكتاب "في أخبار الخلفاء" لابن الكردبوس، الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر

الميلادي). وقد قام بترجمته أخيراً صديقنا المستعرب فلبي مايو سالكادو رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة سالامنكا الإسبانية. والمقارنة تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أنَّ هذه الموسوعة الإسبانية التي ألفت في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) قد نقلت أخباراً وروايات كثيرة عن هذين الكتابين ـ كتاب ابن علقمة، وكتاب ابن الكردبوس ـ وبصفةٍ خاصة الأخبار المتصلة بسقوط بلنسية في يد الفارس الإسباني المغامر السيد القمبيطور El Campeador، أي المبارز في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري)، وهي معلومات جديدة لم ترد في المصادر الأخرى[239].

وقد دونت مغامرات السيد القمبيطور في ملحمة إسبانية ألفت في القرن الثاني عشر الميلادي، وتعتبر من شوامخ الأدب الإسباني في فجر حياته. وهي أول ملحمة إسبانية كتبت باللغة القشتالية. والواضح من أسمها وألفاظها وأحداثها أنها كُتبت على نمط السِيَر العربية. فهي تصور السيد (El Cid). وقد خرج من قرية فيفار (Vivar) ليبني له مجداً وشهرة، فاتصل بالملك المستعين بن هود ملك سرقسطة، ودخل في خدمته، وحارب أعداءه وصار يتشبه بقادة العرب المشهورين، وتروقه أخبار المهلب بن أبي صفرة، كما كان يزجر الطير ويتفاءل به ويتشاءم على عادة العرب، وكان جنوده ينادونه على عادة الملوك بعبارة Mio cid، وهي ترجمة لكلمة (يا سيدي). من هنا لصق به اسم السيد (El Cid)، مع أنَّ أسمه الأصلي رودريخو ديات Rodrigo (Diaz). ومع موت المستعين، انقلب هذا الفارس المغامر على المسلمين، واستولى على مدينة بلنسية التي استردها المرابطون بعد وفاته سنة 1099م. والملحمة كتبها شاعر مستعرب من مدينة سالم (Medina Celi) في شمال إسبانيا. وأحداثها التاريخية صحيحة إلى حدٍّ كبير، لأنها دوّنت بعد فترة قصيرة

من وقوعها. ولهذا تعتبر مصدراً تاريخياً هاماً لتلك الفترة المتعلقة بعصر الطوائف والمرابطين[240].

لقد كان فضل ألفونسو العاشر على الثقافة والفكر الإسبانيين عظيماً، لم يضاهه فيه ملك آخر من بعده، علماً بأن الثقافة الإسبانية خاصة والأوربية عامة مدينة لهذا الملك ومدرسته الطليطلية، في حين كان غيره من الملوك في شبه الجزيرة الأيبيرية يطعمون النيران بأحسن ما أنتجته العبقرية العربية في قرونها الزاهرة. ومن الغريب في أمره، أنه بينما عرشه يهتز تحت قدميه، يجد مكاناً بين أنقاض هذا العرض لتدعيم الجهاز العلمي، يسرق الوقت من حيث لا يوجد وقت سواء في السلم أو في الحرب، في النجاح أو في الفشل لنمو إنتاجه الفكري. إنه دائب على إعادة النظر في الكتاب الذي سلمه إياه أبو العيش: الأحجار[241].

مكانة الفكر والعلم في الحضارة العربية

وتأثيراتها في النهضة الغربية

إنَّ الكتابة عن مديات تأثير الحضارة العربية في أوربا، إن كان على مدى العصر اللاتيني الوسيط، أو مدى عصر النهضة الأوربية، أو العصر الحديث، موضوع شائك في التفاصيل، معقد في الجزئيات، واسع في الاتجاهات التي يجب أن تُبحث حتى تصل إلى ما لا يُحصى من الإسهامات والإنجازات والأعمال في مطاوي كتب عربية ولاتينية وعبرية وقشتالية وقطالونية ولغات أوربا الحديثة برمَّتها، منها المخطوط، ومنها المنشور، ومنها المفقود، ومنها الصحيح ومنها المنحول.

ومعنى هذا، أنَّ دراستنا هنا لا نقصد منها أن نتناول هذه المسائل كلها على هذا النحو، فلقد نُشرت العشرات من الأبحاث خلال القرن الماضي وحده تتناول انتقال العلم العربي إلى أوربا، فضلاً عن العديد من الكتب المهمة التي درست على نحو دقيق تأثيرات العرب في أوربا الوسيطة والنهضة؛ وكلها تصب في مجرىً واحد، وهو أنَّ العرب أدوا أدواراً كبيرة ومدهشة في انتقال المعرفة إلى أوربا، بمعناه الثقافي والأدبي والفكري والسياسي والإجتماعي والإقتصادي والعلمي التجريبي[242]، وعلى نحو أخص بمعناه الفلسفي العام[243].

ومهما بلغ عدد الذين مالوا إلى تقليل أهمية الدور العربي في الوعي الأوربي الوسيط وتحفيز عوامل اليقظة في النهضة الأوربية، فهؤلاء بلا شك صدروا عن (الاستعلاء الاستشراقي) الذي بُني على أساس الاستعمار

الكلاسيكي الذي قصد إلى الحطّ من قيم الشعوب والأمم المستعمرة وحضاراتها[244]. وليس أدل على ذلك ما لاحظناه من أقوال مؤرخي حركة الاستعمار، والمبشرين، والذين جالوا في الأرض العربية والإسلامية في المشرق يقصدون استكمال الصور التي لم يستطيعوا التعرف عليها أثناء الحروب بين الفرنجة والمسلمين في الحملات الصليبية الثمانية المشهورة[245].

تعد الحضارة العربية الإسلامية بما تضمنت من منجزات فكرية ومعرفية غنية ومعمَّقة ومتنوعة عموماً وفي منظومة الفكر الفلسفي (التصوف وعلم الكلام والفلسفة) خصوصاً، عاملاً فعالاً في صيرورة التفعيل الحضاري للغرب اللاتيني في العصر الوسيط ونهضته الفكرية – الفلسفية، بعدما انتقلت المؤلَّفات العربية في عصر الترجمة الغربي إلى اللاتينية في مراكز النهضة الثقافية والفكرية للحضارة العربية الإسلامية في الغرب (صقلية وأسبانيا) إذ نشطت حركة الترجمة في صقلية للمؤلَّفات العربية من العربية إلى اللاتينية في القرن الحادي عشر الميلادي، ونشطت حركة الترجمة في أسبانيا (الأندلس) للمؤلَّفات العربية من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي[246]. وازدهرت حركة الترجمة للمؤلَّفات العربية أيضاً وبشكل متبادل أو مزدوج بعد نشوء الجامعات في الغرب اللاتيني، بقيام مترجمي الجامعات أو أساتذة الجامعات بالترجمات على وفق مبدأ اختيار المؤلَّفات العربية المترجمة لتتناغم وتتسق مع منحى هذا المترجم أو تخصص ذاك الأستاذ الجامعي، فتمَّت ترجمة المؤلَّفات الفلسفية لفلاسفة الإسلام ومؤلَّفات متصوفته ومتكلّميه. ويتداخل إطلاق مصطلح العصر الوسيط على الحضارة العربية وتفعيل النهضة الغربية اللاتينية لتداخل الامتداد الزمني للفعل الفكري للعرب مع التفعيل الفكري للغرب. يتحدد الامتداد الزمني لمصطلح العصر الوسيط في بواكير القرن الرابع الميلادي حتى

القرن الخامس عشر الميلادي (300 – 1500م). فيمتد الفعل الفكري للعرب على وفق منظومة الفكر الفلسفي في البواكير منذ القرن الأول الهجري (= القرن السابع الميلادي) وحتى الأفول في القرن التاسع الهجري (= القرن الخامس عشر الميلادي)، ويمتد التفعيل الفكري للغرب اللاتيني في مقارباته المعرفية مع الطروحات الفلسفية للحضارة العربية منذ القرن الحادي عشر الميلادي وحتى القرن الخامس عشر الميلادي[247]. ومن ثم فإنَّ قراءة مقاربات النهضة الغربية في العصر الوسيط للمنظومة الفكرية – المعرفية للتفلسف ترتب على وفق طروحات فعل التفلسف ومنظومته في الفكر العربي في الإسلام باعتماد السبق الزمني المعرفي لمتضمنات المنظومة الفلسفية في الإسلام على وجه التحديد، وعلى ما توثق المصادر والدراسات؛ وبالانطلاق من المنهج المقارن بوصفه منهجاً بحثياً مهماً، ترتكز إليه الدراسات والبحوث المعاصرة في دوائر الفكر الإنساني وحوار الحضارات لاستقراء مديات الاتساق والتناغم لتفعيل الآخر مع فعل (الأنا) على وفق فرضية المقاربات الفكرية للخصوصيات والعموميات لمنظومة الفكر الفلسفي في الإسلام والمسيحية في العصر الوسيط المحدد الزمني للقراءة[248].

دور العرب في انتقال علوم الطب إلى أوربا

إنَّ الحضارة الإسلامية العربية لم تترك ميداناً من ميادين المعرفة الإنسانية لم تُسهم فيه بنصيب كبير سواء بالدراسات النظرية أم العلمية ولا يمكن تتبع تاريخ أوربا في العصور الوسطى أو جذور النهضة الحضارية التي أدت إلى نقل العالم الأوربي الغربي في العصور الوسطى عصور الجهل والظلام وحكم

الكنيسة والشعوذة والسحر إلى عصور التقدم والازدهار دون النظر إلى أثر الإسلام السياسي والحضاري في ذلك التقدم وتلك النهضة.

لقد ارتكز الغرب عندما أفاق من غفوته على كلِّ ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية في مختلف العلوم ومن بينها على وجه الخصوص الطب، فقد تُرجمت المؤلَّفات العربية العلمية إلى اللغة اللاتينية التي كانت في العصور الوسطى لغة العلم ولغة الكنيسة أيضاً.

لقد كانت الثقافة اليونانية محصورةً في بعض الأفراد وكانت على وشك النسيان والانقراض عندما نقلها العرب. أمَّا انتقالها مرةً ثانية إلى الغرب فكان بطريقة ميسَّرة لأنَّ الثقافة العربية كانت في أوج تقدمها عندما نقلها الأوربيون.

هذا وتعد الأندلس وصقلية والمغرب ومصر والشام والحروب الصليبية من أهم مصادر انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا وبالأخص الأندلس وصقلية لأنها كانت مراكز الاحتكاك المباشر مع أوربا إذ أمدتا الجامعات الأوربية التي أنشأت على مقربة في جنوب أوربا وهي (سالرنو) و (مونتيليه) وكانت تعتمد على المراكز العلمية العربية ومن أشهرها طليطلة وأشبيلية وقرطبة.

وقد حاول بعض المستشرقين التجنِّي على الحضارة الإسلامية العربية بالإدعاء بأنَّ دور العرب كان نقل الطب اليوناني إلى الغرب، إلا أنَّ الحقائق التاريخية تثبت خطأ هذا القول لأنَّ العرب لم يطلعوا على الطب اليوناني - أطلعوا على تراث الهنود والمصريين والفرس والبيزنطيين - وترجموا كلَّ الكتب في كلِّ العلوم وكانوا مبدعين ودارسين، وقاموا بتطوير تلك العلوم وأصلحوا كثيراً من أخطاء المؤلِّفين اليونانيين وغيرهم وقاموا بإنجاز خطوات كبيرة في

مجال الإرتقاء وتطوير علوم الطب والجراحة، كما أنجزوا ابتكارات عربية لم يسبقهم إليها أحد من قبل، فعلا سبيل المثال: (كتاب شرح تشريح القانون) لابن النفيس – وجد في مكتبة فرايبورغ – أحدث انقلاباً جذرياً في علم التشريح بوصفه لأول مرة الدورة الدموية الصغرى. رسالة للرازي تتضمّن عنوان: (مقالة في العلّة التي من أجلها يُعرف الزكام لأبي زيد البلخي في فصل الربيع عند شمّه الورود) والتي وصف فيها الرشح والحساسية لأول مرة في التاريخ.

العمليات الجراحية التي أجراها الجرَّاحون العرب أمثال أبي القاسم الزهراوي الذي أصبح كتابه: (التعريف لمن عجز عن التأليف) دليل الجرَّاحين في أوربا في عصر النهضة، إذ ابتدع عدداً كبيراً من التداخلات الجراحية لأول مرة، كما اشتهر ابن القف في الجراحة وألَّف كتاباً يُعد من أهم المصادر في الجراحة (العمدة في صناعة الجراحة).

اكتشاف الأسفنج المنوِّم، وهو عبارة عن قطعة أسفنج تُغمر في مواد عطرية ومنوِّمة وتُحفظ وتُبلل قبل استعمالها كمخدِّر وتوضع قبل إجراء العملية فوق الفم والأنف، وكانت هذه الطريقة فناً عربياً خالصاً لم يعرفه أحد من قبلهم.

إنَّ هذا فقط قليل من كثير جداً من الأدلة التي تدحض نظرية النقل فقط، فلم يكن العرب ناقلين لتراث غيرهم بل كانوا دارسين وناقدين وأضافوا عليه ابتكاراتهم الجديدة في كلِّ ميادين الطب، كما قاموا بتصحيح الأخطاء التي وجدوها في تراث الآخرين[249]. فهذه بعض مآثر الحضارة الإسلامية على الغرب والحضارة الغربية في العصور الوسطى، تبين مدى ما أفادته أوربا خلال

رحلة التواصل الحضاري من التراث الهائل كمّاً ونوعاً وفي شتَّى فـروع المعرفـة والعلوم. ولو تتبعنا مآثر العرب على أوربـا في الميـادين كافـة، فهنالـك العمـارة والفنون التشكيلية والتطبيقية، وهنالك الموسيقى والغنـاء وهنالـك فـنٌ التـدوين التاريخي، وآداب الحياة والسلوك، والمعنويات، وغيرها. كل هذا برز فيه العـرب وتفوقـوا فيـه بـاعتراف كـثير مـن المـؤرخين أمثـال (جـورج سـارتون) و (ول ديورانت) وغيرهم.

إسهامات المستشرقين

في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا

يقول (راندل) في كتابه (تكوين العقل الحديث): أنقذ العرب من العالم شيئاً كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزاً كلَّ العجز عنه وهو العلم الرياضي، وأخذ العرب من العالم اليوناني المعرفة الرياضية والطبية وراحوا يعملون بصبر وجهد في ذلك الطريق، وبنوا في أسبانيا حضارةً لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب، بل كان يخدم الفنون والصناعات الضرورية للحياة.

ويرى المؤرِّخ (فيشر) في كتابه (أوربا في العصور الوسطى) أنَّ احتلال الرومانيين للقسطنطينية وغيرها لم يؤدِّ إلى شيء من النهضة في ميادين العلوم وأنَّ مخطوطاً يونانياً واحداً لم يصل إلى غرب أوربا، على أنَّ شعاعاً من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله إلى أوربا في القرن الثالث عشر الميلادي عن طريق العرب المسلمين أصحاب أسبانيا الإسلامية.

ومن آراء (لوبون) في كتابه (حضارة العرب) كان تأثير العرب في الغرب عظيماً. وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوربا ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق. ولا يتأتى للمرء معرفة الأثر العظيم الذي أثره العرب في الغرب إلا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة العربية. وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ويوم كانت الحضارة العربية في أسبانيا زاهرةً وكانت الجهالة في أوربا، ولم تبدأ الرغبة في العلم إلا في القرن الثاني عشر عندما شعرت بعض العقول المستنيرة بالحاجة إلى الخلاص من الجهل وطرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه لأنهم كانوا وحدهم

سادة العلم في ذلك العهد. وما كان لأوربا أن تشهد ما شهدته لو لم تستند إلى أساس متين من التراث العلمي العربي الإسلامي.

ونتيجةً لهذا الموقف الفكري فقد مرَّ الغرب اللاتيني فكرياً بمرحلتين أساسيتين، تتمثل الأولى فإقدام علماء الغرب على تفهم التراث اليوناني القديم والتواصل مع التقدم الفلسفي العلمي لتراثهم لإشباع متطلبات العصر الفكرية الضرورية لتنمية وتطوير العقلية الغربية. أمَّا الثاني فيتمثل بالعملية المجهدة في هضم هذه المتطلبات وتمثلها بهدف نقض الماضي المظلم والبدء ببناء جديد.

ولم يكن أمام الغرب لتحقيق تلك الاهتمامات والأغراض من خيار إلا عبر ما أبدعه الفكر العربي الإسلامي وما تمَّ ترجمته وتفسيره وشرحه من كتب العباقرة ممن شهر في الفلسفة اليونانية في بيت الحكمة العباسي، ولكن كيف عرف الغرب بالانجازات الحضارية العربية ؟ وكيف شخَّص مفكرو الغرب بأنَّ الحضارة العربية تعد الحلقة الأساس التي ستأخذ بأيديهم نحو الماضي فيفتحوا بها الكنوز التي أغلقتها العقلية المتخلفة ؟ إنَّها إذن الحاجة، تلك الحاجة التي لا حدود لها، التي قد أبرزت صورة الشرق أمام أنظار الغرب، فالشرق صار عندهم يُعادل العقل. والواقع أنَّ رؤية الغرب إلى الشرق قد توزعت في مجالات متعددة: ففي إحدى الزوايا رأى الغربي الشرق بمنظار التعصب والحقد والكراهية، وفي زاوية أخرى نظر إليه بمنظار رومانسي، وفي زاوية ثالثة كانت بغداد عند الغربي هي العلم ومهد الفلاسفة العظام. فينقل أحد المستشرقين قولاً لـ(تشارلز دوتي) قائلاً: إنَّ الشمس جعلتني عربياً ولكنها ما شوهتني قط بالاستشراق[250].

لقد أضحى الفلاسفة المسلمون في رؤية المفكرين الأوربيين المتطلعين رمزاً للعقل والحلقة التي كانوا يبحثون عنها. وغدت الفلسفة الإسلامية في نظرهم فلسفةً دينية روحية وفي الآن نفسه فلسفةً عقلية. فالفلاسفة المسلمون عرفوا فلسفة سقراط والسفسطائيين وعرفوا وهضموا مؤلَّفات أرسطو وأفلاطون وترجموا الجمهورية والقواميس والربوبية والسماع والعالم. وعرف الغرب أنَّ الفلسفة الإسلامية لها صلة وثيقة بالعلم فـ(كتاب الشفاء) في سبيل المثال لا الحصر موسوعة في العلم والفلسفة. عندئذٍ اندفع مفكرو الغرب ممن جهدوا في سدِّ الفراغ العلمي في أوربا إلى البحث عن كنوز الشرق العلمية.

أعقب هذه المرحلة مرحلةً توجه فيها الغرب بشكل أوسع بكثير نحو الشرق، ولم تفلح مواقف الكنيسة في الطرد أو الحرمان في إعاقة هذه العملية الحضارية فقد طرد الملك فردريك الثاني بتهمة احترامه وحبِّه مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وهدد قبله الملك روجر الثاني بذلك عندما قرَّب العلماء العرب. فمتطلبات الحضارة والتقدم كانت أقوى من عوامل التخلف. فقد حدث متغير جدِّي في الانفتاح على الشرق والعلوم العربية ينعكس ذلك في مسألة تأسيس كراسي اللغة العربية في المعاهد والجامعات الأوربية، فتأسيس أول كرسي لهذه اللغة في الكلية الفرنسية، وكان (غليوم بوستل Post el) المتوفى عام 1581 رئيس هذا القسم، ومع أنه كان رجل دين فقد دفعه حماسه الديني إلى الاهتمام بالجوانب اللغوية. وقد قدَّم خدمةً كبيرة إذ استطاع أن يجمع خلال جولاته في البلدان العربية مجموعة من المخطوطات العربية، ونشرها في المطبعة التي أسسها رجل الدين (فرديتا نردورتشي). وكانت مؤلَّفات ابن سينا الطبية والفلسفية هي التي بدأت هذه المطبعة طبعها[251]. كذلك أسست جامعة ليدن في هولندا عام 1613 كرسي اللغة العربية برئاسة المستعرب (توماس

اربينوس) وتأسست عندئذٍ مطبعة ليدن المشهورة بحروفها العربية الجميلة سنة 1593، ثم جاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج سنة 1632 وفي جامعة أكسفورد عام 1636.

إذن فقد كانت اللغة العربية عنصراً أساسياً في نقل علوم العرب المترجمة منها أو المؤلَّفة إلى الغرب عبر الوسائل المعروفة كصقلية أو الحروب الفرنجية أو الأندلس التي يرجع إليها الفضل الأكبر في التمازج الحضاري، إذ استقر العرب فيها ثمانية قرون سادت فيها الثقافة العربية وانتقلت إلى أوربا من المراكز الحضرية المشهورة كقرطبة وأشبيلية وغرناطة وطليطلة ومالقة وسرقسطة. وقد وفد إليها الطلبة من أوربا للدراسة على أيدي العلماء العرب والأخذ من التراث العربي المعطاء. فحملوا علوم العرب إلى بلادهم. هذا فضلاً عن أنّ الأسبان أدوا دوراً مهماً في عملية النقل الحضاري هذه فالملك ألفونسو العاشر يُقدم على تأسيس مدرسة إسلامية في مدينة مرسية يُديرها أحد العلماء العرب الذي كان مختصاً بعلوم الهندسة والموسيقى والطب والمنطق. وحذا الملك ألفونسو العاشر حذو هذا العاهل فأسس مدرسةً بمثابة معهد للدراسات الشرقية في مدينة طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية، وبعد سنوات عدة تأسس معهد آخر للدراسات اللاتينية – العربية في مدينة أشبيلية. وانتقل هذا التأثير إلى أماكن ودول أخرى فأُنشأت مدرسةً للعربية في عاصمة ميورقة، ومدارس أخرى مماثلة في روما وباريس وبولونيا لدراسة اللغات الشرقية العربية والعبرية. وفي هذا الصدد يقول غوستاف لوبون وهو يتحدث عن رقي الحضارة في أسبانيا بعد الفتح العربي مقارناً بين حالتها قبل الفتح وبعده: لَم تكن أسبانيا ذات حضارة تُذكر قبل الفتح العربي فصارت حضارة نادرة في زمن العرب ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب

عنها[252]. ويُعقّب أيضاً على وصف هذه الحالة قائلاً: ولو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدَّة قرون[253].

إنَّ أوضح مثال يمكن الاستشهاد به عن التحول الجدّي في بلورة الحركة الاستشراقية وتطورها بوصفها وسيلة نقل وتأثر لا مجرد وسيلة للتعرف على إنجازات علماء الشرق وحضارتهم وصولاً إلى التراث اليوناني والروماني ما ظهر في فرنسا عام 1795 حينما أوحت حكومة المؤتمر الفرنسية إلى المستشرق المشهور (سلفستر دي ساسي)[254] أن يؤسس أول مدرسة من نوعها لدراسة اللغات الشرقية الحيَّة، وأن تكون مدرسة تضم المستشرقين من العالم لا من فرنسا فحسب. وبذلك طور نشاط الحركة الاستشراقية التنافس بين المدارس الاستشراقية المختلفة تبعاً للدول التي تنتمي إليها لحشد الإمكانات العلمية والمادية وغيرها في جمع تراث الشرق أو بالأحرى سرقته والعمل على نقله إلى المكتبات والجامعات وإخضاعه لعملية بحث دؤوب من نشر وتحقيق ودراسة. كما كان للمستشرقين البريطانيين اهتمام مماثل في تأليف القواميس والمعاجم ولاسيما بعد تأسيس كراسي الاستشراق في كمبردج وأكسفورد فضلاً على ما أنجزه المستشرقون البريطانيون من تحقيقات وتآليف في ميادين التراث العربي والإسلامي.

ولهذا فإنَّ كثيراً من الآراء والنظريات العلمية حسبناها – كما اعترف عدد من العلماء الغربيين – من صنعنا فإذا الغرب سبقونا. وظلَّت الأمة الإسلامية والعربية حاملةً لواء النهضة عدَّة قرون في وقت كانت أوربا ما تزال غارقةً في الظلام. وأهدى الفكر العلمي في العصر الإسلامي إلى الإنسانية كثيراً من مظاهر الترف والحضارة والرفاهية كما أهداها معلّماها الثاني والثالث

الفارابي وابـن سـينا. ولقـد قُـدِّر لهـذه النهـضة العلميـة الـشاملة أن تـستمر في عنفوانها وانتشارها، لكانت هذه النهضة التي تتيه بهـا أوربـا في العـصر الحاضـر من نصيب أمتنا العربية ولكن وقوع بغداد تحت سنابك خيول الغزاة من المغـول والتتار وسقوط الأندلس في يـد الفرنجـة في الغـرب وتـداعي دويـلات المـشرق والمغرب العربي الواحـدة تلـو الأخـرى عوامـل أدَّت إلى انهيـار هـذه النهـضة الفاعلة[255].

الهوامش والتعليقات:

1. يُنظر: مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، بحث للأستاذ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، وادي الرافدين.. مركز إشعاع حضاري في منطقة الشرق الأدنى القديم، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2001)، ج1، ص ص21 – 25.
2. CAO vol. G,P p86-87. Labat, R. Manuel D'Epigraphie Akkaolienne Paris – 1976 – p. 185; Unger – E "Biblio thek" Reallexikon der Assyriologie (RLA) Band 1 PP – 24-25; Von Soden – (edi) Akadisches Handworterbuch (AHW) p. 284.
3. CAD vol L P. 183.
4. CAD vol G – P. 87.
5. Ibid. P. 183.
6. إسماعيل، بهيجة خليل، (الكتابة) حضارة العراق، (بغداد، 1985)، ج1، ص270.
7. CAD vol G – P. 86.
8. كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، (القاهرة، 1957).
9. Hilpreeht, H Exploration in Bible Lands (London, 1903), pp. 223 – 522.

10. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، الياور، د. طلعت رشاد، بيت الحكمة في بغداد.. النشأة والتطور، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2001)، ج1، صص193 – 194.
11. طبقات الأطباء: ج1، ص163؛ تاريخ ابن خلدون: ج1، ص401؛ كشف الظنون: ج2، ص679.
12. مروج الذهب: ج2، ص514، 515؛ مشاكلة الناس: ص23؛ أخبار العلماء: ص177.
13. الفهرست: ص112، 337؛ مروج الذهب: ج1، ص140.
14. طبقات الأمم: ص77؛ طبقات الأطباء: ج1، ص208.
15. طبقات الأمم: ص78؛ أخبار العلماء: ص177.
16. تراث العرب العلمي: ص85.
17. تراث العرب العلمي: ص85.
18. أخبار العلماء: ص109.
19. أخبار العلماء: ص249؛ عيون الأنباء: ج1، ص175؛ كشف الظنون: ج2، ص681؛ طبقات الأطباء والحكماء: ص65.
20. أخبار العلماء: ص69.
21. الفهرست: ص342؛ عيون الأنباء: ج2، ص33.
22. طبقات الأمم: ص75 – 76.
23. طبقات الأطباء: ص67.
24. الفهرست: ص378 – 379؛ أخبار العلماء: ص24 – 81 – 208.

25. الفهرست: ص378 – 379؛ أخبار العلماء: ص24 – 81 – 208.

26. الفهرست: ص308 – 384؛ أخبار العلماء: ص70 – 81 – 234؛ طبقات الحكماء: ص57.

27. الفهرست: ص308 – 384؛ أخبار العلماء: ص70 – 81 – 234؛ طبقات الحكماء: ص57.

28. الفهرست: ص410 – 411؛ أخبار العلماء: ص173 – 240.

29. الفهرست: ص409 – 410 – 414؛ أخبار العلماء: ص117 – 118؛ عيون الأنباء: ج1، ص186؛ تاريخ العرب – لحتي: ص119 – 120؛ خزائن الكتب: ج1، ص48؛ طبقات الأطباء: ص68 – 72.

30. الفهرست: ص409 – 410 – 414؛ أخبار العلماء: ص117 – 118؛ عيون الأنباء: ج1، ص186؛ تاريخ العرب – لحتي: ص119 – 120؛ خزائن الكتب: ج1، ص48؛ طبقات الأطباء: ص68 – 72.

31. الفهرست: ص409 – 410 – 414؛ أخبار العلماء: ص117 – 118؛ عيون الأنباء: ج1، ص186؛ تاريخ العرب – لحتي: ص119 – 120؛ خزائن الكتب: ج1، ص48؛ طبقات الأطباء: ص68 – 72.

32. أخبار العلماء: ص23.

33. الأخبار الطوال: ص378.

34. كشف الظنون: ج2، ص68.

35. كشف الظنون: ج2، ص68.
36. تراث العرب العلمي: ص80.
37. أخبار العلماء: ص40 – 148 – 149.
38. أخبار العلماء: ص40 – 148 – 149.
39. طبقات الأمم: ص86 – 88.
40. طبقات الأمم: ص86 – 88.
41. كشف الظنون: ج2، ص871 – 872.
42. الفهرست: ص251؛ أخبار العلماء: ص24 – 41 – 91؛ طبقات الأطباء: ج1، ص206؛ تاريخ التمدن الإسلامي: ج3، ص145.
43. الفهرست: ص396.
44. أخبار العلماء: ص128 – 230.
45. الفهرست: ص385.
46. أخبار العلماء: ص56.
47. ثقافة الهند – السنة الثانية – العدد الثاني.
48. حضارة الإسلام في دار السلام: ص209.
49. الفهرست: ص397.
50. التنبيه والإشراف: ص30 – 31.
51. الجغرافية: ص1.
52. الفهرست: ص357 – 365؛ طبقات الأطباء: ص73 – 74؛ عيون الأنباء: ج1، ص206 – 215 – 240 – 247.
53. كشف الظنون: ج2، ص871 – 872 / ج2، ص676 – 682.
54. كشف الظنون: ج2، ص871 – 872 / ج2، ص676 – 682.

55. بغداد: ص36.

56. خزائن الكتب في الخافقين: ج1، ص99.

57. أخبار العلماء: ص249؛ طبقات الأطباء: ص67.

58. أخبار العلماء: ص249؛ طبقات الأطباء: ص67.

59. الفهرست: ص382؛ أخبار العلماء: ص169.

60. الفهرست: ص154؛ معجم الأدباء: ج12، ص191.

61. الفهرست: ص174 – 182؛ مروج الذهب: ج1، ص48؛ بروكلمان: ج3، ص34 – 35.

62. الفهرست: ص174 – 182؛ مروج الذهب: ج1، ص48؛ بروكلمان: ج3، ص34 – 35.

63. الفهرست: ص174 – 182؛ مروج الذهب: ج1، ص48؛ بروكلمان: ج3، ص34 – 35.

64. أخبار العلماء: ص248؛ ابن العبري: ص329.

65. إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963)، ج1، ص98.

66. المصدر نفسه، ج1، ص103.

67. الهيتي، صالح فليح، الخوارزمي وتطور علم الخرائط، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، (بغداد، مطبعة العاني، 1987)، العدد (21)، ص93؛ مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، بحث للدكتور نداء نجم الدين أحمد، الخوارزمي عالم الفلك والحساب في بيت الحكمة، ج2، ص156.

68. محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، من بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1984)، م3، ص134.
69. الهيتي، صالح فليح، الخوارزمي وتطور علم الخرائط، ص109 – 110؛ نداء نجم الدين أحمد، الخوارزمي عالم الفلك والحساب في بيت الحكمة، ص159 – 160.
70. الفهرست: ص383؛ أخبار العلماء: ص187 – 188.
71. الفهرست: ص378 – 379؛ أخبار العلماء: ص287.
72. طبقات الأمم: ص78.
73. أخبار العلماء: ص47 – 57 – 117 – 122؛ تاريخ العرب – لحتي: ص117 – 120؛ طبقات الأطباء: ص64 – 68.
74. أخبار العلماء: ص47 – 57 – 117 – 122؛ تاريخ العرب – لحتي: ص117 – 120؛ طبقات الأطباء: ص64 – 68.
75. الفهرست: ص341.
76. مجلة المجمع العلمي العراقي: ج2، ص142 – 171.
77. ضحى الإسلام: ج2، ص65.
78. الفهرست: ص32.
79. مجلة المجمع العلمي العراقي: ج2، ص152؛ ضحى الإسلام: ج1، ص178.
80. مجلة المجمع العلمي العراقي: ج2، ص152؛ ضحى الإسلام: ج1، ص178.

81. الفهرست: ص7 – 8 – 29.

82. الفهرست: ص7 – 8 – 29.

83. خزائن الكتب – طرازي: ج1، ص54.

84. معجم الأدباء: ج12، ص191.

85. معجم الأدباء: ج1، ص266.

86. طُبعت الرسالتان في لندن سنة 1885م.

87. خزائن الكتب – طرازي: ص54 – 55.

88. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، (د. طلعت رشاد الياور، بيت الحكمة في بغداد.. النشأة والتطور)، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2001)، ج1، صص200 – 201.

89. يُنظر: الكروي، إبراهيم وشرف الدين عبد التواب، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، الكويت، ص475.

90. د. طلعت رشاد الياور، بيت الحكمة في بغداد.. النشأة والتطور، ص202.

91. هو: أبو بكر مُحمَّد بن زكريا الرازي (251 – 313هـ/ 865 – 925م)، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب. من أهل الري، ولد وتعلَّم بها. وسافر إلى بغداد بعد سنِّ الثلاثين. يُسمِّيه كُتَّاب اللاتينية (رازيس) Rhazes. أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر، في صغره. واشتغل بالسيمياء والكيمياء، ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره، فنبغ واشتهر. وتولَّى تدبير مارستان الري، ثمَّ رياسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد. عُمي في آخر عمره،

ومات ببغداد. له تصانيف، سمّى ابن أبي أصيبعة منها (232) كتاباً ورسالة. يُنظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، (بيروت، دار العلم للملايين، 1980)، ج6، ص130.

92. هونكه زيكريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، (بيروت، 1964)، ص151.

93. د. طلعت رشاد الياور، بيت الحكمة في بغداد.. النشأة والتطور، صص206 – 207.

94. لمزيد من التفاصيل عن المدرسة المستنصرية، يُنظر: كوركيس عواد ومصطفى جواد، المدرسة المستنصرية.. أول جامعة في العالمين العربي والإسلامي، ط1، (لندن، دار الوراق للنشر، 2008).

95. حيدر، كامل، المدارس العباسية القائمة في العراق، (بغداد، 1986)، ص134.

96. للمزيد يُنظر: مجموعة باحثين، حضارة وادي الرافدين.. سبعة آلاف سنة من الفن والحضارة، ترجمة: قاسم مطر التميمي، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2010).

97. د. طلعت رشاد الياور، بيت الحكمة في بغداد.. النشأة والتطور، ص208.

98. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، (أ.د. صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، بيت الحكمة الأغلبي)، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2001)، ج1، ص536.

99. طبقات الأطباء: ص90؛ عيون الأنباء: ص478.

100. طبقات الأطباء: ص85.

101. أ.د. صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، بيت الحكمة الأغلبي، صص536 – 537.

102. المصدر نفسه، ص529.

103. ابن الأبّار، أبو عبد الله مُحمَّد القضاعي، الحلَّة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة، 1963)، ج1، ص172.

104. أ.د. صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، بيت الحكمة الأغلبي، صص529 – 530.

105. يُنظر: عبد المجيد بن حمده، ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثالث الهجري، (تونس، 1997)، ص158.

106. أ.د. صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، بيت الحكمة الأغلبي، ص534.

107. المحاسن والمساوئ – للبيهقي: ج2، ص231.

108. يُنظر: نفح الطيب: ج2، ص115 – 116؛ خزائن الكتب: ج2، ص691؛ تراجم إسلامية: ص130 – 135؛ مجلة المجمع العلمي العربي: العدد 4، السنة 28، بحث عن الثقافة في تونس للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب باشا؛ مجلة المكتبة العربية: العدد 1، من السنة الأولى، بحث للأستاذ عثمان العكاك؛ تونس عبر التاريخ: ص128 – 129.

109. وتُسمّى أيضاً (دار العلم) أنظر عنها: بغداد – لطيفور: ص45؛ خطط المقريزي: ج1، ص181 – 458 / ج2، ص226 – 227 – 254 – 334 – 335 / ج3، ص336 – 337 / ج4، ص50؛ بُغية الوعاة: ص213؛ وفيات الأعيان: ج2، ص334؛ النجوم

الزاهـرة: ج4، ص187 – 222 – 223؛ صـبح الأعـشى: ج2، ص213 / ج3، ص363 – 367 / ج13، ص237؛ خطـط الشام: ج4، ص198؛ خزائن الكتب: ج1، ص179؛ مختصر تـاريخ العرب: ص510؛ صناعة الطرب في تقدمات العرب: ص441.

110. هذا المبلغ زهيد لما تطلبه الدار المذكورة وما فيها من كتبٍ وأثاثٍ ومشرفون وغير ذلك. ولعلَّ هذا كان خطأً في النسخ.

111. معجم الأدباء: ج7، ص209 – 210.

112. صبح الأعشى: ج13، ص236 – 237.

113. يذكر المقريزي في إتعاظ الحنفاء: ج2، ص51، أنه فعل هـذا لما بلغـه أنَّ المغاربة تلعنه على ما يقوم به من الأعمال.

114. يُنظر عنها: تاريخ ابن الفرات: ج8، ص77 – 79؛ الكامـل: ج10، ص179؛ المختـصر: ج2، ص111؛ وفيـات الأعيـان: ج2، ص128؛ تاريخ التمدن الإسلامي: ج3، ص204؛ لسان الميزان: ج2، ص275؛ دائـرة معـارف البـستاني: ج11، ص241 – 242؛ دولـة آل سـلجوق: ص20؛ المقتطـف: ص74 – 385 – 386؛ خـزائن الكتـب في الخـافقين: ج1، ص139 – 140؛ النجـوم الزاهرة: ج5، ص111.

115. يُنظـر عنهـا: فـوات الوفيـات: ج2، ص149 – 151؛ الحـوادث الجامعـة: ص314 – 341 – 351؛ تـاريخ ابـن كـثير: ج13، ص225 – 242؛ مختصر تاريخ الدول: ص500؛ كـشف الظنـون: ص907؛ الوافي بالوفيات: ج1، ص179 – 183؛ خزائن الكتـب: ج1، ص159 – 160.

116. يُنظر: معجم الأدباء: ج16، ص174 – 186 / ج18، ص116 / ج19، ص163؛ مروج الذهب: ج4، ص138؛ الفهرست: ص169؛ فوات الوفيات: ج2، ص123.

117. يُنظر: معجم الشعراء للمرزباني: ص286 – 287؛ الفهرست: ص38 – 205؛ معجم الأدباء: ج15، ص144 – 175؛ أخبار العلماء: ص24؛ تاريخ بغداد: ج2، ص121 – 122؛ نشوار المحاضرة: ج8، ص108.

118. أخبار العلماء: ص271.

119. كشف الظنون: ج2، ص682 – 683.

120. كشف الظنون: ج2، ص682 – 683.

121. أنظر: الفهرست: ص213؛ معجم الأدباء: ج6، ص359 / ج7، ص19 – 205؛ الحضارة الإسلامية: ج1، ص290 – 294؛ المنتظم: ج7، ص172 – 266 / ج8، ص22؛ الكامل: ج9، ص25 – 121؛ البداية والنهاية: ج11، ص13 / ج13، ص35؛ ذيل تجارب الأمم: ص252؛ السنة الأولى من مجلة عالم الغد.

122. معجم البلدان: ج2، ص175 – 176، تذكرة الحفاظ: ج3، ص125 – 129؛ طبقات الشافعية: ج2، ص141 – 143؛ الأنساب للسمعاني: ص580؛ البداية والنهاية: ج11، ص259.

123. أخبار العلماء: ص105.

124. الأغاني: ج1، ص35.

125. تعريف القدماء بأبي العلاء: ص222.

126. تعريف القدماء بأبي العلاء: ص222.

127. معجم الأدباء: ج14، ص90 – 99.

128. إنباه الرواة: ج1، ص50 – 51.

129. إنباه الرواة: ج3، ص48؛ معجم الأدباء: ج17، ص267 – 269؛ المنتظم: ج9، ص189؛ أنظر عن دار العلم المذكورة أيضاً: معجم الأدباء: ج4، ص5 – 6 / ج14، ص92 – 89؛ المنتظم: ج8، ص22؛ شذرات الذهب: ج3، ص104؛ ذيل تجارب الأمم: ص252؛ الكامل: ج9، ص132؛ وفيات الأعيان: ج2، ص521؛ تاريخ بغداد: ج11، ص57 – 58؛ اللباب: ج3، ص315؛ البداية والنهاية: ج11، ص312 / ج12، ص19؛ عيون الأنباء: ج1، ص136؛ مجلة عالم الغد: العدد 9، من السنة الأولى.

130. إنباه الرواة: ج3، ص48؛ معجم الأدباء: ج17، ص267 – 269؛ المنتظم: ج9، ص189؛ أنظر عن دار العلم المذكورة أيضاً: معجم الأدباء: ج4، ص5 – 6 / ج14، ص92 – 89؛ المنتظم: ج8، ص22؛ شذرات الذهب: ج3، ص104؛ ذيل تجارب الأمم: ص252؛ الكامل: ج9، ص132؛ وفيات الأعيان: ج2، ص521؛ تاريخ بغداد: ج11، ص57 – 58؛ اللباب: ج3، ص315؛ البداية والنهاية: ج11، ص312 / ج12، ص19؛ عيون الأنباء: ج1، ص136؛ مجلة عالم الغد: العدد 9، من السنة الأولى.

131. المنتظم: ج8، ص216؛ النجوم الزاهرة: ج5، ص126.

132. المصدر نفسه: ص175.

133. يُنظر: البداية والنهاية: ج13، ص35؛ شذرات الذهب: ج4، ص340؛ مجلة عالم الغد: السنة الأولى (298 – 299)؛ مجلة المجمع العلمي العراقي: العدد 7، ص257.

134. المنصورة: مدينة بقرب القيروان من نواحي أفريقية استحدثها المنصور بن القايم بن المهدي الخارج بالمغرب سنة 337هـ وعمّر أسواقها واستوطنها ثم صارت منزلاً للملوك الذين لهم والذين زعموا أنهم علويُّون وملكوا مصر ولم تزل منزلاً لملوك أفريقية من بني باديس حتى خربتها العرب لما دخلت أفريقية وخربت بلادها بُعَيد سنة 443هـ. يُنظر: ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت 626هـ)، معجم البلدان، (طهران، مكتبة الأسدي، 1965م)، ج4، ص664.

135. تامر، عارف، الحاكم بأمر الله خليفة وإمام ومُصلح، ط1، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1402هـ/ 1982م)، صص 70-72.

136. هو: جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن (ت 381هـ). القائد، باني مدينة القاهرة والجامع الأزهر، كان من موالِ المعز العبيدي (صاحب أفريقية) وسيّره من القيروان إلى مصر، بعد موت كافور الإخشيدي، فدخلها سنة 358هـ وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها. ومكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز سنة 362هـ فحل المعز محله، وصار هو من عظماء القوّاد في دولته وما بعدها، إلى أن توفي بالقاهرة. وكان كثير الإحسان، شجاعاً، لم يبق في مصر شاعر إلا رثاه، وكان بناؤه القاهرة سنة 358هـ وسمّاها (المنصورية) حتى قدم المعز فسمّاها (القاهرة) وفرغ من بناء الأزهر

في رمضان 361هـ. الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط5، (بيروت، دار العلم للملايين، 1980م)، ج2، ص148.

137. هو: يعقوب بن كلّس، أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلّس. وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صاحب مصر كان يعقوب أولاً يهودياً يزعم أنه من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليهما السلام وقيل إنه كان يزعم أنه من ولد السموال بن عاديا اليهودي صاحب الحصن المعروف بالأبلق وهو المشهور بالوفاء وقصته مع امرئ القيس الكندي الشاعر المشهور مشهورة مستفيضة بين العلماء في الوفاء له في ودائعه وكان يعقوب المذكور قد ولد ببغداد ونشأ بها عند باب القز وتعلّم الكتابة والحساب وسافر به أبوه من بغداد إلى الشام وأنفذه إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فانقطع إلى بعض خواص الأستاذ كافور الإخشيدي المقدم ذكره فجعله كافور على عِمارة داره ثم صار ملازماً لباب داره فرأى كافور من نجابته وشهامته وصيانته ونزاهته وحسن إدراكه ما نفق عليه فاستحضره وأجلسه في ديوانه الخاص وكان يقف بين يديه ويخدم ويستوفي الأعمال والحسابات ويُدخل يده في كل شيء ثم لم تزل أحواله تتزايد مع كافور حتى صار الحُجّاب والأشراف يقومون له ويكرمونه ولم تتطلع نفسه إلى اكتساب مال وأرسل له كافور شيئاً فرده عليه وأخذ منه القوت خاصة وتقدم كافور إلى سائر الدواوين أن لا يمضي دينار ولا درهم إلا بتوقيعه فوقع في كل شيء وكان يبر ويصل من اليسير الذي أخذه هذا كله وهو على دينه ثم إنه أسلم يوم الإثنين

لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ست وخمسين وثلثمائة ولزم الصلاة ودراسة القرآن الكريم ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم شيخاً عارفاً بالقرآن المجيد والنحو حافظاً لكتاب السيرافي فكان يبيت عنده ويُصلّي به ويقرأ عليه ولم تزل حاله تزيد وتنمي مع كافور إلى أن توفي كافور في التاريخ المذكور في ترجمته وكان أبو الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور يحسده ويعاديه فلما مات كافور قبض ابن الفرات على جميع الكُتّاب وأصحاب الدواوين وقبض على يعقوب بن كلّس في جملتهم فلم يزل يتوصل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه فلما خرج من الاعتقال اقترض من أخيه ومن غيره مالاً وتجمل به وسار مستخفياً قاصداً بلاد المغرب فلقي القائد جوهر بن عبد الله الرومي مولى المعز العبيدي في الطريق وهو متوجه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها فرجع في الصحبة وقيل إنه استمر على قصده وانتهى إلى إفريقية وتعلّق بخدمة المعز العبيدي ثم رجع إلى الديار المصرية ولم يزل يترقى إلى أن ولي الوزارة للعزيز نزار بن المعز معد وعظمت منزلته عنده وأقبلت عليه الدنيا وانثال الناس عليه ولازموا بابه ومهّد قواعد الدولة وساس أمورها أحسن سياسة ولم يبقَ لأحد معه كلام وكان في أيام المعز يتصرف في الخدم الديوانية ثم انتقل إلى العزيز من بعده وتولّى وزارة العزيز يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة وقال ابن زولاق في تاريخه بعد ذكر المعز وتاريخ وفاته ما مثاله وممن وزر للمعز الوزير يعقوب بن كلّس وهو أول من وزر للدولة الفاطمية في الديار المصرية وكان من جملة كتاب

كافور فلما وصل المعز أحسن في خدمته وبالغ في طاعته إلى أن استوزره. هذا آخر كلام ابن زولاق. وقال غيره كان يعقوب يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء ورتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه بنفسه مصنفاته على الناس وتحضره القضاة والفقهاء والقُرّاء والنُحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها وكان من جملة جلسائه الحُسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنف كتاب الأسجاع ورتب في داره القُرّاء والأئمة يصلون في مسجد اتخذه في داره وأقام في داره مطابخ لنفسه ولجلسائه ومطابخ لغلمانه وحاشيته وأتباعه وكان ينصب كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه وينصب موائد عديدة يأكل عليها الحجاب وبقية الكتاب والحاشية وصنع في داره ميضأة للطهور بثمانية بيوت تختص بمن يدخل داره من الغرباء وكان يجلس كل يوم عقب صلاة الصبح ويدخل عليه الناس للسلام وتعرض عليه رقاع الناس في الحوائج والظلامات وقرر عند مخدومه العزيز جماعة جعلهم قواداً يركبون بالمواكب والعبيد ولا يُخاطب واحد منهم إلا بالقائد وكان من جُملة هؤلاء القوّاد القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي تُنسب إليه منية القائد فضل وهي بُليدة بالأعمال الجيزية من الديار المصرية ثم إنَّ الوزير المذكور شرع في تحصين داره ودور غلمانه

بالدروب والحرس والسلاح والعدد وعمرت ناحيته بالأسواق وأصناف ما يباع من الأمتعة ومن المطعوم والمشروب والملبوس ويُقال إنَّ داره كانت بالقاهرة في موضع مدرسة الوزير صفي الدين أبي مُحمّد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر المختصة بالطائفة المالكية وإنَّ الحارة المعروفة بالوزيرية التي بالقاهرة داخل باب سعادة منسوبة إلى أصحابه لأنهم كانوا يسكنونها وكان الوزير أبو الفضل ابن الفرات يغدو إليه ويروح ويعرض عليه محاسبات القوم الذين يريد محاسبتهم ويعول عليه فيها ويجلس معه في مجلسه وربما حبسه لمؤاكلته فيأكل معه بعد أن جرى عليه منه ما سبق ذكره، وكانت هيبته عظيمة وجوده وافراً وأكثر الشعراء من مدائحه ولقد نظرت في ديوان أبي حامد أحمد بن مُحمّد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق الشاعر فوجدت أكثر مديحه في الوزير المذكور، ورأيت في تاريخ الأمير المختار عز الملك مُحمّد بن أبي القاسم المعروف بالمُسبِّحي فصلاً طويلاً يتعلّق بشرح حال الوزير المذكور ومعظم ما ذكرته ها هنا نقلته منه وصنف الوزير المذكور كتاباً في الفقه مما سمعه من المعز وولده العزيز وجلس في شهر رمضان سنة تسع وستين وثلثمائة مجلساً حضره العام والخاص وقرأ فيه الكتاب بنفسه على الناس وحضر هذا المجلس الوزير أبو الفضل ابن الفرات المذكور وجلس في الجامع العتيق جماعة يفتون الناس من هذا الكتاب وسمعت من جماعة من المصريين يقولون إنَّ الوزير المذكور كانت له طيور فائقة أصيلة مختارة تسبق كل طائر يُسابقها وكان لمخدومه العزيز طيور أيضاً سابقة فاخرة فسابقه العزيز يوما ببعض

الطيور فسبق طائر الوزير فعزَّ ذلك على العزيز ووجد أعداؤه سبيلاً إلى الطعن فيه فقالوا للعزيز إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه ولم يُبقِ منه إلا أدناه حتى الحمام وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منهم لعلّه يتغير عليه فاتصل ذلك بالوزير فكتب إلى العزيز قُل لأمير المؤمنين الذي له العلا والنسب الثاقب طائرك السابق لكنه جاء وفي خدمته حاجب فأعجبه ذلك منه وسري عنه ما كان وجده عليه هكذا ذكره القاضي الرشيد ابن الزبير في كتاب الجنان وذكر غيره أنّ هذين البيتين لولي الدولة أبي مُحمّد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر المصري. وذكر أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المصري في جزء سمّاه الإشارة إلى من نال الوزارة ذكر فيه وزراء المصريين إلى عصره وابتدأ بذكر يعقوب المذكور فقال كان كاتباً يهودياً صائناً لنفسه محافظاً على دينه جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه واتصل بخدمة كافور الإخشيدي فحمد خدمته ورد إليه زمام ديوانه بمصر والشام فضبطه له على حسب إرادته. وسار إلى المغرب وخدم المعز وتولّى أمور العزيز في مستهل شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة ولقبه بالوزارة وأمر أن لا يخاطبه أحد إلا بها ولا يُكاتب إلا بذلك ثم اعتقله في سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة في القصر فأقام معتقلاً شهوراً ثم أطلقه في سنة أربع وسبعين ورده إلى ما كان عليه ووجدت رقعة في دار الوزير المذكور في سنة ثمانين وثلثمائة وهي السنة التي توفي فيها ونسختها (احذروا من حوادث الأزمان وتوقوا طوارق الحدثان قد أمنتم من الزمان ونمتم رب

خوف مكمن في أمان) فلما قرأها قال لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك ولما اعتل علة الوفاة آخر السنة المذكورة ركب إليه العزيز عائداً وقال له وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي أو تفدى فأفديك بولدي فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب فبكى وقبَّل يده وقال أمَّا فيما يخصني فأنت أرعى لحقي من أن أسترعيك إياه وأراف على من أخلفه من أن أوصيك به ولكني أنصح لك فيما يتعلق بدولتك سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبقِ على مفرج بن دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة ومات فأمر العزيز أن يُدفن في داره وهي المعروفة بدار الوزارة بالقاهرة داخل باب النصر في قبة كان بناها وصلَّى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف حزيناً لفقده وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده. وكان إقطاعه من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار وبز من كل صنف بخمسمائة ألف دينار وكان عليه للتجار ستة عشر ألف دينار فقضاها عنه العزيز من بيت المال وفُرقت على قبره. وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء وفيه فطنة وذكاء وكان في قديم أمره خرج إلى الشام فنزل الرملة وصار بها وكيلاً فكسر أموال التُجّار وهرب إلى مصر فتاجر كافوراً الإخشيدي فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع فقال لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً فطمع في الوزارة فأسلم يوم جمعة في جامع مصر فلما عرف الوزير أبو

الفضل جعفر بن الفرات أمره قصده فهرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع الملقب بالمعز وخرج معه إلى مصر فلما مات الملقب بالمعز وقام ولده الملقب بالعزيز استوزر ابن كلَّس في سنة خمس وستين وثلثمائة فلم يزل مدبر أمره إلى أن هلك في ذي الحجّة سنة ثمانين وثلثمائة وقال غيره ابتدأ المرض بالوزير المذكور يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمانين وثلثمائة وأخذته سكتة ثم تزايد به المرض واشتد وانطلق لسانه ثم توفي ليلة الأحد على صباح الاثنين لخمس خلون من ذي الحجّة من السنة المذكورة وكفن في خمسين ثوباً واجتمع الناس كلهم من القصر إلى داره وخرج العزيز وعليه الحزن ظاهر وركب بغلته بغير مظلة وكانت عادته أنه لا يركب إلا بها وصلَّى عليه وبكى وحضر مواراته ويُقال إنه كفن وحُنّط بما مبلغه عشرة آلاف دينار وذكر من سمع العزيز وهو يقول وأطول أسفي عليك يا وزير وبكى عليه القائد جوهر بكاءً شديداً وإنما كان بكاؤه على نفسه لأنه عاش بعده سنة واحدة وغدا الشعراء إلى قبره ويُقال إنه رثاه مائة شاعر وأخذت قصائدهم وأجيزوا وقيل إنه مات على دينه وكان يُظهر الإسلام والصحيح أنه أسلم وحسن إسلامه وقال يوماً وقد ذكر اليهود في مجلسه كلاماً يسوء اليهود سماعه ثم بين عوراتهم وفساد مذهبهم وأنهم على غير شيء وأنَّ اسم النبي في التوراة وهم يجحدونه وكانت ولادته في سنة ثماني عشرة وثلثمائة ببغداد عند باب القز رحمه الله تعالى. وكلَّس بكسر الكاف واللام المشددة وبعدها سين مهملة. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحمَّد بن أبي بكر (ت

681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، 1968م)، ج7، صص 27-32.

138. هو: ابن زولاق أبو مُحمَّد الحسن بن إبراهيم بن الحُسين بن الحسن بن علي بن خالد بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق الليثي مولاهم المصري كان فاضلاً في التاريخ وله فيه مصنف جيد وله كتاب في خطط مصر استقصى فيه وكتاب أخبار قُضاة مصر جعله ذيلاً على كتاب أبي عمر مُحمّد بن يوسف بن يعقوب الكندي الذي ألّفه في أخبار قُضاة مصر وانتهى فيه إلى سنة ست وأربعين ومائتين فكمله ابن زولاق المذكور وابتدأ بذكر القاضي بكار بن قتيبة وختمه بذكر مُحمّد بن النعمان وتكلم على أحواله إلى رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة وكان جده الحسن بن علي من العلماء المشاهير وكانت وفاته أعني أبا مُحمّد يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة رحمه الله تعالى ورأيت في كتابه الذي صنفه في أخبار قُضاة مصر في ترجمة القاضي أبي عبيد أن الفقيه منصور بن إسماعيل الضرير توفي في جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة ثم قال قبل مولدي بثلاثة أشهر فعلى هذا التقدير تكون ولادة ابن زولاق المذكور في شعبان سنة ست وثلثمائة وروى عن الطحاوي وزولاق بضمِّ الزاي وسكون الواو وبعد اللام ألف وقاف والليثي بفتح اللام وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ثاء مثلثة هذه النسبة إلى ليث بن كنانة وهي قبيلة كبيرة قال ابن يونس المصري هو ليثي بالولاء. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، صص 92-93.

139. تامر، الحاكم بأمر الله، صص 72-73.

140. هو: ابن الهيثم هو أبو علي مُحمّد بن الحسن بن الهيثم (ت 430 هـ)، أصله من البصرة ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى آخر عمره وكان فاضل النفس قوي الذكاء متفنناً في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد محباً للخير وقد لخّص كثيراً من كتب أرسطوطاليس وشرحها وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية إلا أنه لم يباشر أعمالها ولم تكن له دربة بالمداواة. وتصانيفه كثيرة الإفادة وكان حسن الخط جيد المعرفة بالعربية وحدثني الشيخ علم الدين بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الحنفي المهندس قال كان ابن الهيثم في أول أمره بالبصرة ونواحيها قد وزر وكانت نفسه تميل إلى الفضائل والحكمة والنظر فيها ويشتهي أن يتجرد عن الشواغل التي تمنعه من النظر في العلم فأظهر خبالاً في عقله وتغيراً في تصوره وبقي كذلك مدة حتى مكن من تبطيل الخدمة وصرف من النظر الذي كان في يده ثم إنه سافر إلى ديار مصر وأقام بالقاهرة في الجامع الأزهر بها وكان يكتب في كل سنة إقليدس والمجسطي ويبيعهما ويقتات من ذلك الثمن ولم تزل هذه حاله إلى أن توفي رحمه الله. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت 668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت، دار مكتبة الحياة، بلا)، صص 550-551.

141. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 551.

142. هو: أبو الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المُنجّم المصري المشهور صاحب الزيج الحاكمي، المعروف بزيج ابن يونس وهو زيج كبير رأيته في أربع مجلدات بسط القول والعمل فيه وما أقصر في تحريره ولم أرَ في الأزياج على كثرتها أطول منه وذكر أنَّ الذي أمره بعمله وابتداه له العزيز أبو الحاكم صاحب مصر. كان مختصاً بعلم النجوم متصرفاً في سائر العلوم بارعاً في الشعر وعلى إصلاحه لزيج يحيى بن منصور تعويل أهل مصر في تقويم الكواكب وعدله القاضي أبو عبد الله مُحمّد بن النعمان في جمادى الأولى سنة ثمانين وثلثمائة وخلّف ولداً متخلفاً باع كتبه وجميع تصنيفاته بالأرطال في الصابونيين وكان قد أفنى عمره في الرصد والتسيير للمواليد وعمل فيها ما لا نظير له وكان يقف للكواكب، قال الأمير المختار المعروف بالمُسبّحي أخبرني أبو الحسن المُنجّم الطبراني أنه طلع معه إلى جبل المقطّم وقد وقف للزهرة فنزع ثوبه وعمامته ولبس ثوباً نساوياً أحمر ومقنعة حمراء تقنع بها وأخرج عوداً فضرب به والبخور بين يديه فكان عجيباً من العجب، قال الأمير المختار في تاريخ مصر كان ابن يونس المذكور أبله مغفلاً يعتم على طرطور طويل ويجعل رداءه فوق العمامة وكان طويلاً وإذا ركب ضحك منه الناس لشهرته وسوء حاله ورثاثة لباسه وكان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة في النجامة لا يشاركه فيها غيره وكان أحد الشهود وكان متفنناً في علومٍ كثيرة وكان يضرب بالعود على جهة التأدب

وله شعر حسن. وقال المُسبّحي كانت وفاته بكرة يوم الإثنين لثلاث خلون من شوال سنة تسع وتسعين وثلثمائة فجأة رحمه الله تعالى وصلّى عليه في الجامع بمصر القاضي مالك بن سعيد بن أحمد بن مُحمّد بن سليمان بن ثواب ودُفن بداره بالقرائين. يُنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، صص 429-431.

143. تامر، الحاكم بأمر الله، ص74.

144. كان أبوه كاتباً من دعاة الإسماعيلية. فقال: كان أبي تولّى التصرف بقرية كبيرة ثم نزل بُخارى فقرأت القرآن وكثيراً من الأدب ولي عشر وكان أبي ممن آخى داعي المصريين ويُعد من الإسماعيلية. ينظر: الذهبي، أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط9، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413هـ)، ج17، ص531.

145. أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت 665هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد الزيبق، ط1، (بيروت مؤسسة الرسالة، 1997م)، ج2، ص210.

146. يُنظر: سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م)، ص596.

147. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، 1968م)، ج7، ص29.

148. المقريزي، أبي العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ)، أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2001م)، ج2، صص 126 – 127.

149. سيد، الدولة الفاطمية، ص597.

150. المصدر نفسه، صص 600 – 601.

151. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص29 ؛ عطا الله، خضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، (القاهرة، دار الفكر العربي، بلا)، ص162.

152. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، بلا)، ج4، ص122.

153. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص101.

154. ماجد، عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم، ج2، ص ص 14 – 40.

155. أمين، أحمد، ظهر الإسلام، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1966م)، ج1، ص199.

156. عطا الله، خضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، (القاهرة، دار الفكر العربي، بلا)، ص164.

157. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص200؛ عطا الله، الحياة الفكرية، ص165.

158. الشابشتي: أبو الحسين علي بن مُحمّد الشابشتي الكاتب كان أديباً فاضلاً تعلّق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر فولاه أمر خزانة كتبه وجعله دفتر خوان يقرأ له الكتب ويُجالسه وينادمه وكان حلو المحاورة لطيف المعاشرة وله مصنفات حسنة منها كتاب الديارات ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة والديار المصرية وجميع الأشعار المقولة في كل دير وما جرى فيه وهو على أسلوب الديارات للخالديين وأبي الفرج الأصبهاني مع أنَّ هذه الديارات قد جمع فيها تواليف كثيرة وله كتاب (اليُسر بعد العسر) وكتاب (مراتب الفقهاء) وكتاب (التوقيف والتخويف) وله مكاتبات ومراسلات مضمنة شعراً وحكماً وغير ذلك من المصنفات في الأدب وغيره. وتوفي سنة تسعين وثلثمائة وقال الأمير المختار المعروف بالمُسبّحي توفي سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وزاد غيره فقال ليلة الثلاثاء منتصف صفر رحمه الله تعالى وكانت وفاته بمصر. (يُنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص319).

159. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص52؛ زيدان، جرجي، تاريخ التمدن العربي، مراجعة وتعليق: حسين مؤنس، (القاهرة، دار الهلال، 2001م)، جج3، صص 230-231.

160. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 1997م)، ج2، صص163-165.

161. عطا الله، الحياة الفكرية في مصر، ص170.

162. جُنادة الهروي: أبو أسامة جنادة بن مُحمَّد اللغوي الأزدي الهروي كان مكثراً من حفظ اللغة ونقلها عارفاً بوحشيها ومستعملها لم يكن في زمنه مثله في فنه وكان بينه وبين الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري وأبي الحسن علي بن سليمان المقرئ النحوي الأنطاكي مؤانسة واتحاد كثير وكانوا يجتمعون في دار العلم وتجري بينهم مذاكرات ومفاوضات في الآداب ولم يزل ذلك دأبهم حتى قتل الحاكم صاحب مصر أبا أسامة جنادة وأبا الحسن المقرئ الأنطاكي المذكورين في يومٍ واحد وهو في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلثمائة رحمهما الله تعالى واستتر بسبب قتلهما الحافظ عبد الغني المذكور خوفاً على نفسه من مثل ذلك حكى ذلك الأمير المختار المعروف بالمُسبّحي في تاريخه. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص372).

163. الحافظ عبد الغني أبو مُحمّد عبد الغني بن سعيد بن علي بن سعيد بن بشر بن مروان بن عبد العزيز الأزدي الحافظ المصري كان حافظ مصر في عصره وله تواليف نافعة منها (مشتبه النسبة) وكتاب (المؤتلف والمختلف) وغير ذلك وانتفع به خلق كثير وكانت بينه وبين أبي أسامة جنادة اللغوي وأبي علي المقرئ الأنطاكي مودة أكيدة واجتماع في دار الكتب ومذكرات فلما قتلهما الحاكم صاحب مصر استتر بسبب ذلك الحافظ عبد الغني خوفاً أن يلحق بهما لاتهامه بمعاشرتهما وأقام مستخفياً مدة حتى حصل له الأمن فظهر. وكانت ولادة الحافظ عبد الغني لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وتوفي ليلة الثلاثاء ودفن يوم الثلاثاء

سابع صفر سنة تسع وأربعمائة بمصر ودفن بحضرة مصلى العيد رحمه الله تعالى وذكر أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي المعروف بابن الطحان في تاريخه الذي جعله ذيلاً لتاريخ ابن يونس المصري أنَّ عبد الغني بن سعيد المذكور مولده في سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة والله أعلم. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص223).

164. عبد القادر القرشي، محيي الدين أبو مُحمَّد عبد القادر بن مُحمَّد بن نصر الله القرشي (ت 775هـ)، الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية، (كراتشي، مير مُحمَّد كتب خانه، بلا)، صص 106-107.

165. قال ابن تغري بردي: "وأمر بعمارة دار العلم وفرشها ونقل إليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السُنّة شيخين يعرف أحدهما بأبي بكر الأنطاكي وخلع عليهما وقربهما ورسم لهما بحضور مجلسه وملازمته وجمع الفقهاء والمحدثين إليها وأمر أن يُقرأ بها فضائل الصحابة ورفع عنهم الاعتراض في ذلك" النجوم الزاهرة، ج4، ص222.

166. علي بن رضوان: هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر وكان مولده ومنشؤه بمصر وبها تعلّم الطب، وكانت وفاة علي بن رضوان رحمه الله في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بمصر وذلك في خلافة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله الحاكم، ولعلي بن رضوان من الكتب: شرح كتاب العرق لجالينوس وفرغ من شرحه له في يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذي الحجّة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، شرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس، شرح كتاب النبض الصغير لجالينوس، شرح كتاب

جالينوس إلى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض، شرح المقالة الأولى في خمس مقالات، وشرح المقالة الثانية في مقالتين، شرح كتاب الأسطقسات لجالينوس، شرح بعض كتاب المزاج لجالينوس ولم يشرح من الكتب الستة عشر لجالينوس سوى ما ذكرت كتاب الأصول في الطب أربع مقالات كناش، رسالة في علاج الجذام، كتاب تتبع مسائل حنين، مقالتان كتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب، ثلاث مقالات مقالة في أنَّ جالينوس لم يغلط في أقاويله في اللبن على ما ظنه قوم، مقالة في دفع المضار عن الأبدان بمصر، مقالة في سيرته، مقالة في الشعير وما يعمل منه ألفها لأبي زكريا يهوذا بن سعادة الطبيب، جوابه لمسائل في لبن الأتن سأله إياها يهوذا بن سعادة، تعاليق طبية، تعاليق نقلها في صيدلة الطب، مقالة في مذهب أبقراط في تعليم الطب، كتاب في أن أفضل أحوال عبد الله بن الطيب الحالي السوفسطائية وهو خمس مقالات، كتاب في أنَّ الأشخاص كل واحد من الأنواع المتناسلة أب أول منه تناسلت الأشخاص على مذهب الفلسفة، تفسير مقالة الحكيم فيثاغورس في الفضيلة، مقالة في الرد على أفرائيم وابن زرعة في الاختلاف في الملل، انتزاعات شروح جالينوس لكتب أبقراط، كتاب الانتصار لأرسطوطاليس وهو كتاب التوسط بينه وبين خصومه المناقضين له في السماع الطبيعي، تسع وثلاثين مقالة تفسير ناموس الطب لأبقراط، تفسير وصية أبقراط المعروفة بترتيب الطب، كلام في الأدوية المسهلة، كتاب في عمل الأشربة والمعاجين، تعليق من كتاب التميمي في الأغذية والأدوية، تعليق من كتاب فوسيدونيوس في

أشربة لذيذة للأصحاء، فوائد علقها من كتاب فيلغريوس في الأشربة النافعة اللذيذة في أوقات الأمراض، مقالة في الباه، مقالة في أن كل واحد من الأعضاء يتغذى من الخلط المشاكل له، مقالة في الطريق إلى إحصاء عدد الحميات، فصل من كلامه في القوى الطبيعية، جواب مسائل في النبض وصل إليه السؤال عنها من الشام رسالة في أجوبة مسائل سأل عنها الشيخ أبو الطيب أزهر بن النعمان في الأورام، رسالة في علاج صبي أصابه المرض المُسمَّى بداء الفيل وداء الأسد نسخة الدستور الذي أنفذه أبو العسكر الحسين بن معدان ملك مكران في حال علّة الفالج في شقه الأيسر وجواب ابن رضوان له فوائد علقها من كتاب حيلة البرء لجالينوس، فوائد علقها من كتاب تدبير الصحة لجالينوس، فوائد علقها من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، فوائد علقها من كتاب الفصد لجالينوس، فوائد علقها من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، فوائد علقها من كتاب الميامر لجالينوس، فوائد علقها من كتاب قاطاجانس لجالينوس، فوائد علقها في الأخلاط من كتب عدة لأبقراط وجالينوس، كتاب في حل شكوك الرازي على كتب جالينوس، سبع مقالات، مقالة في حفظ الصحة، مقالة في أدوار الحميات، مقالة في التنفس الشديد وهو ضيق النفس، رسالة كتب بها إلى أبي زكريا يهوذا. وغيرها كثير. (ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت 668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار مكتبة الحياة، بلا)، صص 561-564).

167. جنادة الهروي: أبو أسامة جنادة بن مُحمَّد اللغوي الأزدي الهروي كان مكثراً من حفظ اللغة ونقلها عارفاً بوحشيها ومستعملها لم يكن في زمنه مثله في فنه وكان بينه وبين الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري وأبي الحسن علي بن سليمان المقرئ النحوي الأنطاكي مؤانسة واتحاد كثير وكانوا يجتمعون في دار العلم وتجري بينهم مذاكرات ومفاوضات في الآداب ولم يزل ذلك دأبهم حتى قتل الحاكم صاحب مصر أبا أسامة جنادة وأبا الحسن المقرئ الأنطاكي المذكورين في يوم واحد وهو في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلثمائة رحمهما الله تعالى واستتر بسبب قتلهما الحافظ عبد الغني المذكور خوفاً على نفسه من مثل ذلك حكى ذلك الأمير المختار المعروف بالمُسبّحي في تاريخه. والهروي بفتح الهاء والراء وبعدها واو وياء هذه النسبة إلى هراة وهي من أعظم مدن خراسان. وجُنادة بضم الجيم وفتح النون وبعد الألف دال مهملة مفتوحة ثم هاء ساكنة. (يُنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص372).

168. عطا الله، الحياة الفكرية في مصر، صص 171-172.

169. زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة وتعليق: حسين مؤنس، (القاهرة، دار الهلال، بلا)، ج3، ص232.

170. المقريزي، الخطط، ج2، صص 274-278.

171. هو: القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي ابن القاضي السعيد أبي مُحمَّد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار المعروف بالقاضي الفاضل الملقب مجير الدين وزر

للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى وتمكن منه غاية التمكن وبرز في صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين وله فيه الغرائب مع الإكثار أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أنّ مسودات رسائله في المجلدات، والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة مُجلَّد وهو مجيد في أكثرها. قال العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة في حقه رب القلم والبيان واللسن واللسان والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة والبديهة المعجزة والبديعة المطرزة والفضل الذي ما سمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلَّق بغباره أو جرى في مضماره فهو كالشريعة المُحمَّدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع يخترع الأفكار ويفترع الأبكار ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار وهو ضابط الملك بآرائه رابط السلك بآلائه إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة أين قس عند فصاحته وابن قيس في مقام حصافته ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته وأطال القول في تقريظه. وكانت ولادته يوم الإثنين في خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان وتولَّى أبوه القضاء بمدينة بيسان فلهذا نسبوا إليها. وبنى بالقاهرة مدرسة بدرب ملوخية ورأيت بخطه أنه استفتح التدريس بها يوم السبت مستهل المحرم من سنة ثمانين وخمسمائة. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، صص 158 – 162).

172. عطا الله، الحياة الفكرية في مصر، ص173؛ سيد، الدولة الفاطمية، صص 210-217.

173. الـديوه جـي، سـعيد، بيـت الحكمـة، ط2، (الموصـل، دار الكتـب، 1972م)، ص47.

174. سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديـد، (القـاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م)، صص 574-575.

175. هو: المُسبِّحي الأمير المختار عز الملك مُحمّد بـن أبـي القاسـم عبيـد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المعروف بالمُسبّحي الكاتـب الحراني الأصل المصري المولد صاحب التاريخ المـشهور وغـيره مـن المـصنفات كانـت فيـه فـضائل ولديـه معـارف ورزق حظـوة في التصانيف وكان على زي الأجناد واتصل بخدمة الحـاكم بـن العزيـز العبيدي صاحب مـصر ونـال منـه سـعادة وذكـر في تاريخـه أنَّ أول تصرفه في خدمة الحاكم صاحب مصر كـان في سـنة ثمـان وتـسعين وثلثمائة وذكر فيه أيضاً أنه تقلَّد القيس والبهنسا من أعمال الـصعيد ثم تولَّى ديوان الترتيب وله مع الحاكم مجالس ومحاضـرات حـسبما يشهد بها تاريخه الكبير، وجمـع مقـدار ثلاثـين مـصنفاً منهـا التـاريخ المـذكور الـذي قـال في حقـه التـاريخ الجليـل قـدره الـذي يـستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيـه وهـو أخبـار مـصر ومـن حلـها مـن الـولاة والأمـراء والأئمـة والخلفـاء ومـا بهـا مـن العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة وذكـر نيلـها وأحـوال من حل بها إلى الوقت الذي كتبنا فيـه تعليـق هـذه الترجمـة وأشـعار الشعراء وأخبار المغنين ومجالس القضاة والحكام والمعـدلين والأدبـاء والمتغزلين وغيرهم وهو ثلاثة عشر ألف ورقة. ومن تـصانيفه كتـاب (التلويح والتصريح) في معاني الشعر وغيره وهو ألف ورقة وكتـاب

الراح والارتياح ألف وخمسمائة ورقة وكتاب (الغرق والشرق) في ذكر من مات غرقاً وشرقاً مائتا ورقة وكتاب (الطعام والإدام) ألف ورقة وكتاب (درك البغية) في وصف الأديان والعبادات ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة و(قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم) ألف وخمسمائة ورقة وكتاب (المفاتحة والمناكحة) في أصناف الجماع ألف ومائتا ورقة وكتاب (الأمثلة للدول المقبلة) يتعلق بالنجوم والحساب خمسمائة ورقة وكتاب (القضايا الصائبة) في معاني أحكام النجوم ثلاثة آلاف ورقة وكتاب (جونة الماشطة) يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع وهو مجموع مختلف غير مؤتلف ألف وخمسمائة ورقة وكتاب (الشجن والسكن) في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة وكتاب (السؤال والجواب) ثلثمائة ورقة وكتاب (مختار الأغاني ومعانيها) وغير ذلك من الكتب. وكانت ولادة المُسبّحي المذكور يوم الأحد عاشر رجب سنة ست وستين وثلثمائة كذا ذكره في تاريخه الكبير وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة. وتوفي والده ضحوة نهار الاثنين تاسع شعبان سنة أربعمائة وعمره ثلاث وتسعون سنة وصلّى عليه في جامع مصر ودُفن في داره رحمهم الله تعالى أجمعين. والمُسبحي بضم الميم وفتح السين المهملة وكسر الباء الموحدة وفي آخره حاء مهملة قال السمعاني في كتاب الأنساب هذه النسبة إلى الجد وعرف بها المُسبحي صاحب تاريخ المغاربة ومصر يعني الأمير المذكور (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، صص 377-380).

176. سيد، الدولة الفاطمية، ص 576.

177. المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ)، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ/ 2001م)، ج1، ص367.

178. المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج1، ص377؛ سيد، الدولة الفاطمية، صص 577-578.

179. المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج1، ص390؛ سيد، الدولة الفاطمية، ص 578.

180. سيد، الدولة الفاطمية، ص578.

181. الطيباوي، عبد اللطيف، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، (بيروت: دار الأندلس، 1963م)، ج1، ص54.

182. تاريخ دول الإسلام، (الهند: حيدر آباد – الدكن،1337هـ)، ج2، ص9.

183. نظام المُلك: ولد حسين نظام الملك الطوسي سنة 408هـ/ 1017م في مدينة طوس، وفيها تعلَّم القرآن الكريم، والعربية وفقه الشافعية والحديث في مدن خراسان الأخرى، كان كاتباً كفؤاً عند جفري بك السلجوقي، ثم بعد ذلك علت مكانته عند السلاجقة، حتى أصبح وزيراً عند ألب أرسلان سنة 451هـ ، وبقى نظام المُلك يشغل ذلك المنصب حتى وفاته سنة 485هـ/ 1092م، اشتهر نظام الملك بتأسيسه المدارس النظامية. يُنظر: نظام المُلك الطوسي، الخواجة حسين (485هـ) ، سياست نامة (سير الملوك)، ترجمة: د. يوسف

حسين بكار، (بيروت: دار القدس، د.ت)، ص13 وما بعدها المقدمة. وللتفصيل عنه ينظر: البُخاري، أبو عبد الله مُحمّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، كتاب التاريخ الكبير، (د.م: المكتبة العملاقة لديار بكر، د.ت)، ج1، ص465؛ ابن حبَّان الأنصاري (ت369هـ)، أبو مُحمّد عبد الله بن مُحمّد بن جعفر، طبقات المُحدّثين بأصفهان والواردين عليها، ط2، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1412هـ)، ج1، ص41؛ السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، ط1، تحقيق: سعيد محمد اللجام، (د.م: مكتبة الهلال، 1409هـ/ 1989م)، ص109؛ الشهرزوري، الإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت643هـ)، مقدمة ابن صلاح، ط1، تعليق وشرح: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، (بيروت: مطبعة دار الكتب العلمية، 1416هـ)، ص160؛ السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت756هـ)، السيف الصقيل في الرد على ابن زنجفيل، (د.م: مطبعة زهران، د.ت)، ص51.

184. تاريخ دول الإسلام، ج2، ص9.

185. للتفصيل عن المدرسة النظامية يُنظر: السامرائي، عامر حميد حمود، المدرسة النظامية، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية التربية: 2000م)، ص37 وما بعدها.

186. الخطط، ج2، ص263.

187. المدرسة النظامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المُجلَّد 3، ج1، 1954، ص 143-158.

188. ما طبع عن بلدان العراق باللغة العربية، مجلة سومر، المُجلّد 10، 1954، ج1، ص40-73.

189. المدارس، مجلة سومر، المُجلّد 9، 1953م، ج2، ص361.

190. علماء النظاميات ومدارس الشرق الإسلامي، ط1، (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1973م)، ص90.

191. المصدر نفسه، ص90.

192. الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب، ص52؛ الرحيم، الخدمات العامة، ص603.

193. الطيباوي، المصدر نفسه، ص23.

194. المصدر نفسه، ص23 –24؛ الرحيم، الخدمات العامة، ص603.

195. الطيباوي، المصدر نفسه، ص23- 24.

196. البداية والنهاية، ج1، ص357.

197. الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب، ص23- 24.

198. الرحيم، تاريخ الحضارة، ص603؛ الاسكندراني، محمد حمدي عاشور وآخرون، تاريخ الإسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور، مراجعة: احمد فكري، (القاهرة: 1963م)، ج1، ص 293.

199. الثامري، إحسان ذنون، الحياة العلمية زمن السامانيين – التاريخ الثقافي لخراسان وبلاد ما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، (بيروت: دار الطليعة، 2001م)، ص199 ملحق رقم (2) الذي أورد فيه مدارس خراسان وما وراء النهر في عهد السامانيين فقط والكثير منها قبل النظامية.

200. المقريزي، الخطط، ج2، ص199 -200.

201. معروف، ناجي، نشأة المدارس المستقلة في الإسلام ، ص105.

202. وفيات الأعيان، ج2، ص344.

203. معروف، نشأة المدارس، ص106.

204. الرحيم، تاريخ الحضارة، ص634.

205. غنية ياسر كباشي، المكونات الثقافية في الدولة الفاطمية (297-567هـ/ 909-1171م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (بغداد، كلية التربية، 2007م)، صص 356-360.

206. عبد الله إسماعيل الصوفي، المكتبات وخدماتها، ط1، (عمَّان، جمعية عمال المطابع، ب.ت)، ص65.

207. حسن رشاد، المكتبات ورسالتها، ط3، (دار الفكر العربي، ب.ت)، ص 31.

208. د. عمر أحمد همشري و د. ربحي مصطفى عليان، أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات، ط1، (عمّان، مطابع جريدة الأسواق، 1988م)، ص 13.

209. أحمد بدر، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، (الرياض، دار المريخ للنشر، 1985م)، ص33.

210. سعيد أحمد حسن، أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ط1، (عمّان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 1984م)، ص2.

211. المصدر نفسه، صص 91 – 93.

212. المصدر نفسه.

213. المصدر نفسه.

214. المصدر نفسه.

215. دكتور أحمد بدر، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، (الرياض ، دار المريخ للنشر، 1985م)، ص35.

216. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، ص 179.

217. محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص 148.

218. التربية الإسلامية في الأندلس. ترجمة: الطاهر أحمد مكي، (القاهرة،دار المعارف، ب.ت)، ص191.

219. المصدر نفسه، ص195.

220. محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص 74.

221. المصدر نفسه، ص176.

222. المصدر نفسه، ص183.

223. المصدر نفسه، ص212.

224. المصدر نفسه، ص214.

225. علي محمد راضي، الأندلس والناصر، (بيروت، دار الكتاب العربي، ب.ت)، صص 115– 116.

226. ابن الأبار، التكملة، ص138.

227. يُنظر: القاضي صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، وخصوصاً ما يتعلق بعلماء طليطلة وسرقسطة، ص ص80 ـ 100؛ وقد نقل عنه ابن أبي أصيبعة، ج 3، صص. 78 ـ 85؛ كما نقل عنهما الدكتور إحسان عباس في كتابه "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين" دار الثقافة، بيروت، صص. 60 ـ 61.

228. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ط 2، (القاهرة، 1958)، ص60.

229. سيمون الحايك، طليطلة مدينة الثقافة والترجمة، مجلة العربي، عدد 315، فبراير1985، ص 67.

230. المصدر نفسه.

231. يُنظر: مجلة الشرق الأوسط، عدد345، فبراير 1993، ص 14، أطلس اللغة الإسبانية يضم بحراً عربياً، ضمن ملف أعده للمجلة كل من طلعت شاهين وسمير بيروتي ومحمد حربي.

232. يُنظر: الدكتور محمد القادري، هجرة المسلمين من إسبانيا في القرن السادس عشر، مجلة الإيمان المغربية، عدد 7 ـ 8 (مزدوج)، 1964، ص 71.

233. يُنظر: عبد اللطيف الخطيب، ألفونسو السادس ومدرسة المترجمين بطليطلة، مجلة دعوة الحق المغربية، العدد السابع، السنة الثانية عشرة، يونيو 1969، صص 69ـ 70؛ حول مدرسة المترجمين بطليطلة، دعوة الحق، العدد السابع، السنة الثالثة، أبريل 1960، صص 58 ـ 59.

234. يُنظر: أنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، ط 1، (القاهرة، مطبعة النهضة المصرية، ب.ت)، ص 537.

235. يُنظر: ناديا ظافر شعبان، ألفونسو العاشر والإسلام، المجلة العربية السعودية، عدد مزدوج، 4 ـ 5 ماي 1979، صص110 ـ 112.

236. أنخيل غونثاليث بالينثيا، مصدر سابق، صص 573 ـ 574.

237. المصدر نفسه، ص574.

238. سيمون الحايك، طليطلة مدينة الثقافة والترجمة، مجلة العربي، عدد 315، فبراير 1985، ص 9.

239. يُنظر: أحمد مختار العبادي، من التراث العربي الإسباني. نماذج لأهم المصادر العربية والحوليات الإسبانية التي تأثرت بها، مجلة عالم الفكر، عدد 1، المجلَّد الثامن، 1977، صص 86 ـ 87؛ ويُنظر كذلك: السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول، المجلد الثالث، 1950.

240. يُنظر: مجلة عالم الفكر، مرجع مذكور، ص 88. وقام بترجمة نص الملحمة إلى اللغة العربية، وقدم لها بدراسة تفصيلية الدكتور طاهر أحمد مكي تحت عنوان 'ملحمة السيد، أو ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية' وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام 1970.

241. يُنظر: د. سيمون الحايك، الملك ألفونسو العاشر الحكيم أو نشوء الدولة النصرية، ص221. لقد ورث ألفونسو العاشر عن أبيه فرناندو الثالث ملكاً قوياً، كاد أن يضيعه بحيث لم يستطع أن يسترجع غرناطة من العرب، كما كان ينتظر منه؛ كما فرض ضرائب جديدة على شعبه بسبب ثورة Soria عليه. حاول في أواخر أيامه أن يقسم مملكته بين أبناء أخيه وولده سانشو الذي عارضه، فثار عليه، فلجأ إلى إشبيليا إلى أن مات فيها سنة 1284م.

242. يُنظر: بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ط2، (بيروت، 1979).

243. يُنظر: الأعسم، عبد الأمير، الاستشراق الفلسفي وانتقال الفلسفة العربية إلى اللاتين في العصر الوسيط، مجلة الاستشراق، مج3، (بغداد، 1989)، ص14 – 31.

244. يُنظر: الأعسم، الاستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر، مجلة الاستشراق، مج1، (بغداد، 1987)، ص14 – 27.

245. عقيقي، نجيب، المستشرقون، (القاهرة، 1964)، ج1، ص137 وما بعدها؛ مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، بحث للأستاذ الدكتور عبد الأمير الأعسم، منطق العلاقة بين العقل العربي والعقل الأوربي، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2001)، ج2، ص ص193 – 194.

246. يُنظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، (بيروت، دار القلم، 1979)، ص11؛ كمال اليازجي، معالم الفكر العربي، ط6، (بيروت، دار العلم للملايين، 1979)، ص338 – 341.

247. شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، ط2، (سلسلة عالم المعرفة)، (الكويت، 1988)، ج2، ص ص94 – 95.

248. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، بحث للدكتور نظلة الجبوري، قراءة في الطروحات الفلسفية للحضارة العربية ومقاربات النهضة الفلسفية الغربية في العصر الوسيط، ج2، ص ص239 – 240.

249. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، بحث للدكتور ظافر داود سلمان، الطب العربي وانتقاله إلى أوربا، ج2، ص ص380 – 382.

250. مكسيم رودنسون: (الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية)، في تراث الإسلام، تصنيف: شاخت وبوزورث، ترجمة: محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، 1978)، ص32.

251. P. M. Holt: "The Treatment of Arab History by Predeau, Ockley and Sale" in Historians of the Middle East (London, 1964), P. 290.

252. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة، 1956)، ص568.

253. المصدر نفسه.

254. Fuck J. W.: "Islam as an Historical Problem in European Historiography since 1800" in Historans of the M.E P.304.

255. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، بحث للدكتور عبد الجبار ناجي، الاستشراق وسيلة لنقل ترجمات بيت الحكمة العباسي إلى الغرب، ج2، ص ص494 – 502.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

1. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت 668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت، دار مكتبة الحياة، بلا).

2. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، بلا).

3. عبد القادر القرشي، محيي الدين أبو مُحَمَّد عبد القادر بن مُحَمَّد بن نصر الله القرشي (ت 775هـ)، الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية، (كراتشي، مير مُحَمَّد كتب خانه، بلا).

4. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، 1968م).

5. المقريزي، أبي العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ)، أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2001م).

6. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 1997م).

7. السمعاني (ت562هـ)، أدب الإملاء والاستملاء، ط1، تحقيق: سعيد محمد اللحّام، (د.م: مكتبة الهلال، 1409هـ / 1989م).

8. ابن حبّان الأنصاري (ت369هـ)، أبو مُحمَّد عبد الله بن مُحمَّد بن جعفر، طبقات المُحدِّثين بأصفهان والواردين عليها، ط2، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1412هـ).

9. السُبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت756هـ)، السيف الصقيل في الرد على ابن زنجفيل، (د.م: مطبعة زهران، د.ت).

10. المقريزي، تقي الدين أحمد، الخطط المقريزية، المواعظ والأعتبار، (مصر، 1324هـ).

11. الذهبي، أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط9، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413هـ).

12. الذهبي، شمس الدين مُحمَّد، ميزان الأعتدال في نقد الرجال، (مصر، 1325هـ).

13. الشهرزوري، الإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت643هـ)، مقدمة ابن صلاح، ط1، تعليق وشرح: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، (بيروت: مطبعة دار الكتب العلمية، 1416هـ).

14. ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت 626هـ)، معجم البلدان، (طهران، مكتبة الأسدي، 1965م)

15. أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت 665هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد الزيبق، ط1، (بيروت مؤسسة الرسالة، 1997م).

16. ابن الفوطي، عبد الرزاق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، (بغداد، 1351هـ).

17. البُخاري، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، كتاب التاريخ الكبير، (د.م: المكتبة العملاقة لديار بكر، د.ت).

18. هلال الصابي، غرس النعمة، (الهفوات النادرة، (دمشق، 1387هـ).

19. ابن النديم، مُحَمَّد بن إسحاق، الفهرست، (مصر، 1348هـ).

20. المقرّي، لسان الدين الخطيب، نفح الطيب في أخبار غصن الأندلس الرطيب، (مصر، 1304هـ).

21. المسعودي، علي، التنبيه والإشراف، (طبعة الصاوي).

22. مروج الذهب ومعادن الجوهر، (مصر، 1346هـ).

23. الأصفهاني، مُحمَّد بن مُحمَّد، دولة آل سلجوق، (مصر، 1331هـ).

24. ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، (مصر، 1250هـ).

25. البيهقي، إبراهيم بن مُحمَّد، المحاسن والمساوئ، (مصر، 1325هـ).

26. التنوخي، المحسن بن علي، نشوار المحاضرة، (دمشق، 1348هـ).

27. ابن تغري بردي، يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (مصر، 1350هـ).

28. الجهشياري، مُحمَّد بن عبدوس، الوزراء والكُتَّاب، (طبعة الصاوي).

29. الطوسي، الخواجة حسين (485هـ)، سياست نامة (سير الملوك)، ترجمة: د. يوسف حسين بكار، (بيروت: دار القدس، د.ت).

30. ابن جلجل الأندلسي، سليمان، طبقات الأطباء والحكماء، (مصر، 1955م).

31. ابن الجوزي، عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (حيدر آباد، 1357هـ).

32. ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، (مصر، 1348هـ).

33. حاجي خليفة، كشف الظنون، (الإستانة، 1941م).

34. ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، (مصر، 1284هـ).

35. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، (مصر، 1349هـ).

36. الدينوري، أحمد بن داود، الأخبار الطوال، (مصر، 1330هـ).

37. السبكي، عبد الوهاب، طبقات الشافعية، (مصر، 1324هـ).

38. السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات النُحاة، (مصر).

39. ابن شاكر، مُحَمَّد، فوات الوفيات، (مصر، 1290هـ).

40. صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، (مصر).

41. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، (إستانبول، 1931م).

42. الذهبي، تاريخ دول الإسلام، (الهند: حيدر آباد – الدكن،1337هـ)

43. طيفور، أحمد بن طاهر، بغداد، (مصر، 1366هـ).

44. ابن العبري، غريغوريوس، تاريخ مختصر الدول، (بيروت، 1890م).

45. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (مصر، 1250هـ).

46. أبو الفداء، إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، (مصر).

47. ابن الفرات، مُحَمَّد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، (بيروت، 1939م).

48. القفطي، جمال الدين علي بن يوسف، أخبار العلماء في أخبار الحكماء، (مصر، 1326هـ).

49. إنباه الرواة على أنباه النُحاة، (مصر، 1369هـ).

50. القلقشندي، أحمد، صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مصر، 1331هـ).

51. المرزباني، مُحَمَّد بن عمران، معجم الشعراء، (القدس، 1354هـ).

52. مسكويه، أحمد بن مُحَمَّد، تجارب الأمم، (مصر، 1332هـ).

المراجع:

1. اليعقوبي، أحمد، مشاكلة الناس لزمانهم، (بيروت، 1962م).

2. الأمير، علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، (بغداد، 1928م).

3. زيدان، جرجي، تاريخ التمدن العربي، مراجعة وتعليق: حسين مؤنس، (القاهرة، دار الهلال، 2001م).

4. حتي، فيليب، العرب، (بيروت، 1946م).

5. الديوه جي، سعيد، الأمير خالد بن يزيد، (دمشق، 1372هـ).

6. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، (القاهرة، 1356هـ).

7. أمين، أحمد، ضحى الإسلام، (مصر، 1355هـ).

8. أمين، أحمد، ظهر الإسلام، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1966م).

9. طرازي، الفيكونت فيليب، خزائن الكتب القديمة في الخافقين، (بيروت).

10. طوقان، قدري الحافظ، تراث العرب العلمي، الرياضيات والفلك، (مصر، 1931م).

11. عنّان، محمد عبد الله، تراجم إسلامية، (مصر، 1941م).

12. الطرابلسي، نوفل بن نعمة الله، صناجة الطرب في تقدمات العرب، (بيروت).

13. فريد وجدي، محمد، دائرة معارف القرن الثالث عشر (العشرين).

14. أحمد بن عامر، تونس عبر التاريخ، (تونس، 1379هـ / 1960م).

15. كرد علي، محمد، خطط الشام، (دمشق، 1323هـ).

16. الاسكندراني، محمد حمدي عاشور وآخرون، تاريخ الإسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور، مراجعة: احمد فكري، (القاهرة: 1963م).

17. المدور، جميل نخلة، حضارة الإسلام في دار السلام، (مصر، 1323هـ).

18. البستاني، بطرس، دائرة المعارف الإسلامية، (بيروت، 1876م).

19. تامر، عارف، الحاكم بأمر الله خليفة وإمام ومُصلح، ط1، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1402هـ /1982م).

20. السامرائي، عامر حميد حمود، المدرسة النظامية، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة بغداد، كلية التربية: 2000م).

21. الثامري، إحسان ذنون، الحياة العلمية زمن السامانيين – التاريخ الثقافي لخراسان وبلاد ما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، (بيروت: دار الطليعة، 2001م).

22. الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط5، (بيروت، دار العلم للملايين، 1980م).

23. سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م).

24. غنية ياسر كباشي، المكونات الثقافية في الدولة الفاطمية (297 - 567هـ /909 -1171م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (بغداد، كلية التربية، 2007م).

25. عطا الله، خضر أحمد، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، (القاهرة، دار الفكر العربي، بلا).

26. الديوه جي، سعيد، بيت الحكمة، ط2، (الموصل، دار الكتب، 1972م).

27. مجلة الأديب البيروتية، الجزء التاسع من السنة الثانية، 1943م.

28. ثقافة الهند، العدد الثاني من السنة الثانية.

29. مجلة عالم الغد، السنة الأولى، العدد 8 – 10 .

30. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، السنة 28.

31. مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني من سنة 1952م.

32. مجلة المكتبة العربية، السنة الأولى، العدد الأول.

33. تعريف العلماء بأبي العلاء.

34. الطيباوي، عبد اللطيف، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، (بيروت: دار الأندلس، 1963م).

35. مجموعة باحثين، بيت الحكمة العباسي.. عراقة الماضي ورؤية الحاضر، ج2، ط1، (بغداد، بيت الحكمة، 2001).

36. غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة، 1956).

37. مكسيم رودنسون: (الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية)، في تراث الإسلام، تصنيف: شاخت وبوزورث، ترجمة: محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، 1978).

38. شاخت وبوزورت، تراث الإسلام، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، ط2، (سلسلة عالم المعرفة)، (الكويت، 1988).

39. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، (بيروت، دار القلم، 1979).

40. كمال اليازجي، معالم الفكر العربي، ط6، (بيروت، دار العلم للملايين، 1979).

41. عقيقي، نجيب، المستشرقون، (القاهرة، 1964).

42. بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ط2، (بيروت، 1979).

43. أنخيل غونثاليث باليثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، ط1، (القاهرة، مطبعة النهضة المصرية، ب.ت).

44. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ط 2، (القاهرة، 1958).

45. سعيد أحمد حسن، أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ط1، (عمّان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 1984م).

46. علي محمد راضي، الأندلس والناصر، (بيروت، دار الكتاب العربي، ب.ت).

47. أحمد بدر، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، (الرياض، دار المريخ للنشر، 1985م).

48. عبد الله إسماعيل الصوفي، المكتبات وخدماتها، ط1، (عمّان، جمعية عمال المطابع، ب.ت).

49. حسن رشاد، المكتبات ورسالتها، ط3، (دار الفكر العربي، ب.ت).

50. د. عمر أحمد همشري و د. ربحي مصطفى عليان، أساسيات علم المكتبات والتوثيق والمعلومات، ط1، (عمّان، مطابع جريدة الأسواق، 1988م).

51. عبد المجيد بن حمده، ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثالث الهجري، (تونس، 1997).

52. إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963).

53. الهيتي، صالح فليح، الخوارزمي وتطور علم الخرائط، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، (بغداد، مطبعة العاني، 1987)، العدد (21).

54. محمد السيد غلاب، الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، من بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1984).

55. كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، (القاهرة، 1957).

المصدر الأجنبية:

1. Labat, R Manuel D Epigraphie Akkaolienne (Paris – 1976).
2. Unger – E "Biblio thek" Reallexikon der Assyriologie (RLA).
3. Von Soden – (edi) Akadisches Handworterbuch (AHW).
4. Hilpreeht, H Exploration in Bible Lands (London, 1903).
5. P. M Holt: "The Treatment of Arab History by Predeau, Ockley and Sale" in Historians of the Middle East (London, 1964).

6. Fuck J. W: "Islam as an Historical Problem in European Historiography since 1800" in Historans of the M.E.